
رواية
زينب السعود
الحرب التي أحرقت تولستوي
الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS

زينب السعود

الحرب التي أحرقت تولستوي

لعلّ أحد أسرار هذه الرواية وتأثيرها العميق في نفس القارئ يكمن في عنوانها الذّكي.. عنوان مُرَمَّز، مُثير للخيال والحدس، ومُحَرِّض على فتنة التفكير.

تولستوي الذي ناهضَ الحرب - وهو حيّ - في رائعته «الحرب والسّلام»، تحوّل جسده (نصّه) بعد أكثر من مئة عام على موته إلى نارٍ يسري دفئها في أوصال الأجساد المقرورة التي أنهكتها الحرب وأذلّها الجوع والخوف. تولستوي الروسي العظيم، صانع الحياة وصديق الإنسان، يقف في هذه الرواية وجهًا لوجه أمام روسي آخر عدوٍّ للعشب والنّدى، يصنع الموت والأحزان والمجازر.

تكسر الكاتبة في هذا العمل الصورة النمطية للصحافي المكتبي الحيادي، وتُلقي ببطلها في لجّة الحدث السّاخن، وتمنحه عينًا راصدة لا تكتفي بالنظر ومشاهدة مآسي الآخرين، بل توقظ في أعماقه الإنسان، فيجد نفسه أسيرَ شبكة اجتماعية وإنسانيّة مُعقَّدة، فإذا به يتحول من بطل روائي متَخيَّل إلى بطل واقعي من لحم ودم ومشاعر.

رواية محاذية / موازية تعايش تجربة الحرب، وتدخل في أهوالها الفاجعة وسطوة آثارها على البشر والحجر، وتحكي مصائر التائهين الذين انقطعت بهم السُّبل في بلاد بعيدة لم تعد تسيطر عليها سوى لغة الدم والنار والسلاح.

ويبقى الحدث مفتوحًا - رغم فظاعة الألم - على ضوء من الحبّ والتعاطف الإنساني النبيل في مشهد ما يزال مفتوحًا على المجهول..

د. نزار فلّوح





ISBN 978-9923-13-546-4



الآن ناشرون وموزعون
الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا،
مجمع المفلح التجاري (87)، ط1
Email: alaan.publish@gmail.com
alaan_publishing.jo
alaan.publishing



الحرب التي أحرقت تولستوي

الحرب التي أحرقت تولستوي (رواية)

المؤلف: زينب السعود

الطبعة العربية الأولى 2023



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. بسام الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط 1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

المراجعة اللغوية: د. نزار فلّوح

تصميم الغلاف: م. سجود العناسوة

t.me/yasmeenbook

ISBN: 978-9923-13-546-4

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(4090/ 8/ 2022)

306

السعود، زينب علي مسلم

الحرب التي أحرقت تولستوي/ زينب علي مسلم السعود. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

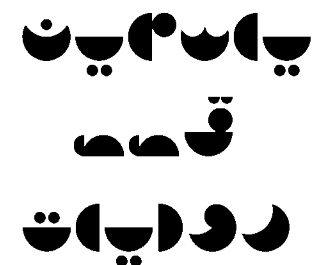
(240) ص

ر. إ: 4090/ 8/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

زينب السعود

الحرب التي أحرقت تولستوي



رواية

إلى الذين لن تحميهم خوذاتهم من الموت،

ولن تشفع لهم كلمة (press)

استيقظَت على صوت تاليا طفلتها الصغيرة ذات الأربعة أعوام وهي تبرطم بكلمات فهمت بعضَها وضاع بعضُها الآخر بين نعاس عينيها. تحاول جاهدة أن تفتحهما بالتناوب، تفتح اليمنى نصف فتحة وتغلقها سريعًا لتفتح اليسرى، على أمل ألّا يغادر النوم أجفانها في صباح يوم الإجازة.

منذ بداية الأسبوع وهي تُصَبِّر نفسها للوصول إلى هذا الصباح، كي تأخذ كلّ عضلة في جسمها حقّها في الاسترخاء بعد التشنّج. تشنّج الخروج بالطفلين في ساعة باكرة، ثمّ الوصول إلى عملها في الموعد. وبعد انتهاء العمل تبدأ قائمة أخرى من التشنجات في مقارعة الولدين، وتلبية احتياجاتهما، والاهتمام بمتطلبات المنزل. أطبقت عينيها مُؤمِّلة نفسها أنّها تحلم بطفلتها، وأنّها لا تقف قرب سريرها لتُقلِق نومها. حبة الدواء التي تناولتها بالأمس زادت رغبتها في البقاء في الفراش.

ولكن كيف للأمل اللذيذ أن يغدوَ حقيقة؟ والطفلة ما زالت على حالها، بل علا صوتها أكثر، وهي تشير بيدها إلى باب الغرفة، ثم شرعت تتسلق سرير والدتها ذا الوسادة الواحدة الكبيرة، وفوق الجسد المتمدد غطاء ثقيل ذو نقوش وردية متداخلة. أمسكت الطفلة بطرفه القريب مستعينة به لجذب اهتمام الأمّ النائمة، وهي لا تعلم أنّ صوتها قد جذب الجيران الذين يقطنون الشقة المجاورة. فكلّما شاهدت ميساء جارتها جمانة ابتسمت في وجهها ابتسامة مُصطَنَعة وقالت:

- لا حاجة لنا إلى المنبه ما دامت تاليا موجودة.

فتفهم جمانة أنّ صراخ ابنتها قد اخترق الجدران، وأزعج صباح الجارة الأرملة التي لها طقوس صباحية مع فيروز وفنجان القهوة.

«حين تعثر على الجمال في قلبك، فستعثر عليه في كلّ قلب...». هذا ما التقطته عينُها شبه المفتوحة من لوحة دراويش جلال الدين الرومي، المكتوبة بالخطّ الفارسي والمُعلَّقَة أمامها على الجدار.

صرخت تاليا فجأة: ماما.

أكمل عقلها العبارة: «هناك ينبوع في داخلك فلا تتجول بدلو فارغ».

تذكّرت صديقتها أفنان التي أهدتها هذه اللوحة يوم وداعهما، قبل أن تلحق بزوجها المغربي إلى دولة أجنبية للعمل والإقامة. قالت لها أفنان ذلك اليوم:

- جلبتُ لك هدية مثقفين.

قالتها وهي تضحك. ثمّ أخرجت لوحة كبيرة ذات إطار أسود ممزوج باللون البرتقالي، وعلى الجانب الأيمن كتابة ملتوية بخط أسود على شكل رجل يرتدي طربوشًا، وبقربها صورة رجل يعتمر طربوشًا أحمر، ويرتدي ثوب التنورة الصوفي خافضًا رأسه، فلا يظهر وجهه، فيما ترتفع كلتا يديه إلى الأعلى.

أصرّت أفنان في ذلك اليوم أن تختار بنفسها المكان المناسب لهديتها، وارتأت أن تعلقها في غرفة نوم صديقتها كي تكون أوّلَ ما تراه كلّ صباح.

دخل خالد إلى الغرفة، وأخذ يجذب أخته الباكية المزعجة من يدها، ليريَها شيئًا في التلفاز. قال محاولًا بثّ الحماس فيها:

– تاليا بابا في التلفزيون!

نبهت عبارة خالد الأم التي كانت غارقة في تأمل لوحة مضى على وجودها فوق الجدار عدة سنوات. رفعت جسدها عن الفراش، وفركت عينيها بشدة لتجبرهما على طرد النعاس. تذكرت أنّ زوجَها سوف يعود من سفره الطويل بعد الغد، وعليها أن تستعد.

قالت لطفلتها وهي تتصنع ابتسامة:

– اذهبي وشاهدي بابا.

خرجت الطفلة بصحبة أخيها ذي الأعوام التسعة الذي لم يأخذ من أمّه سوى شامتها ولون بشرتها البيضاء، وتسمرت معه أمام التلفاز.

لحقت بهما جمانة ومرّت بالقرب من شاشة التلفاز، ورأت بطرف عينها زوجَها ممسكًا الميكروفون، ويتحدث بلغته العربية الرصينة وصوته الحادّ.

لم تُلقِ بالًا لفهم ما يقول. خمّنت سريعًا وهي تتوجه إلى المطبخ: الأحداث الأخيرة في (أربيل).

دقّ جرس المنزل، خرجت إلى الصالة، وجدت جارتها ميساء تقف عند الباب وتقول:

– صباح الخيرات أم خالد، ليس من عادتك النوم للظهر!

هزّت رأسها مبتسمة ابتسامة خفيفة وقالت:

– لعنة الله على دواء الحساسية. يجعلني أنام كالقتيل.

ردّت الجارة التي تعتبر نفسها خبيرة في كلّ شيء:

– يا أختي ليست حساسية، هذه آثار اللقاح.

وبدأت تكيل كلمات السبّ والشتائم لِمَن أجبروا الناس على تلقّي لقاح غير مضمون، ثمّ أكدت كالعادة: «والله الموضوع مؤامرة».

هزّت رأسها الثقيل محاولةً أن تبديَ موافقتها على كلامها، حتى لا تصدر منها أيّ كلمة تُدخِلها في جدال آخر لن ينتهي قبل أن تسوق ميساء كلّ الأدلة والبراهين على صدق نظرتها الثاقبة في التآمر على صحة البشر. ولكنّ الجارة استرسلت وهي تتكلم بفخر أنّها رفضت أخذ اللقاح، ولذلك فإنّ صحتها بأحسن حال. ولم ينقذ جمانة سوى هاتف ميساء الذي دقّ فجأة، فاضطرت لوداع جارتها قائلةً:

– سنكمل الحديث في المرة القادمة، ابنتي تريدني أن أصحبَها إلى السوق.

شكرت جمانة في سرّها ابنةَ جارتها لأنّها أنقذتها من حوارات أمّها التي نادرًا ما تأتي في وقتها.

***

في المطار، وقفت جمانة ولون معطفها الأزرق ينعكس على وجهها وعينيها، فتبدو بشرتها البيضاء الصافية تطفو بين زرقة وخضرة. تمسك

بيدها اليمنى يد طفلتها تاليا، وفي اليد الأخرى تقبع يد خالد الذي يحاول أن يتفلّت منها، ولكنها تشدّ يده بهدوء:

- ستضيع في الزحام.

تتزاحم الوجوه في المطار، وتكاد الأجساد المنتظرة لغائبِيها أن تتراصّ فوق المقاعد المتناثرة في صالة انتظار القادمين، تتلوّن أشكال الجالسين بألوان مشاعرهم، بعضهم تبدو عليه اللهفة والترقب، وبعضهم أنهكَه طول الانتظار، فأسند رأسَه إلى يده، متكئًا على اليد المعدنية للمقعد، وانشغل آخرون بأطفالهم الذين جاؤوا برفقتهم.

وقفت جمانة برفقة طفليها، وأسندت ظهرها إلى عمود يتوسط الصّالة الكبيرة، وبقيت عيناها تراقبان الجالسين على المقاعد لعلّ أحدًا يغادر مقعده فتسرع لحجزه قبل أن يشغله مُتعَب آخر، ولكن بدت المقاعد المعدنية متمسكة بقاطنيها، وأبت أن تفلت أحدًا منهم.

صدح صوت في أرجاء الصالة يعلن عن وصول الطائرة القادمة من (أربيل). تنفست الصُّعداء فقد قلّ وقت الانتظار الذي أمضته واقفةً ممسكة بالولدين، ورأسها يكاد ينفجر من الصداع والضوضاء وازدحام الوجوه.

صرخ خالد: بابا! وأفلت يدها التي ارتخت فجأة وركض باتجاه القادم.

***

قادت سيارتها خارجة من موقف المطار، يوسف يجلس إلى جانبها والأولاد يتقافزون في المقعد الخلفي، وقد طغى صوتهم على صوت زفرات زوجها الذي كان يتأفف من الرحلة وإجراءات المطار الكثيرة.

- الحمد لله على السلامة.

«الله يسلمك» قالها وهو يمرر أصابعه فوق جبهته، ثمّ التفت إليها ورمقها بنظرة متفحصة: «كأنّك زدتِ قليلًا».

واجهت ملاحظته بضحكة خفيفة: «زدت جمالًا وذكاءً!».

«بل وزنًا ودهونًا. أزرار المعطف مطبقة رغمًا عنها حول جسمك» قالها بلؤم وهو يبتسم.

أجابت على دعابته المتعمدة:

- لأنني أرتدي قطعتَي ملابس صوفية تحتَه أم نسيت أننا في كانون الأول؟

تساءلت عن مدة الإجازة التي سيمكثها بينهم، حتى لا يسترسل في الحديث عن جسدها ووزنها.

تنهد بتعب وأجاب: «شهر».

تدخّل خالد في الحوار وهو يصفّق بيديه:

- بابا نريد أن نذهب إلى رحلة المسبح.

التفت إلى ابنه ضاحكًا ومدّ يدَه من خلف الكرسي، وربّت على شعره:

- حاضر رحلة المسبح.

برطمت تاليا كعادتها لتحفظ حقّها في النقاشات العائلية، وأشارت عدة إشارات بيدها وهي تحاول أن تشرح لوالدها أنّها تريد أن تستفيد من وجوده معهم أيضًا.

نظرت جمانة في المرآة، وشاهدت فرحة كبيرة تملأ عيون أبنائها بلقاء أبيهم الذي كان آخر لقاء معه قبل ثلاثة أشهر:

- الأولاد فرحون بقدومك ومتشوقون لرؤيتك.

«فقط الأولاد؟» علّق على كلامها.

«وأمّ الأولاد»... قالتها باسمة.

سألها مداعبًا:

- ما أخبار الينبوع والدلو الفارغ؟

ضحكت من أعماقها وهي تقول: «لم تنسَ لوحة أفنان؟»

ثمّ ركزت عينيها على الشارع الذي يزدحم بالسيارات التي امتلأ كثير منها بالقادمين من المطار.

يسعده كلامها المقتضب، حتى وإن حاولت أن تخفيَ مشاعرها الحقيقية، فهو يعلم أنها تشعر بالراحة والاطمئنان لعودته.

حدّث نفسه وهو يسند رأسه إلى المقعد: «ما دامت نفسها مطمئنة وثورتها خامدة فأنا في منتهى السعادة... وإن كنتُ أشكّ في أنّ الثورة ستبقى خامدة بعد أن تعرف الخبر الجديد».

***

في ذلك اليوم توجهت إلى عيادة الطبيب، كانت الممرضة قد أخبرتها بالأمس أن تحضر. يريد الطبيب أن يشرح لها أبعاد العملية وآثارها الجانبية المحتملة.

ظهر التوتر على وجهها وهي تستمع لشرح الطبيب، لم تعرف لماذا شعرت فجأة بألم يعتصر معدتها.

لم تكن خائفة من إجراء العملية قبل هذه اللحظة. تحدّث الطبيب كثيرًا عن مجرياتها، طمأنَها إلى أنّ الآثار الجانبية قليلة ونادرة، وقد تحدث على المدى البعيد.

فجأة قالت بصوت مرتجف: «لم أتخيل أنني سأقوم في يوم من الأيام بإجراء عملية شفط للدهون».

هزّ الطبيب رأسه:

- مفهوم مفهوم. بإمكانك أن تتراجعي.

تذكرت الشجار الأخير الذي حدث بينهما بسبب انتقاده لوزنها الزائد أمام أمّه وخالته، وكيف صارت حماتها تتلمّظ وهي تنظر إليها بطرف عينها موجهة كلامها إلى أختها: «كلّ الجارات مستغربات من تغير جسم زوجة ابني، كانت مثل الغصن، الله يعينك يا يوسف».

وجلجلت بضحكة مصطنَعة ممزوجة بكيد نسائي، فهي تفتخر أنّ ابنها صاحب جسم رياضي، وقامة مشدودة، وطلة بهية.

في تلك الليلة قال لها:

- لماذا تغضبين كلّما ذكرنا موضوع تغير جسمك؟

استفزها سؤاله وشعرت بالدماء تتجمع في وجهها.

- ولماذا لا أغضب؟ وأنت وأمّك لا تُفَوِّتون مناسبة للغَمز بعدة كيلو جرامات، زادت - على وزني بعد الحمل والولادة، ومسؤولية الأولاد والبيت والحياة التي لا تعرف أنت أيّ شيء عنها.

- أنتِ تبالغين في ردة فعلك...

قاطعت كلامه وتابعت: «أمك تقول إنني كنت كالغصن. أيّ غصن؟ عندما تزوجنا كان جسمي ممتلئًا، ولم أكن نحيفة كما تقول خالتي دائمًا».

حاول أن يهدئ من ثورة غضبها، ولكنّها لم تتوقف عن الصراخ، وسالت دموعها وهي تقول:

- ألستَ أنت من كان يقول: أنا لا يهمّني شكل المرأة بقدر ما يهمني عقلها؟ ألستَ أنت مَن كان مبهورًا بشخصيتي وثقافتي وكتاباتي الأدبية؟ ألستَ أنت من قال لي في أول لقاء: «أنتِ المرأة التي تليق بعقلي وقلبي؟».

توقفت عن الكلام ودفنَت رأسَها بين كفّيها، وأخذت تبكي بحرقة بعد أن تفوّهت بكلام كانت تحرص دائمًا على ألّا تقوله حفاظًا على كبريائها.

سمعت صوت الطبيب ينتشلها من ذكرياتها:

- كنتُ أقول إنّه يمكنك التراجع عن قرار العملية، إذا لم تكوني مرتاحة سنوقف الإجراءات...

- لا توقفها، سأخضع للعملية.

جاءها صوت خالد يخرجها من شرودها وذكرياتها:

- ماما لقد وصلنا.

ركنت سيارتها أمام مدخل العمارة، ثمّ نبّهت زوجها الذي يبدو أنّه غفا دون أن تشعر به أثناء انشغالها بالطريق وبطيف ذكرياتها.

***

في المصعد التقت جارتها ميساء.

لا تُفَوِّت ميساء أي فرصة لممارسة فضولها وحبّها لإلقاء النكات الخادشة للحياء في معظم الأحيان. فهي وعلى الرغم من كونها أرملة منذ أربع سنوات، إلّا أنّها لا تنفكّ عن ذكر الرجال في معظم حديثها ضاحكةً مرة، ومتحسرة مرة أخرى على حظِّها الذي جعلها تترمل في سنّ صغيرة على بنت وولد.

غمزت ميساء بعينِها وأطلقت ضحكة خبيثة:

- تتهنّي برجعة الغيّاب.

لو قالها أحد آخر غير جارتها، لَمَا شعرت لِلحظة أنّ لهذه العبارة معنى غير ما يظهر فيها. ولكن مِن فم ميساء لها معنى واحد تفهمه جمانة من خبرتها بطبيعة هذه الشخصية، لذلك تعمّدت أن يكون ردّها مقتضبًا بشكرها على ذوقها.

- ويا ترى كم المدة التي سيُنَوّرنا فيها في العمارة؟

تابعت ميساء غير آبهة لمحاولات جارتها في كبح جِماح تطفلها.

«العمارة منوّرة بأهلها». ردّت جمانة بضجر واضح.

- أبو خالد جار عزيز ويجب أن نقوم بواجبه.

حاولت التملّص من الحوار الذي ليس له هدف سوى ممارسة ميساء هوايتَها في الكلام والمزاح، وخرجت من المصعد وهي تودع جارتها:

- شكرًا لك. ما في لزوم للتعب.

دخلت عائلة يوسف إلى المنزل، وبدأ الولدان في التعبير عن فرحتهما التي لا توصف بقدوم والدهما.

أمسك خالد حقيبة والده وجرّها نحو مقعده، وطلب من أبيه أن يفتحها ويُخرِج الهدايا التي أحضرها لهم.

ضحك يوسف من ثقة طفله بوجود هدايا داخل الحقيبة، وأمسك بيده الغضّة وأجلسه إلى جانبه، ثمّ قال مبتسمًا:

- ولكنني لم أُحضِر شيئًا هذه المرة.

عبس وجه خالد وتصنّع الغضب، فبدا وجهه الصغير أكثر شبهًا بوجه أبيه: «قلت لي على الهاتف إنك جهزت لنا مفاجأة».

- صحيح، وأنا عند وعدي، سوف نذهب جميعًا في رحلة إلى أحد المنتجعات.

تهلّل وجهه العابس، وصفّق بيديه ثمّ احتضن والده، وشاركته تاليا هجومَه على حضن أبيها، فتعلقت يداها الصغيرتان بملابس والدها،

فرفعها إليه وأجلسها على ركبته، ورفع خصلات شعرها التي غطت عينيها الفاتنتين، فهما وإن لم يتأثر لونهما بجينات أمّها، إلّا أنهما ورثتا النظرة ذاتها منها.

أخذت الطفلة تضرب بكفّها وجهَ أخيها، كأنها لا تريد أن يشاركها أحد في هذا الحضن.

ابتسمت جمانة وهي تشاهد الحبور على وجهي الطفلين. كانت هذه من اللحظات التي تُخزّنها سريعًا في ذاكرتها كي تستقوي بها كلّما ضعفت نفسها وتمردت على هذا الزوج الذي يشبه الطير المهاجر، يتنقل في كلّ موسم إلى مكان، ولكنّه لا يعود أبدًا ليستقر في موطنه.

***

دخلت المنزل ووجدت يوسف جالسًا أمام التلفاز، ولكنّه كان منشغلًا عن مشاهدته بمتابعة هاتفه.

التفتت وقالت:

- أين الأولاد؟

- ألم يحضروا معكِ؟

قال وهو ما يزال ينظر في هاتفه.

- ألم تذهب أنتَ لإحضارهم؟

لم تنتظر جوابه، بل أسرعت إلى حقيبتها وأخرجت هاتفها، وبحثت عن رقم صديقتها لبنى. سمعت صوتها على الجانب الآخر يقول:

- أهلًا يا حبّ.

لم تترك صديقتها تسترسل في تحيتها، وعجلت بسؤالها:

- هل غادرتِ المدرسة؟ خالد ما زال في المدرسة، وتاليا في الروضة.

طمأنَتها صديقتها:

- لم أغادر بعد، هل أصطحبهما معي؟

أجابت بنعم وهي تشعر بالخجل من صديقتها التي طالما أنقذتها من مواقف التأخر على الأولاد، بسبب دوامها في مدرسة بعيدة عن مدرستهما، وبسبب تعنّت مديرتها في عدم السماح لها بالخروج قبل الوقت ولو بدقيقة واحدة.

التفتت إلى زوجها مؤنبةً:

- أرسلتُ لكَ رسالة منذ الصباح أن تذهب لإحضار الأولاد من المدرسة.

ضرب جبهته بيده وهو يقول:

- أوف نسيت!

ثمّ قال مازحًا:

- أنا في إجازة. هل ستستغلين وجودي لترتاحي من واجباتك؟

أرادت أن تصرخ في وجهه: «وهل هي واجباتي وحدي؟ طوال السنة أقوم بهذا العمل، وأنت لا تتحمل مسؤوليتك تجاه أبنائك ولو لشهر واحد..» ولكنها تراجعت.

كانت تشعر بالإرهاق بعد عودتها من عملها في مدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة. واختصرت الحوار ودخلت لتبدِّل ملابسها.

في المساء حاول أن يُلَطِّفَ الجوّ بعد أن لاحظ أنّها بقيت عابسة بقية اليوم. وظلّت تتجنب الحديث معه، وشغَلت نفسها بإعداد كعكة التفاح والقرفة التي يحبها خالد.

قال موجِّهًا كلامه للطفلين:

– غدًا الجمعة، ما رأيكم أن نذهب إلى مدينة الألعاب وحديقة الحيوان ثمّ نذهب لزيارة جدتكما؟

وجّه خالد كلامه إلى أمّه وقال بفرح غامر:

– ونشاهد الأسد الذي قرأتِ لنا قصتَه مع الثعلب؟

لم تجد جمانة فائدة من عبوسها في وجه طفلها، فابتسمت له وقالت وهي تغمز بقناة زوجها من طرف خفي: «وربّما أيضًا نشاهد الأرنب الكسول الذي ينسى مهماتِه ويتّكِل على غيره».

لم يتمالك يوسف نفسه، فضحك من مثابرة زوجته على الانتقام منه بأي طريقة. وإحدى طرقها الغريبة للانتقام منه أن تصنع كعكة لا يحبّها.

***

قاربت إجازة يوسف على الانتهاء، فقرّر أن يفاتح زوجته بالتغير الجديد الذي طرأ على عمله في المحطة الإخبارية التي انضمّ للعمل بين كوادرها بعد زواجهما بعامين.

جلس في المقعد المقابل لها، ووضع فنجان قهوته أمامه، وقال متسائلًا بصوت مرح مشيرًا إلى الفنجان:

- قهوة؟

نظرت إليه وهي تتصنع نبرة عتاب: «شكرًا. أحضرت فنجانًا واحدًا ووضعتَهُ أمامك».

- الفنجان وصاحبه تحت تصرفك.

قالت ضاحكة: «الله يستر من هذه المقدمة».

عدّل جلسته ورشف رشفةً طويلة من فنجانه، ونظر إليها وقال بهدوء:

- لقد تمّ تغيير مكان عملي.

- الحمد لله. هل ستنتقل أخيرًا إلى مكتبكم هنا كما وعدتني؟

- للأسف لا...

فاجأها بقوله. ظهر الضيق على وجهها، وألقت السؤال الذي كانت تخشى إجابته:

- هل ستعود إلى سوريا؟

- كلا. لم تعد المحطة ترسل مراسليها إلى هناك.

صمت برهةً ثمّ قال: «تمّ تكليفي بإدارة مكتبنا الإعلامي في أوروبا الشرقية وما حولها».

نظر في عينيها ليرى وقع جملته، ولكنّها ظلت صامتة تنتظر منه أن يشرح أكثر، فهي تعرف أنّ زوجها يحاول جاهدًا الآن، وبكلّ ما أوتي من

خبراته الكلامية والإعلامية أن ينقل إليها خبرًا مُزَلزِلًا بألطف طريقة تقلل من تداعياته عليها.

– أرسل لي المدير المسؤول كتابًا رسميًّا يفيد أنّ القناة تريد أن تثبت نفسها في دول الاتحاد السوفييتي السابق، فهناك منافسة شديدة بين وسائل الإعلام على تغطية هذه المناطق، وأنني الوحيد المرشح للقيام بهذه المهمة لخبرتي الطويلة في العمل الميداني الخارجي. وأنت تعلمين أنّني أحبّ أن أطوّر عملي وأحقق طموحي لذلك...

توقّف عن الكلام وكأنّه يستحثّها على التفوّه بأيّ شيء يَستشِفّ منه رأيها، ولكنّها بقيت صامتة، تنظر إليه وتُطبِق شفتيها بإحكام كي لا تخوناها، فتكشف عن أسنانها التي تكزّ عليها وكأنّها تخشى عليها من السقوط.

– لذلك قررتُ أن أقبل بهذه المهمة، وخصوصًا أنّهم سمحوا لِمن سيتولى هذا العمل باصطحاب العائلة وتوفير مسكن محترم وسيارة خاصة.

كانت جملته الأخيرة هي القنبلة التي كان يحرص على إلقائها بلطف، حتى لا تثير البركان الكامن في نفس زوجته، فهو يعلم رأيها في عمله الذي يُحَتِّم عليه الغياب لعدة أشهر خارج البلاد، ويعلم أنّه وعدها في إجازته السابقة أنّه سيعمل جاهدًا ليتمَّ نقله كمراسل في المكتب المحلي ليكون قريبًا منهم.

«ولكننا اتّفقنا أنّك ستعود وتعمل هنا وتستقرّ بيننا...» نطقت أخيرًا.

- نعم صحيح، ولكنّ الفرصة لا تأتي إلّا مرة واحدة، وهذه فرصتي لأثبت نفسي في هذا المجال. المغامرة هي التي تُثري سيرة الصحفي، وأنا أريد خوض هذه المغامرة.

- وأنا؟ والأولاد؟ ما موقعنا من فرصك ومغامراتك؟

- أنتم لن ينقصكم شيء. بالعكس سأرسل لكم مصروفًا أكثر لأنّ الراتب سيزيد، وبإمكانك أن تُحضِري خادمة تساعدك في أعمال المنزل والعناية بالطفلين.

«نحن بحاجة إلى وجودك. الطفلان بحاجة إليك وإلى رعايتك واهتمامك» قالت وهي تجاهد نفسها لتحافظ على هدوئها.

تبرّم من كلامها:

- لا تكوني أنانية، الطفلان بخير. وأنا لست مقصّرًا معهما، ثمّ إنّ القرار صدر، ولا يمكنني التراجع بعد أن وقّعتُ العقد، والسفر بعد أسبوع.

قامت من مقعدها ومشت بهدوء، ووقفت عند طاولة الطعام التي تتوسطها مزهرية زجاجية، عبثت بالورود البلاستيكية الموجودة فيها وكأنها تعطي فرصة للمرجل الذي يغلي في داخلها أن يهدأ، ولكن هيهات... لقد نكأت كلمة «أنانية» كلّ ما حاولت أن تخبّئه في قلبها، ومزقت غلاف (السولوفان) الذي يغلّف مشاعرها، كان عليه ألّا يقول

هذه الكلمة أبدًا، وأن يبحث عن أي مفردة أخرى، أمّا وقد تفوَّه بها فلا مناص ممّا لا بدّ منه.

استدارت نحوه وشبكت يدها اليمنى بذراعها اليسرى بعصبية واضحة، وانتفض صوتُها مستنكرًا:

– أنانية؟ تطلب مني ألّا أكون أنانية؟ هل تعرف أنت مَن هو الأناني؟

اقتربت منه وحدّقت في عينيه، وانفجر البركان، وتمزق ورق (السولوفان)، وتسابقت دموعها على وجنتيها يدفع بعضُها بعضًا، وحشرج صوتها وهي تقول:

– نحن آخر أولوياتك كما هو دائما. تتحدث عن طموحك وعملك وفرصتك وكأنني أنا بلا طموح... تتكلّم عن نفسك ولا تأتي على ذكرنا، أنتَ لا تعرف حتى أبسط الأشياء عن أبنائك.

تسارعت دقّات قلبها حتى بدا لها أنّه يسمعها، لم تحاول أن تكبح جِماح صوت ألمِها وخيبتها. كانت تُصَبِّر نفسها طوال الشهور المنصرمة بأنّه سيعود قريبًا ليستقر بينهم. وأنّها ستراه في الصباح يخرج إلى عمله ممسكًا بيدي طفليه، يوصلهما في طريقه كما يفعل الآباء. تجده موجودًا معها في تفاصيل يومها. تستند إليه وتتكئ على كتفه كلّما أرهقتها الحياة.

بدّد كلامُه ما كانت تغزله من حكايات بينها وبين نفسها عن عودته التي ستجعل حياتَها أجمل وأسهل. صرخت من بين دموعها: «أنتَ الأناني... طمستَ شخصيتي وألغيتَ طموحي مقابل طموحك. أوهمتني أنك رجل

متفتح تحب المرأة المثقفة... صادرتَ أحلامي بأن أكون كاتبة معروفة... تركتني لمواجهة مسؤولية الحياة والأبناء، وانطلقتَ لتحقق ذاتك. ترسل لنا النقود بكرم لكيلا تحرمنا، ولكنّ الحقيقة هي أنّك تريد أن تعوض عن غيابك».

التقطت أنفاسَها ومسحت دموعَها بمنديل ورقي، ولكنّ جوفَها ما زال ممتلئًا:

– طفلتك الصغيرة تعرفك من خلال شاشة التلفاز، وخالد أصيب بالمرض التنفسي، وتمّ حجره لأسبوعين، ووُضِع على جهاز التنفس الاصطناعي... ليس لي أمّ تخفف عني، وأختي الوحيدة لحقت بزوجها إلى الدوحة.

حاول أن يدافع عن نفسه: «تعلمين أنّ ظروف الطيران التي فرضَتها الجائحة حالت دون وجودي».

لم تكن تسمع سوى ضجيج الأشياء التي تُثقِل قلبها، وتابعت باكية:

– وأنا خضعتُ لعملية كي أكون رشيقة الجسم، جسمي الذي لا تنفكّ تنتقد بضعة -كيلوغرامات زائدة فيه حسب منظورك للجمال، وحتى بعد أن أصبح جسمي رشيقًا وفاتنًا، ما زلتَ بين الفينة والأخرى تجد لذّتك في تذكيري بذلك الجسم الذي كنتُ عليه قبل العملية.

امتقع لون وجهه، وحار كيف يردّ على هذه الثورة المفاجئة لزوجته، لم يَدُر في خَلَدِه أنّها تُخزِّن كلّ هذه الانفعالات في صدرها. حاول أن يشرح لها أنّه لا يقصد أن يسبِّب لها كلّ هذه المعاناة، ولكنّ الكلمات خانته.

توقفت عن الكلام، وعلا صوتُ نحيبها، وكأنّ ذِكرَها لموضوع العملية حرّك آخر نقطة هدوء لديها، وتمنت فقط في هذه اللحظة أن يحتضنها دون أيّ كلمة كما كان يفعل في بداية زواجهما، عندما كان لا يزال محرِّرًا صحفيًّا مبتدئًا في صحيفة أسبوعية، يعود إليها كلّ يوم بعد انتهاء ساعات عمله ليتقاسما معًا ما تبقى من ساعات النهار.

وضع يده تحت ذقنها ورفع رأسها قليلًا، ونظر في عينيها الخضراوين اللتين امتلأتا بالدموع، ثمّ مسح دموعها بكفّه وقال:

- تعلمين أنني أحبّكم، ولكن هذه طبيعة عملي، الإعلام المرئي يختلف عن العمل في - صحيفة، نحن مُعرَّضون للتنقل من مكان إلى آخر، ومن دولة إلى أخرى، حسب ما تقتضيه الظروف.

لم تنتظر تبريرًا أكثر من هذا، فهي تُدرِك تمامًا طبيعة زوجها، وصدقَ حديثه عن الفرصة التي لا تُعوَّض والطموح الذي يدفعه.

توجهت نحو غرفة المكتب كعادتها عندما تغضب، تتصفح بعض الروايات التي تكدست على الأرفف. ما زال الكثير منها ينتظر أن تجد

وقتًا ومِزاجًا لمعرفة ما احتوته صفحاتها. هذه المرة ظلّت الروايات في مكانها على الأرفف شاهدة على نوبة بكاء جديدة.

بقي جالسًا على مقعده عاقدًا أصابعَ يديه وهو يُخرِج زفراتٍ متتاليةً من فمه. كمن يعرف أنّ جميع محاولاته لإنهاء مهمة شاقّة بأقلّ الأضرار قد باءت بالفشل.

أسند رأسه إلى الخلف، ولام نفسه بشدة لأنه لم يمهد لها الأمر قبل عودته من (أربيل).

***

في المطار وقفت جمانة مرة أخرى مع أبنائها، ولكنْ هذه المرة لتودِّع زوجها المتوجه إلى مكان عمله الجديد.

أخبرها أنّ الرحلة الى أوروبا الشرقية ستمرّ عبر مطار إسطنبول، ثمّ سيتوقف لمدة ساعة ونصف في بلغاريا، ثمّ ستكون الوجهة إلى مطار العاصمة (كييف) ومنها سيركب طائرة محلية تحمله إلى (ماريوبل)، المدينة الساحلية التي تقع في المنطقة الحدودية بين أوكرانيا وروسيا. تفصلها عن العاصمة أكثر من سبعمئة كيلو متر.

***

في مطار (ماريوبل)، وقف شابّ شعره أسود مجعّد قليلًا، ذو بشرة تميل إلى السمرة على غير ما يعرف عن سكان تلك البلاد، وعينين

عسليتين فوقهما حاجبان رفيعان. تبدو عليه ملامح الوسامة والاهتمام بمظهره.

كان يمسك بلوحة صغيرة يضعها على صدره ليراها القادمون.

وقعت عينا يوسف على اسمه مكتوبًا فوق اللوحة باللغة الإنجليزية، توجّه إلى الشابّ، ألقى التحيّة وعرّف بنفسه. وفي ضوضاء المطار الصاخب الذي يعج بالمودعين والمستقبلين من جنسيات مختلفة ينبئ عنها اختلاف الملامح والوجوه واللغات، سمع صوت الشابّ يقول بلكنة عربية مُكسَّرة:

- أهلًا وسهلًا. أنا سُفيان، مصوّر الأخبار في القناة. سأوصلك إلى الفندق لتأخذ قسطًا من الراحة، وفي الصباح سآتي لأصحبك إلى موقع العمل.

لم يندهش يوسف كثيرًا مِن تحدُّثه باللغة العربية، فهو يعرف أن كثيرًا ممن يعملون في هذا المجال، يتقنون عددًا من اللغات بحكم حاجة العمل إلى هذه المهارة للتواصل والاطلاع على أحداث العالم.

كان يشعر بالتعب والإجهاد بعد رحلة استمرت سبع ساعات، موزعة على ثلاثة مطارات.

هزّ رأسه موافقًا وشكر الشابّ. الجوّ بارد جدًّا، وعلى الرغم من ارتدائه ملابس دافئة، إلّا أنّ لفحة من الهواء البارد تسلّلت إلى جسده عند

خروجه من الباب الزجاجي لصالة المغادرين باتجاه السيارة التي قادها المصوِّر باتجاه فندق صغير في إحدى ضواحي المدينة.

قاوم رغبته في أخذ غفوة قصيرة ولو لبضع دقائق، كي لا يضيع على نفسه متعة كبيرة. كان في داخله ولع طفولي بتأمل تفاصيل الطريق، منذ أن كان والده يصطحبه وإخوته في رحلة صباح كلّ جمعة على شارع الخليج العربي في منطقة السالمية في الكويت التي شهدت سنوات طفولته. كان يبقى ملتصقًا قرب نافذة السيارة مراقبًا شاطئ البحر مرورًا على أبراج الكويت وسوق السمك.

انطلقت السيارة براكبَيها نحو شارع (إيتاليانسكا) حيث يقبع فندق صغير سُمِّي على اسم المدينة. لفت نظره جمال الأبنية الموزَّعة على جنبات الطريق، تتوسط كلّ مجموعة منها حديقة صغيرة، فيها عدد من المقاعد الأنيقة وأراجيح الأطفال. شاهد روعة اللون الأخضر كما لم يشاهده من قبل، الأشجار تصطف بنظام وترتيب في الساحات وعلى مداخل العمائر السكنية. على جانب كلّ شارع رصيف واسع يسمح بوجود لوحات إعلانية ضخمة. لم تكن المرة الأولى التي يتعرف فيها إلى طابع المدن الذي يراه الآن، شاهد ما يشابهه قبل سنوات كثيرة عندما جاء للدراسة التي لم تكتمل.

جاء صوت سُفيان ينبِّهه ويقطع تأمله:

- اقتربنا من الفندق. بضع دقائق ونكون أمام مدخله.

تشابكت أشجار اللوز في الشارع الجانبي المؤدي إلى الفندق. علّق سُفيان:

- يحبّ الناس هذه الأشجار، ويتفاءلون بموسم تفتُّح أزهارها، لذلك يهتمون بزراعتها كثيرا.

أومأ يوسف برأسه مرسلًا ابتسامة خفيفة تنوب عن الكلام. أراد أن يقول: مثلما نهتم بزراعة أشجار الزيتون، ولكنّ التعب والإجهاد أخذا مأخذًا من جسمه، فلاذ بالصمت.

***

ألقى جسده المنهك على الفراش الدافئ في غرفة الفندق. كان عبارة عن مبنى صغير ولكنّه كباقي المباني التي شاهدها على جنبات الطريق، له واجهة معمارية جميلة، وفوق المدخل قبّة زرقاء حولها شريط من القرميد الأحمر، والباب المؤدي إلى الداخل يقف بين عمودين متوسِّطَي الحجم، ونقوش ورسومات متداخلة غير واضحة زينت العمودين.

حدّق في السقف، شعر أنّ عينيه تستسلمان للنعاس، وبينما هما تذبلان رويدًا رويدًا، وقبل أن يغلقهما تمامًا، تذكّر وعده لزوجته بأن يتصل بها عند وصوله ليُطَمئِنَها، ولكنّ النعاس والتعب تكالبا عليه وأغلقا عينيه رغمًا عنه، وراح في نوم عميق.

في الصباح سمع طَرْقًا خفيفًا على باب الغرفة، فتح عينيه، كان أول ما وقع عليه بصره لوحة ضخمة لمنظر طبيعي تأخذ مكانها على الجدار أمام

السرير الخشبي. تذكّر أنّه وصل بالأمس إلى المدينة الأوكرانية الشهيرة، وتذكّر موعده مع المصور سُفيان.

دخل سُفيان الغرفة بعد أن ألقى تحية الصباح باللغة الروسية:

- بريفييت، ثمّ أتبعها بالتحية العربية: السلام عليكم.

ردّ يوسف التحية الثانية، ودعا الشابّ للدخول.

وضع الشابّ كوبين من القهوة وكيسًا فيه بعض الفطائر على الطاولة، وقال مازحًا بذات اللهجة المكسرة:

- القهوة في الفنادق الصغيرة لا تعدل المزاج، أحضرت لك القهوة من مقهى مجاور.

شكره يوسف بصدق، فهو بحاجة ماسّة إلى هذا الكوب، علّه يوقف صداع رأسه، ويجبره على الاستيقاظ ليبدأ يومه بنشاط.

وبعد أن رشف رشفة طويلة من كوبه، نظر إلى الشابّ وقال مثنيًا على تحدثه العربية: «تتحدث العربية بشكل جيّد، ولكنّها ليست اللغة الفصيحة. تبدو لهجة ما في طريقة -نطقك للكلمات».

«دمائي نصفها عربي» قالها الشابّ وضحك ضحكة خفيفة، ثمّ أردف قائلًا:

- والدي من بغداد، ووالدتي أوكرانية من مدينة ليفيف، درستُ في (جامعة كييف) - وتعرفتُ إلى كثير من المبتعَثين العرب.

تساءل يوسف عمّا إذا كان يعيش مع والديه أم أنه متزوج.

أجاب سُفيان متنهدًا أن والديه انفصلا بعد ولادته بثلاثة أعوام، وقد عاش في كنف والدته وجدّته لأمه إلى سنّ السادسة، ثمّ عاد ليعيش مع والده بعد أن تزوجت أمّه من رجل آخر.

صمت سُفيان قليلًا، وتجرع بعض القهوة، ولم تُفَوِّت عينا يوسف مسحة الحزن التي لاحت في عين الشابّ فجأة. لم يرغب في سؤاله، لكن الشابّ عاد ليتابع كلامه: «نذر والدي نفسه لرعايتي والاهتمام بي، فرفض الزواج، وقام بدور الأب والأم معًا طوال سنوات طفولتي وشبابي ولكنه...».

تغيرت نبرة صوته وهو يقول:

- ولكنه توفي قبل عامين.

أبدى يوسف أسفه، وحاول أن يغيّر مجرى الحديث، فقال:

- إذًا أنت عراقي بنكهة أوكرانية.

قالها يوسف وابتسم ابتسامة عريضة، واسترسل:

- جمعتَ من كلّ قطر أغنية.

عقّبَ سُفيان:

- وبما أنّك ستنضمّ إلينا، فسأتعلم أغنية جديدة...

ضحك الاثنان، وشعر يوسف بالارتياح لوجود شخص لطيف المعشر مثل سُفيان في طاقم العمل، وتمنى أن يكون انطباعُه في محله.

ودّعَه سُفيان على أمل أن يلتقيا في المساء ليذهبا معًا إلى موقع العمل لإلقاء نظرة على المكان.

***

أنهى الاثنان جولتهما في المكتب الإعلامي الذي ليس فيه تفاصيل جديدة بالنسبة لصحفي متمرس مثل يوسف، فهو يشبه معظم مقارّ العمل التي عمل فيها في دول مختلفة. المكان صغير يضمّ غرفة لتحرير الأخبار، وعددًا من شاشات التلفاز، وجهاز (المونتاج) والعديد من أجهزة الصوت والكاميرات التلفزيونية.

توجّها بعد ذلك إلى مطعم شعبي يقع في الشارع الخلفي للفندق. قرأ اسم المطعم الذي كان مكتوبًا باللغة الروسية.

قال سُفيان موضحًا:

- بقيت الروسية معتمدة كلغة رسمية في أوكرانيا بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.

ثمّ صحّح الاسم، وقال مبتسمًا:

- (أماديوس)، اسمه (مطعم أماديوس).

دخل الاثنان صالة المطعم الذي بدا تصميمه غاية في الأناقة والروعة، التناسق بين ألوان الطاولات السوداء والمقاعد الرمادية ذات الإطار الأبيض، وتناغمها مع خلفيات الجدار الحمراء، تتقاطع فيها خيوط سوداء عريضة، أضفى سحرًا على الصالة. اللوحات الضخمة التي

توزعت بترتيب على جانبي المدخل زاد فخامة المكان، كان معظمها مناظر من طبيعة أوكرانيا الساحرة وميادينها القديمة.

جلسا حول طاولة تطل على حوض كبير للأسماك الملونة. تتساقط فوق مياهه إضاءة ملوَّنة حوّلت الحوض إلى مدينة عائمة تتراقص فيها الأسماك.

تساءل يوسف مازحًا إن كان هذا فعلًا مطعمًا شعبيًّا.

ضحك سُفيان من سؤال زميله، وقال:

- إنّ الطعام الذي يقدّمه المطعم هو الشعبي، وليس المكان.

ثمّ تابع مسترسلًا:

- الأوكرانيون يحبون إظهار طابع الفخامة والحضارة على مبانيهم، ومنها بالتأكيد المطاعم والفنادق. وخاصّة بعد خروجهم من عباءة السوفييت، حيث أصبحوا يحاكون أوروبا في كثير من مظاهر حياتهم.

توقف سُفيان فجأة عن الكلام، وقال مفتعلًا الغضب:

- ألن نأكل؟ أم سنبقى تحت رحمة حسِّك الصحفي؟

ضحك يوسف من ملاحظة سُفيان.

أشارا للنادل فجاء على الفور. وقبل أن يضع قائمة الطعام الورقية أمامَهما، قال سُفيان:

- نريد تجربة الأطعمة الأوكرانية الشعبية التقليدية الموجودة لديكم.

ابتسم النادل بلطف وأومأ برأسه إلى الأمام، وقال بالروسية: «بجالوستا». ثمّ ذهب لتلبية طلبهما.

فرك يوسف جبهته محاولًا تذكر معنى الكلمة التي قالها النادل. ولكنّ ذاكرته لم تسعفه. ابتسم سُفيان قائلًا:

- تعني بالعربية: على الرحب والسعة.

غاب النادل ما يقارب عشر دقائق، ثمّ عاد وآخر إلى جانبه يدفع عربة زجاجية صغيرة ذات إطار ذهبي لامع. وبدأ يصف الأطباق فوق الطاولة بمهارة وهدوء. ثمّ انحنى قليلًا وانسحب مع زميله.

بدأ سُفيان مهمة التعريف بالأطباق، أشار إلى صحن الحساء الأحمر الذي يتوسط الطاولة موضحًا:

- هذا حساء (البورش) الشهير، يتكون من الملفوف والشمندر والعديد من التوابل. أما الطبق الذي يليك فهو معجّنات (البلمينيا) بحشوة اللحم، وهو طبق مشهور في جميع المدن الأوكرانية والروسية أيضًا.

قال يوسف وهو يغرس الشوكة في قطعة منها:

- يشبه أطباقنا الشامية إلى حدّ كبير.

ابتلع القطعة التي وضعها في فمه، ثمّ أشار يوسف إلى طبق السلطة وقال مبتهجًا:

- أمّا هذه فأعرفها جيدا، سلطة (أولفييه) اللذيذة. سبق أن تناولتُها قبل عدة سنوات.

الطبق الأخير كان غريبًا لكليهما، أشار سُفيان إلى النادل من جديد. اقترب منهما وحيّاهما باحترام مستفسرًا إن كانا يرغبان بشيء آخر.

استفسر سُفيان عن ماهية الطبق الذي بدا شكله الهلامي غريبًا. أجاب النادل موضحًا أنّ وجبة (أسبك) مشهورة في أوكرانيا، تُصنع من اللحم البقري الذي يُطهى لساعات طويلة حتى يصبح حساؤه قريبًا من الهلام، ثمّ يُتبَّل بتوابل خاصة، ويتم تناوله باردًا.

شكرا لطفَه وغادرهما. وصمت الاثنان كي لا يعوقهما الكلام عن المهمة التي تنتظرهما.

خرج الزميلان من المطعم بعد أن استمتعا بالوليمة الأوكرانية، وكانت سعادة يوسف بتعرفه إلى شخصية سُفيان الاجتماعية المرحة لا تقلّ عن سعادته بتناول الطعام الشهي.

***

نظر إلى ساعته وهو يهمّ بالولوج إلى غرفته في الفندق، التاسعة مساء، هذا يعني أنها السابعة مساء هناك.

أخرج هاتفه، وأخذ يفكّ غطاءه الخارجي ليستبدل الشريحة بخطّ محلي جديد ابتاعه من أحد محلات الهاتف القريبة من المطعم الذي تناولا العشاء فيه.

وبينما هي منهمكة في تبديل ملابس تاليا التي عبثت بعلبة ألوان أخيها، سمعت صوت هاتفها، أكملت مهمتَها سريعًا مع الطفلة، وجالت ببصرها تبحث عن الهاتف فوقعت عينُها على الكتاب الذي كانت تقرأ فيه، تذكرت أنها وضعت الهاتف تحت الكتاب لتحميَه من يد خالد.

أمسكت الهاتف، ولكنّ صوت الاتصال كان قد انقطع، تصفحت سجل المكالمات فوجدت رقم صديقتها سارة.

وضعت الهاتف جانبًا، ولملمت ملابس الطفلة الملطَّخة بالألوان، وأرادت أن تذهب بها إلى سلة الغسيل، ولكنّ صوت الهاتف عاد من جديد.

أمسكت الهاتف بسرعة دون النظر إلى اسم المتصل، وقالت بحب:

- أهلًا أهلًا سارة.

«ليتني سارة لأحظى دائما بهذا الترحيب»... جاءها الردّ بصوته المميَّز برنّته الموسيقية الحادّة.

ابتسمت رغم ما كان يعتمل في صدرها من ضيق بسبب حوارهما الأخير، وأجابت بنبرة هادئة:

- الحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك.

- كيف كانت الرحلة؟

- طويلة ومتعبة، ولكن الأمور تمام.

تعرف أنه ينتظر أن تسأله مثل كلّ مرة عن تفاصيل المكان والمسكن وطبيعة المجموعة التي سيعمل معها، ولكنّها تجنبت السؤال.

أحست أنها ترغب في معاقبته، أو ربّما أرادت الثأر لمشاعرها المشتّتة بين طفلين في حاجة إلى الرعاية، وبين ذاتها التي تشعر أنّها ضائعة، وزوج يغيب بالشهور باحثًا عن شغفه المهني، تاركًا جميع المسؤوليات على كاهلها.

قفز خالد فوق الكنبة وخطف الهاتف من يد أمه، وأخذ يتحدث مع أبيه والفرح يملأ وجهه الصغير، جاءت تاليا وأخذت تتكلم بكلمات مبعثرة تريد المشاركة في هذا الطقس العائلي. حملتها أمّها ووضعت الهاتف على أذنها، سمعت صوت أبيها من الجانب الآخر يناديها، ولكنّها كانت مشغولة بمحاولة تخليص الهاتف من بين أصابع أمّها لتمسكه بيدها الصغيرة، وعندما نجحت تلفّظت بكلمتين فعلتا فعلهما في قلبه:

- بابا حبيبي.

قالت الطفلة باكية. تناولت جمانة الهاتف وقالت:

- تاليا لم تستوعب أنّك سافرت إلى مكان بعيد. منذ أن عدنا من المطار وهي تبكي تريد أن تذهب معك.

أخرجه صوت الطفلة وحديث زوجته من جوّ البهجة التي أضفَتها تجربة الطعام الشعبي على مزاجه. لأول مرة شعر يوسف بشيء يعصر قلبه، أسعده صوت الطفلة التي لم يتمكن من رؤيتها إلّا بعد شهرين من

ولادتها، ولكنّ بكاءها قلب مزاجه تمامًا. طلب منها أن تعيد الهاتف إليها. عرفت جمانة ما فعله بكاء الطفلة في نفسه فأشفقت عليه، لكنّها استعادت الهدوء في صوتها وقالت:

- ذهبت تلعب مع أخيها، الأطفال ينسون بسرعة.

قاطعها بصوت أجشّ:

- سامحيني على تقصيري معكم. ولا تجعلي الأولاد يكرهونني.

صدمتها الكلمات، لم تتوقعها، وضاع منها الردّ.

«أنتِ حاقدة عليّ إذاً؟» قالها متكلفًا ضحكة لا روح فيها. وكعادتها عندما تريد الهرب من الإجابة قالت: «هناك مشاعر كثيرة تمتلئ بها القلوب غير الحقد».

يعرف أنّها تستفزّه أحيانًا بهذه الردود لجذب اهتمامه، ولكنْ هذه المرة تمنى من أعماقه لو قالت: لست حاقدة عليك، لست غاضبة منك، أحبّك وأنتظر عودتك.

لم يعتَد هو على بذل كلمات الحب في مكالماته معها، لذلك يعرف مسبقًا أنّها لن تُغدِق عليه ببعضها، إلّا عندما يهدأ قلبها ممّا يتلاطم فيه.

أنهى مكالمته وألقى بنفسه على السرير، وحدّق في سقف الغرفة. وفي الثريّا الصغيرة التي تتدلى، أزعجه الضوء الساقط في عينيه، أغمضهما وصار يتذكر صوت خالد طفله الجميل الذي يشبهُه كثيرًا، ويتخيل وجه صغيرته وهي تقول: بابا حبيبي. تمنى لو أنّها لم تبكِ.

ثـمّ مـرّ وجـه زوجتـه جمانـة في مخيلتـه، بعينيهـا الخضـراوين وشـعرها الرمـادي القصـير، وشـامتها السـوداء تقـف كنقطـة في سـطر إلـى جانـب شفتيها. ليتها تقتنع بفكرة المجيء إلى هنا، حدّث نفسه يائسًا قبل أن يغزو النوم أجفانه فيطبقهما على عينين سوداوين.

***

صوت الطرق على باب الغرفة أيقظه من نومه، فـركَ عينيـه المُتعبَتـين، ونهض بتكاسـل عـن السـرير، فـتح البـاب فوجـد سُـفيان يبتسـم ويَمُـدّ يـده بمفتاح، وهو يقول:

- سيارة العمل في مدخل الفندق، وستكون تحت تصرفك.
- أهلًا تفضل سُفيان.
- شكرًا لك. جئت لأعطيك المفتاح ولأخبرك بأن تحزم أمتعتك. في المساء سنذهب إلى مكان السكن حيث الشقة التي ستقيم فيها.
- ولماذا في المساء؟ ألا نستطيع أن نـذهب الآن؟ أنـا في حاجـة ماسّـة إلى الراحة بعيدًا عن أجواء الفندق.
- لا مشكلة. سأنتظرك في بهو الفندق إلى أن تصبح جاهزًا.

***

بدأ يوسف يـدخل في جـوّ العمـل والمكـان بسـرعة، فهـو يمتلـك قـدرة علـى التـأقلم والتكيـف. كانـت هـذه إحـدى متطلبـات عملـه الضـرورية، وليست صفة أصيلة في طبعه.

اعتاد التنقل بين فترة وأخرى من بلد إلى بلد لتغطية الأحداث والأخبار، فبين ليبيا وسوريا والكويت وأخيرًا (أربيل)، فقد الشعور بالاستقرار، أو ربّما لم يعد يعنيه هذا الشعور. عمله الميداني في ظروف تتصف أحيانًا بالخطورة الشديدة ولّد لديه رغبة حقيقية واحدة، أن يكون بخير فقط.

ولكن يبدو أنّ القدر يتيح له هذه المرة قليلًا من السلام والهدوء، وبعضًا من ذلك الشعور الذي لم يكن يعنيه. فأوكرانيا دولة هادئة، والمحطة أبلغته أنه سيؤسس لنشاطها الإعلامي في دول شرق أوروبا، تمهيدًا للبدء ببثّ نشرات بلغات تلك المناطق، وهذا يحتاج إلى جهد سنوات لإنجازه، ما جعلهم يسمحون له بإحضار عائلته إذا رغب بذلك.

لم تكن مجرد رغبة بالنسبة له، ولكنّها أصبحت حاجة ماسّة. تتوق نفسه لاجتماعه مع عائلته في بيت واحد، يراقب أبناءه يكبرون أمام عينه يومًا بعد يوم، ويلتئم شمله بزوجته التي بدا له أنّ عدوى التكيف والتأقلم مع الوضع لم تصلها إلى الآن. فبعد اثنتي عشرة سنة من ارتباطها بصحفي ومراسل في أشهر القنوات الإعلامية، ما زالت تُشعِرُه دائمًا أنّها الوحيدة التي تعاني وتتحمل المسؤوليات. ولكنه يدرك تمامًا أن ليس أحد في هذا العالم مستعدًّا لتبرير الآخر أو النظر إلى الأمور من زاويته ولو لبعض الوقت... تقتلنا الأنا، ويرهقنا البحث عن رضى الذات الكامل.. يؤمن تمامًا أن هذه العبارة تنطبق عليه أيضا.

***

على امتداد بحر (أزوف) في الجزء الجنوبي الشرقي لأوكرانيا، تقع مدينة (ماريوبل)، في منطقة حدودية تسمى (دونيتسك).

اختارت المحطة الإعلامية أن تفتتح مكتبها الدائم في هذه المدينة، لتكون همزة وصل بين ما يحيط بها من دول، ولتُسهِّل على مراسليها ومُصوِّريها العاملين في هذه المنطقة التنقل والحركة. كان يوسف يعرف مسبقًا أنّ سكان هذه المنطقة يتحدثون اللغة الروسية كلغة رسمية، إلى جانب اللغة الأوكرانية المحلية. وربّما دفعه إلمامه البسيط باللغة الروسية إلى القبول بعرض المحطة، فقد درس سنتين في (جامعة لينينغراد) قبل أن يقطع دراسته للصيدلة، ويعود إلى بلده ليدخل مجال الإعلام الذي حلم بولوجه منذ أن كان يافعًا.

مضى الشهر الأول والعمل يسير برتابته التي اعتادها. يخرج يوميًّا بصحبة المصور سُفيان، وأحيانًا ينضم إليهما المصور الآخر ذو الأصول الآسيوية، يلتقطون العديد من الصور الحيّة للمدينة والأحياء والمعالم البارزة، لتجميعها وأرشفتها في سجل العمل، حيث الصورة هي سيدة الموقف المؤثرة في عمل المراسلين.

أظهرت عين الكاميرا المعالم البارزة للمدينة. وسط (ماريوبل) يتكون من مبان متعددة الطوابق، ولكنّها في المجمل لا تتعدى الخمسة. أمّا الأحياء الجديدة فقد تجاوزت مبانيها ذلك بكثير.

زار يوسف وفريقه مسرح الدراما الروسي والكثير من المتاحف التي تعُجّ بها المدينة مثل متحف التاريخ، ومتحف الفنّ الذي يمتاز باهتمامه بالدمج بين القديم والمعاصر.

كانت جولتهم في ميناء (ماريوبل) من أهم الزيارات التي قاموا بها. التقطوا صورًا كثيرة لأحد أهم وأكبر موانئ أوكرانيا على الإطلاق. انبهر يوسف بالمعلومات التي حصل عليها من الموظف الذي استقبلهم في مركز الميناء، بعد أن شرحوا له طبيعة العمل الصحفي الذي يقومون به. فعلى غير ما كان يعتقد، تتمحور أعمال الميناء حول الأعمال التجارية والصناعية، ولم يستخدم لأغراض عسكرية. عاد الفريق من جولته وظلت صورة التنظيم الدقيق في عمل الميناء عالقة في أذهانهم.

***

لم ينسَ يوسف طوال الشهر المنصرم أن يتصل بزوجته للاطمئنان على أحوالهم، ولكنّه تجنب تمامًا أن يفاتحها في موضوع اللحاق به، والعيش معه في (ماريوبل). لم يكن مستعدًّا بعد لحالة التوتر والرفض التي ستواجهه بها جمانة، أراد أن يستقر في المكان ويتعرف أكثر إلى خفايا الحياة الاجتماعية ليشكل أرضية سليمة لعمله في المستقبل. إلّا أن هذا التجنب لم يجعلها تقلِّل من مشاعرها الدفاعية المنتفضة، وخاصة عندما يكون الحوار بينها وبين سارة الصديقة التي تفتقد وجودها دائمًا.

- من لقي أحبابه نسي أصحابه.

ضحكت جمانة من قلبها على تعليق صديقتها سارة، التي يأتيها صوتها عبر الهاتف ضاحكًا فرحًا كعادتها:

- أحبابه سافروا منذ شهر، وأصحابه في القلب لا ننساهم.

«طبعًا، طبعًا ما أقدر عليج وعلى فصاحتج»... قالتها بلهجتها الكويتية وهي تتصنع الجدية.

- كيف حالك يا صديقتي؟ منذ فترة لم أرَ رقمك على شاشة هاتفي، يبدو أنّكِ أنتِ من نسيتِني.

- عتبك على عيني، ولكن حدثت ظروف شغلتني.

صمتت ثمّ تابعت مسترسلة: «شهد ابنتي...».

توقفت من جديد. تنهّدت بعمق وقالت:

- لا أعرف ماذا أقول! الله يعين.

شعرت جمانة أنّ صديقتها مثقلة بهمٍّ لا تعرفه، فمهّدت لها الطريق لتتكلم وتفضفض، فهي تعلم تمامًا أنها لا تتحدث عن حياتها الشخصية إلّا معها.

«ما بها الأميرة الفريدة شهد؟» قالتها بتودد لتلطف جو المكالمة.

ضحكت من تشبيه صديقتها لابنتها، وتابعت والكلمات تخرج منها ببطء كأنها تولد من بين الصخور:

- أخشى أنّ عمري سيقصر بسبب هذه الأميرة.

- استغفر الله، العمر لا يقصر ولا يزيد إلّا كما يشاء الله. ما المشكلة؟

- ابنتي تراجِع منذ شهر عند طبيب نفسي، وأخبرني أنها تعاني من حالة تسبب لها فرط التشتت والنسيان وهذا ينعكس على تحصيلها الدراسي.

صمتت ثمّ تابعت:

- تخيّلي. شهد تتعرض للتنمر من زميلاتها في المدرسة منذ فترة طويلة بسبب نحافتها الزائدة التي ورثتها عن عائلة أبيها.

توقف صوتها فجأة، فعرفت جمانة أنّها تبكي، فلم تستعجل حثّها على المتابعة. «نحن أحيانًا ممتلئون بأحزاننا دون أن نعلم حجم ما نحن فيه من ألم، وحده الصديق الحقيقي مَن يُعَرِّي آلامنا ويريحنا من أحمال قلوبنا»... تذكرت جمانة هذه العبارة التي قرأتها في رواية ما.

تابعت سارة بعد أن تمالكت نفسها: «هل تصدقين أنني كنت أعنِّفها طوال الوقت على إهمالها في دراستها، وكثرة نسيانها لمواعيد اختباراتها، لم يَدُر في خلدي قطّ أن ابنتي الوحيدة تعاني كلّ هذه المعاناة».

هنا تدخلت جمانة قبل أن تدخل صديقتها في نوبة أخرى من البكاء، وقالت محاولةً أن تعيد إليها شيئًا من بهجة روحها:

- أيتها الروح المرحة احضري حالًا. هوِّني عليك ولا تتشاءمي، تعلمين أنّها تمرّ بفترة المراهقة، وهذه أمور تحدث لكثير مِمَّن هم في مثل سنِّها، ثمّ لا تنسي الأثر السلبي الذي عانيناه جميعًا في العامين الماضيين جرّاء الإغلاقات والتباعد الاجتماعي، وارتداء

الكمامات، وحالة الخوف والهلع التي عاشها العالم طوال فترة الجائحة.

عبّرت سارة عن مخاوفها التي تدور في قلبها:

- لا أجرؤ على إخبار والدها بالأمر، فهو سيجدها فرصة ليتهمَني أنني السبب، وأنني مهملة ومقصرة، ولن تشفع لي كل فيروسات (كوفيد) المتحوِّرة.

- الحمد لله بدأت الروح المرحة بالعودة.

قالت جمانة. لم تتمالك سارة نفسها من الضحك. وحدها - هذه الصديقة التي كانت ذات يوم قريبة منها تلتقيها كلّ حين - وحدها القادرة على امتصاص أحزانها وثورات بؤسها.

- سأرسل لك رقم طبيب نفسي بارع، وله سمعة طيبة في عمان. تواصلي معه وستستفيدين بإذن الله.

- ليتك لم تعودي إلى بلدك، ليتك بقيتِ في الكويت.

ضحكت جمانة وكأنّها تذكرت شيئًا وقالت:

- حتي بلدي يريدونني أن أتركه، وأتغرب مرة أخرى في بلاد الله!

كانت تشير إلى زوجها الذي يريد منها اللحاق به، ولكنّ عقل سارة لم يلتقط الإشارة هذه المرة، بسبب تفكيرها بمشكلة ابنتها. فآثرت جمانة ألّا تثقل قلب صديقتها بمشكلتها الجديدة مع يوسف. وحاولت مرة أخرى انتشالها من مشاعرها البائسة. دندنت بأسلوب لطيف تحبه سارة:

- *قلوب وبتاخدك معاها*

مشاعر ولا فيلم سيما

وندخل مليون متاهة

ونحلم بقلوب سليمة.

«يا سلام على الروح الشاعرية» ردّت حليمة لعادتها القديمة.

«حليمة لا تنسى حبّها لكل كلام جميل...» قالت جمانة.

ضحكت الصديقتان، وذابت ما بين الضحكات بعض هموم القلب وهواجس النفس التي لولا الإيمان ووجود من نحب لتكالبت على الروح وحطّمتها.

***

في أواخر صيف عام 2014. ترك يوسف العمل كمراسل صحفي في سوريا. كان خبر نقله فرحة كبيرة جعلت جمانة تبكي من السعادة، بعد أن عاشت عامين في حالة من الخوف والقلق كانت تنهشها بلا رحمة... أخبار البراميل المتفجرة التي كانت تسمعها من نشرات الأخبار جعلتها تعيش في توتر دائم. ولم يتمكن يوسف من بثّ الطمأنينة في نفسها بمكالماته اليومية. فقد كان هو نفسه يفتقد هذه المشاعر، في ظل ما عاصره من مآسي الحرب هناك.

في أواخر ذلك العام خسرت طفلها الأول بعد أن أخبرها الطبيب أنّ الجنين الذي في أحشائها بلا نبض، وعليها أن تخضع لعملية إجهاض

سريعة. عاد يوسف في ذلك اليوم ليجد عروسه التي كانت حاملا بطفله الأول في المستشفى. بكى بحرقة عندما خرجت الطبيبة من غرفة العمليات وهي تقول: «العوض بسلامتك».

لم يستطع أيٌّ منهما النظر في وجه الآخر. ظلّ جالسًا بقرب سريرها دون أن يتفوّه بكلمة. خانته كلّ عبارات المواساة التي تضج بها اللغة. لم يتكلم، ولم تتكلم. بقيا صامتين لا يجرؤ أيٌّ منهما على قول: «حمدًا لله على سلامتك» للآخر.

جاء خبر نقله للعمل في مكتب القناة في الكويت ليطبطب على قلبه، فله فيها ذكريات الطفولة. لم تعارض جمانة الذهاب معه، كانت بحاجة إلى الخروج من حزنها على طفلها الذي مات في أحشائها.

غادر يوسف الكويت مع عائلته طفلا صغيرًا في العاشرة من عمره بعد أحداث الغزو الذي قلب حياة أسرته رأسًا على عقب، فقد اضطر والده لترك عمله كمدرس ليعود إلى مسقط رأسه. واجهت أسرته صعوبات اجتماعية واقتصادية كثيرة، في ظلّ ظروف لم تكن بالحسبان، ولم يكن أحد يتوقع حدوثها في يوم ما.

لم يلبث الطفل أن عاد إليها شابًا في الثلاثين، مصطحبًا عروسه التي كانت ستصبح أمًّا، لكنّ المشيئة الإلهية قدرت غير ذلك.

استقر في منطقة قريبة من البحر، واستلم مهام العمل الصحفي لصالح قناته الإعلامية، ثمّ استطاع تدبير عمل لزوجته في أحد الأكاديميات

التعليمية الخاصة. كانت السنوات الستّ التي قضاها في الكويت هي الفترة الوحيدة التي عاشتها جمانة مع زوجها هادئة النفس مرتاحة البال. حتى جاء الوقت الذي حضر فيه اجتماعًا لإدارة القناة في المكتب الرئيسي، وتمت تزكيته ومراسلين آخرين، لتغطية الأخبار في (أربيل) الكردستانية شمال العراق.

اضطرت العروس إلى مغادرة الكويت، وقد أصبحت أمًّا لطفلها الأول خالد. ولكنّها غادرت وهي تحمل مئات الذكريات الجميلة، التي كان أجملها تعرفها إلى صديقتها سارة.

ظلت تلتقيها- بعد لقائهما الأول في النادي الرياضي- في إحدى نوادي القراءة التي كانت تزخر بها الساحة الثقافية هناك، تشاطرتا حب الأدب وتذوق الجمال، إلّا أنّ سارة كانت دائمًا بالنسبة لجمانة صديقة استثنائية.

على الرغم من الاختلاف الكبير بينهما، إلّا أنها وجدت في هذه الفتاة شيئًا خفيًّا يجذبها، تساءلت كثيرًا عن الأشياء المشتركة التي تجمعهما، ولكنّها كانت في كلّ مرة تجد كثيرًا من الاختلاف. والغريب أنّ هذا ما جعلهما مقربتين.

***

وقف خالد أمام شاشة التلفاز مباشرة كعادته عندما يظهر والده مقدّمًا لأحد التقارير الإخبارية. كانت جمانة في المطبخ تُعِدّ وجبة عشاء صغيرة للطفلين، استعدادًا لتهيئتهما للنوم باكرًا. وفجأة خرجت مسرعة إلى

الصالة وأمسكت بيد خالد، وعادت لتجلس معه على الأريكة، ووضعت إصبعها السبابة على فمه، لتتمكن من فهم فحوى الكلام الذي لفت انتباهها.

كان التقرير الذي أعدّه زوجها، يتحدث عن اضطرابات سياسية بين أوكرانيا وجارتها الدولة الروسية. أرادت أن تفهم طبيعة البيئة التي يعمل فيه زوجها. كان هذا جزءا من توترها الدائم. هذا التوتر هو ما يجعلها في مزاج سيء في كثير من الأحيان، حتى زميلاتها في العمل يعرفن ذلك، فيحاولن أن يتجنبن سؤالها عن عمل زوجها إلّا إذا بادرت هي بالكلام.

وحدها مديرتها كانت تتصيد مزاجها السيء، لتلقي عليها أعمالًا إضافية، لم تعرف جمانة مبررًا لتلك الخصلة السيئة، إلّا أن بعض الأشخاص أوجدهم القدر في حياتنا ليتعاونوا مع الهموم لزيادة ما نعانيه ونكابده من تعب وألم.

فهمت من كلام زوجها المراسل وجود تقلبات سياسية بين الدولتين الجارتين، وأنّ التصعيد في أوجه، ولكنّها طمأنَت نفسها بأنّ الغرب عقلانيون فيما بينهم، الدمار والخراب يحدثان في عالمنا الثالث فقط.

من بين الأشياء التي تعتبرها نعمة من الله وبركة دعاء الوالدين، كما كان يحلو لها القول دائمًا، وجود صديقات يُخففِّنَ عنها رغم بُعد المسافات، ويُعوِّضْنَها عن بعد شقيقتها سلمى. أمّا الفراغ الذي تركته وفاة

والدتها في قلبها، فلا أحد يستطيع ملأه أو تعويضه. وزاد هذا الفراغ بزواج والدها من امرأة أخرى قبل انقضاء عام على وداعه لزوجته.

كانت سارة إحداهن، أمّا الأخرى فهي أفنان صديقة طفولتها التي تقاسمت معها ذكريات كثيرة في الحيّ الذي تجاور فيه منزلاهما.

أمسكت جمانة هاتفها الذي ما برح صوت رنينه يعلن عن مكالمة جديدة. جاءتها ضحكة أفنان بأعلى صوتها وهي تمازحها:

– قليل من الاهتمام يا محسنين.

بادلتها جمانة الضحكة، وسارعت بتبرئة نفسها من تهمة عدم الاهتمام:

– في القلب صدقيني.

«كيف حالك؟» قالت أفنان.

«بالمجمل أم بالتفصيل؟» ردّت جمانة.

ضحكت أفنان مرة أخرى: «أتحفينا!».

– بالمجمل الحمد لله، وبالتفصيل لا حول ولا قوة إلّا بالله.

قهقت أفنان: «يا لطيف! تبدو التفاصيل صعبة».

تنهدت جمانة وقالت:

– لا أعلم هل هي صعبة؟ أم أُصعِّبها على نفسي.

«الأمور سهلة يا عزيزتي... ما دمنا نمتلك النضج فنحن قادرون على تجاوز كلّ المنغصات بقليل من الصبر». قالت أفنان مُطَمْئِنَةً.

- يوسف يريدنا أن نلحق به، يريدنا أن نقيم في أوكرانيا، البلد الذي يعمل فيه حاليا.

تعجبت أفنان قائلة:

- غريب! لم يفعلها منذ عودتكما من الكويت.
- يقول إنّه تعب من الوحدة.
- الوحدة دائمًا متعبة. أنا خير من يعلم ذلك.
- سيمكث هناك ثلاث سنوات متواصلة دون إجازات طويلة، حتى يحصل على الإقامة، لذلك يحتاجنا بقربه، وخاصّة أنهم أمّنوا له مسكنًا عائليًّا.

«فكري بالأمر» نصحتها أفنان.

- لا أريد أن أفكر، لست مستعدة للغربة من جديد، ربما استطعت فيما مضى التأقلم مع الحياة في دولة عربية، لكنني الآن أرغب في الاستقرار هنا مع أبنائي، أرغب في تطوير نفسي والعودة إلى طموحاتي التي توقفت عنها لأجله.

بحياديتها المعروفة قالت أفنان:

- لكنّ زوجك أيضًا بحاجة إليكم. حاولي إمساك العصا من المنتصف كي لا تميل كفة أحدكما عكس الآخر.
- أأنتِ معه أم معي؟

«مع ما أراه صحيحًا لكليكما» قالت أفنان مؤكدة.

- هل تلحقين بزوجك الى المغرب لو قرر العودة إلى بلده؟
- أنت تعقدين مقارنة غير عادلة، ظروف زوجي تختلف عن ظروف يوسف؟
- إذًا أنت لا ترضين لنفسك ما تطلبين مني القيام به.

شعرت أفنان أن الحوار مع صديقتها بدأ يأخذ منحى الجدال، وهذا مالا تحبه، حاولت تلطيف الجو بإلقاء مداعبة، لعلّ صديقتها تهدأ قليلًا:

- لو كنت زوجة صحفي مشهور مثلك لتبعته إلى نهاية العالم.

بحرقة ضحكت جمانة ضحكة مصطنعة: «لا أريد نهاية العالم، أريد نفسي وراحة قلبي وكفى».

- وهو؟
-
- لماذا تصمتين؟ ألا تحبينه؟ أليست راحة قلبك معه؟
- لو سألتِني هذه الأسئلة قبل سنوات، لقلت لك بلا تردد: بلى. أمّا الآن....

«أمّا الآن...؟» تساءلت أفنان مستغربة.

- مشاعري مضطربة وقلبي متعب، أشعر أنني أختنق بأفكاري وهواجسي.
- إذاً أنت تحبينه. الحبّ هو الذي يجعلنا نضطرب ونعيد الحسابات عدة مرات، هو الذي يفجر ثورة إذا شعرنا أننا قيد الإهمال أو

التهميش، هو من يعصر قلوبنا عند كلّ فراق، ويجعلنا في لهفة دائمة لِلّقاء. حبّك له هو الذي يتعب قلبك. الكره يقتلنا فقط يا صديقتي.

- أنت منحازة إلى جانبه وكأنك أمّه.

ضحكت من غمزها بحماتها وقالت:

- منحازة لكما ولفرحة رأيتها ذات يوم على وجهك عندما تقدم لخطبتك، طوال عمرك تحلمين بزوج يكسر حاجز المألوف في حياتك.

- لم تعد تعنيني هذه الأمنيات السخيفة. أريد أن أشعر بالأمان لي ولأطفالي، أريد كتفًا أستند إليها كلّما تعبت، أريد حياة لا أصحو فيها كّل يوم وأنا أخاف أن يأتيني خبر سيئ عن إصابته أو موته أو أيّ شيء يفجعني.

- قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا.

- ونعم بالله.

***

مضت ثلاثة أيام على مكالمة أفنان، إلّا أنّها ما زالت حبيسة ذلك السؤال الذي أثاره حديث صديقتها في نفسها... لماذا تغيّرت مشاعري بهذا الشكل؟ ما الذي يجعلني مضطربة كلّ هذا الاضطراب؟ أهو بعده؟ أم الأطفال ومسؤوليتهم؟

قالت لها سارة ذات يوم:

- مشكلتك الحقيقة ليست مع يوسف أو مع مَن حولك، مشكلتك في الطاقة الكامنة في - داخلك. لن تنعم نفسُك بالهدوء والدّعة إلّا إذا أخرجتِ هذه الطاقة. أمسكي القلم وأخرجي ما في داخلك.

وقالت لها ذات مرة:

- مشكلتك يا صديقتي أنك تريدين جمهورًا يستمع إلى مواهبك، أو حشدًا يصفق لقصيدتك، أو قراءً يثنون على إبداعك، ولكنّك لم تبادري إلى الآن أية مبادرة لتكوني ما تريدين، نحن نقود معارك جانبية ونتجاهل معركتنا الحقيقية مع أنفسنا.

***

ألقت رأسها إلى ظهر المقعد خلف مقود السيارة وهي تنتظر خروج خالد من مدرسته. أحكمت إغلاق نوافذ السيارة، ومع ذلك كانت هناك لسعة هواء باردة لا تعلم منفذها، شدّت أطراف معطفها بقوة حول جسدها لتحميَه من تلك اللسعة، ما زال الشتاء في منتصفه. دخول شهر فبراير لا يعني توقف البرد، ولكنّه مليء بأيام الهدنة معه، حيث ترتفع درجات الحرارة في بعض الأيام ارتفاعًا طفيفًا يُشيع بعض الدفء في الجو.

علاقتها مع فصل الشتاء علاقة متوترة، فهي تحبّ رؤية المطر ولكنها تكره أن تبتل به، تحبّ الجلوس حول المدفأة، ولكنّها تكره الشعور

بالبرد. تحبّ رائحة الأرض بعد المطر، ولكنّها تتضايق إذا علق بعض الطين في حذائها.

تذكرت وهي تشدّ معطفها حول جسدها للمرة الثانية أنّها تكره ملابس الشتاء، لأنّها تأخذ حيّزا كبيرًا من الخزانة وتحتاج إلى وقت لطيها.... قاطع حديث نفسها صوت طرق يد خالد الصغيرة على زجاج النافذة. مدّت يدها اليمنى بسرعة، وفتحت له الباب ليخبّئ جسده الصغير داخل دفء السيارة. واجهها بعينين تشبهان عيني والده، وبصوته الناعم الرخيم قال:

- حصلت على درجة كاملة في الامتحان.

أسبغت عليه كلمات الثناء ووعدته بهدية قيّمة إذا أنهى جميع اختباراته بتفوق.

أخذ الهاتف من حجرها قبل أن تباغت يدُها يدَه الصغيرة، وجلس يكتب رسالة لأبيه يزفّ له الخبر السعيد. ابتسمت ابتسامة خفيفة وقررت أن تؤجل تعنيفه على أخذه الهاتف دون استئذان.

فاجأته بسؤال كي تشغله عن اللعب بهاتفها طوال الطريق.

- ماذا تحب أن تصبح في المستقبل؟

«مثل بابا» قال لها دون أن يرفع بصره عن الجهاز الذي بين يديه.

لم يصدمها الجواب، ولكنّه جعلها تطلق تنهيدة عميقة وتركّز في المرآة الأمامية، تاركة هاتفها بين يديه يلتقط لنفسه صورًا تارة، وتارة أخرى

لمناظر الطريق وهي تتمتم: «إذاً كان الله في عونها من ستتزوجك يا ابن أبيك».

***

مضى على وجود يوسف في (ماريوبل) الأوكرانية شهر ونصف، تعرف خلالها إلى المدينة، زار جبل الجليد وقصر الثقافة وبرج المياه القديمة.

وتجول في مدن أخرى برفقة زملاء العمل، إذ كانوا يعكفون على إعداد برنامج وثائقي قصير عن آثار الاتحاد السوفييتي السابق في الحياة الاجتماعية والسياسية.

ذهبوا بمُعداتهم إلى العاصمة (كييف)، ثمّ انتقلوا إلى مدينة (لفيف)، واعتزموا تصوير بعض المقابلات مع شخصيات معروفة في مدينة (أوديسا)، وبعدها تأتي مرحلة تحرير المادة التي جمعوها، ثمّ يرسلونها للدمج مع المواد الإعلامية التي عمل عليها زملاؤهم في مكتب القناة في موسكو.

حدث طارئ، استدعى منهم أن يقطعوا رحلتهم إلى (أوديسا) ليعودوا أدراجهم إلى موقعهم في ماريوبل. التوتر يتصاعد في الأجواء بين الجارتين السوفييتيتين السابقتين. يبدو أن صبر روسيا قد نفد بسبب تمرد جارتها ونشوزها، وجنوحها نحو الغرب الأوروبي، ضاربة عرض الحائط بسيادة جارتها اللدودة.

تلقى يوسف تعليمات العمل من مدير التحرير والأخبار الذي ظل على تواصل معه ومع فريق العمل. المؤشرات تدل على ترجيح نشوب مناوشات عسكرية بين الدولتين، ربما تمتد لعدة أيام ثمّ تنتهي، إذ من غير المتوقع أن تكون خاتمة عامين من الإغلاقات الصحية وحظر التجول، وتطبيق بروتوكول صحي صارم في العالم بأسره، نشوب حرب قد تقود العالم إلى موجة مجنونة من المواجهات، وسُعار محموم في البحث عن مصادر للطاقة.

أمضى يوسف ذلك اليوم وهو يبحث في الإنترنت عن معلومات تثري معرفته عن طبيعة العلاقات التاريخية بين أوكرانيا وروسيا، ثمّ قرّر أن يخرج في المساء ليتناول العشاء في مطعم عربي قريب... يعرف أنّ من صميم عمل المراسل الصحفي استقاء بعض المعلومات من السكان، فهم قادرون على تحليل بعض الأمور بشكل مقارب للحقيقة أكثر من بعض المحللين الذين يجلسون خلف الشاشات.

رحّب به صاحب المطعم الذي بدا من لهجته أنّه من اليمن، فهذه اللكنة الصافية الجميلة والطريقة المميزة للفظ القاف هي ما تميز اليمنيين.

«اليمن السعيد؟» قالها يوسف بلطف وودّ.

ردّ الرجل الأربعيني بابتسامة عريضة على وجهه الأسمر، وقال:

- أهلا بك في مطعم جلال. ماذا تأمر؟

«أريد وجبة يمنية خفيفة على ذوقك...» طلب يوسف بذوق.

- إذا كان على ذوقي، فسأختار لك (السلتة اليمنية)، والفتوت ثمّ تحلّي بالكنافة.

«خرشو... هذه وجبة من العيار الثقيل» قال يوسف مازحًا.

ابتسم صاحب المطعم، وردّ على الكلمة الروسية بكلمة حضرمية أصيلة:

- حيا بك.

بعد أن أنهى وجبته، طلب يوسف من جلال أن ينضمّ إليه ليحتسي معه كوبًا من الشاي، ولم يردّ المضيف طلب الضيف، وجلس إلى الطاولة بعد أن أعطى تعليماتِه إلى العاملين في المطعم بالاهتمام بالزبائن.

- حيّاك الله شيف جلال، معك أبو خالد.

- أهلًا بك. أظنّ أنّ وجهك مألوف، أظنني شاهدتك على التلفاز.

وجد يوسف أنّ لا فائدة من إخفاء حقيقته فرد على الفور:

- صحيح.

امتد حديث يوسف مع جلال لأكثر من ساعتين، كان مثقفًا بصورة أذهلت يوسف، تحدث عن طبيعة الحياة في أوكرانيا، وطقسها الجميل في شهر يونيو، ووصفها بأنّها جنة الله في الأرض بطبيعتها الجميلة الخلابة. زادها الاهتمام بتنظيم شوارعها، وحسن تخطيط مدنها وفق أحدث المعايير الهندسية رونقًا وجمالا. ثمّ عرّج للحديث عن المشاحنات بين

روسيا وأوكرانيا، وحربهما الباردة منذ عدة سنوات، ثمّ تطورت إلى مناكفات علنية، وتجاذبات إعلامية واضحة.

«منذ متى وأنت هنا؟» سأل يوسف.

سرد جلال قصة مجيئه إلى هذه البلاد، حيث جاءها في بداية شبابه للدراسة في (جامعة كييف)، ولكنّه تحول بعد عامين عن دراسة الهندسة الميكانيكية إلى معهد فندقي يُعَلِّم مهارات الطبخ الشرقي والغربي على حدّ سواء، فهو شغوف بفنون الطهي ورائحة التوابل والبهارات.

وبعد تخرّجه من المعهد عمل في أحد الفنادق المعروفة، ثمّ ارتبط بالزواج من شابّة أوكرانية كانت تعمل موظفة استقبال في الفندق ذاته. وبعدها بسنوات قليلة افتتح مطعمه الخاص بالطعام العربي واليمني خاصة، إذ قرّر أن ينشر رائحة التوابل العربية في هذه البلاد التي تعُجّ بالمغتربين.

فرغت الطاولة، فجاء عامل يجمع ما عليها من أطباق وأكواب، وعاد صاحب المكان إلى مطبخه يتابع سير العمل الليلي، وقد سرّه أن تعرّف إلى شخصية مثل يوسف الذي شاهده مرارًا وهو يقدم تقارير صحفية عبر الفضاء الإعلامي.

أمّا يوسف فقد شعر بالرضا عن الوقت الذي أمضاه وهو يستمع إلى حديث جلال صاحب المطعم. فهو بحاجة إلى تكوين شبكة علاقات في هذا المكان الجديد الذي سيمكث فيه سنوات. فضّل أن يتجول في

المكان، فقد جذب انتباهه الطابع العربي لتصميم المطعم. كانت الطاولات الخشبية ذات شكل مربع، وُضِع فوق كلّ واحدة منها مفرش من قماش (السّدو) الذي ينتشر في بعض دول الخليج، تتداخل فيه الألوان الزاهية والنقوش الجميلة. خُصِّصَت الواجهة الأمامية لتعليق مقتنيات كثيرة من التراث العربي: الكوفية الحمراء وشقيقتها البيضاء، الخنجر اليمني، فانوس رمضان، سَجّادة صلاة عليها صورة للكعبة، غربال كبير عُلِّقَت إلى جانبه صواني القشّ المصرية.

على الجهة المقابلة عدد من الأرفف المصنوعة على طريقة (الأرابيسك)، وفوق كلّ رفّ مجموعة من الأدوات والمُجسَّمات. شاهد مبخرة ومُجسَّما لنخلة وآخر لسفينة، وخريطة اليمن نُقِشَت على لوح حجري كبير. أمّا الرفّ الأخير فقد تضمن أنواعًا من التوابل اليمنية والبهارات المستخدمة في الطعام الشعبي.

المكان يعُجّ بالتفاصيل، يزخر برائحة الأطعمة العربية. «تمتزج الروائح بعضُها ببعض كأنّها تصدح معًا: بلاد العرب أوطاني». حدث يوسف نفسه.

غادر يوسف مطعم جلال اليمني وقد ملأ معدته، وأثرى روحه، وأمتع ناظره، واكتسب صديقًا جديدًا.

***

بينما كانت أكرة الباب تدور في يده، اهتزّ هاتفه في جيبه، وسمع صوت رنينه، فعرف أنها هي.

أسند رأسه على ظهر الأريكة وهو يستمع إلى صوت زوجته يقول:

- لماذا لم تخبرني عن الشغّالة؟

- هل وصلت؟

- اتصل مكتب العمالة المنزلية في الصباح، وأخبروني أن الشغّالة التي أوصى بها السيد يوسف قد وصلت وتمّ تجهيز جميع أوراقها.

- ممتاز. أنتِ في حاجة إلى مَن تساعدك في المنزل، لذلك أحببتُ أن أفاجئَك.

- تعرف أنني لا أحبّ عاملات البيوت.

«لا أعرف...» ردّ باقتضاب.

«طبعا، ومن أين لك أن تعرف؟ وهل يهمك أن تعرف؟» ردّت باستهزاء.

شعر يوسف بالضيق فجأة، اعتدل في جلسته، ووضع الهاتف على أذنه الأخرى بحركة عصبية، وبادرها معاتبًا: «ظننتُ أنّكِ ستشكرينني».

«شكرًا، لو استشرتني لأخبرتك أنني لا أريد خادمة» أجابت باستفزاز مبالغ فيه.

«ولكنك في حاجة إليها مع زيادة أعباء البيت والطفلين وعملك في المدرسة. سيخفف وجود شغالة عنك الضغط وسيريح أعصابك» قال

محاولا تلطيف جوّ المكالمة المشحون ولكن محاولته باءت بفشل ذريع عندما سمعها تقول ممعنةً في استفزازه:

«ربما سيخفف عنكَ شعورك بالذنب تجاه أبنائِك وزوجتك».

لم يتمالك نفسه وجاءها صوته هادرًا:

– لا يعجبك العجب، لا أعرف ما الذي يرضيك، هل أخطأتُ لأنني فكرت في جلب خادمة تساعدك في أمور المنزل، ورعاية الولدين؟

وتابع بنفس الصوت الهادر:

– هل هذا شيء يستحق هذه النبرة الجافة في صوتك وكأنني اقترفت جريمة؟ هل من الصعب أن تنطقي كلمات تخلو من الشكوى والاستفزاز ومشاعر الضحية؟

لم ينتظر جوابها. أغلق الخط ورمى بالهاتف على الأريكة. أمسك رأسه بين يديه وضغط على جبيه بأصابعه، وأخرج زفيرًا طويلًا وهو يتوجه إلى الحمام للاغتسال. وفي رأسه تدور فكرة واحدة: (كم أكره صدها لكلّ محاولة أقوم بها).

***

أجهشت جمانة في نوبة بكاء كطفلة أضاعت دميتها، دفنت وجهها بين راحتيها وأخذت تستمطر دموعها وكأنها ستروي بها أرضًا بورًا طال شوقها للمطر.

أيقظ صوت نشيجها طفلتها التي كانت تنام بقربها على السرير، وبدأت الطفلة تبكي بعد أن تنغّص نومها، حملتها أمّها وأخذت تربت على ظهرها حتى عادت إلى النوم.

خرجت من غرفة نومها بهدوء، وجلست في الصالة على ضوء اللمبة الخافت التي اعتادت إبقاءها مضاءة عندما يخلدون إلى النوم.

مسحت وجهها بمنديل، ومدت يدها إلى زجاجة ماء على الطاولة، وشربت من فوهتها جرعة كبيرة، ثمّ بدأت تقرأ بعض السور القصيرة حتى تهدأ نفسها.

ظلت تفكر في مكالمة زوجها التي انتهت بخروجه عن طوره، لم يكن من عادته الانفعال بهذه الطريقة. كان سؤال واحد يطرق رأسها:

- لماذا تصرفتُ هكذا؟ وكنتُ دائمًا أغبط صديقتي على وجود شغّالة تساعدها في أعمال المنزل؟

تعرف أن يوسف يعمل جاهدًا ليعوضها عن غيابه المستمر، هل هذا شيء سيء يستحق اللوم والتأنيب؟

تذكرت أنّها نسيت أن تسأله عن المكان الذي خبّأ فيه عقد استقدام الشغّالة، كان هذا هو سبب اتصالها به، ولكنّ الحوار بينهما سلك طريقًا شائكًا.

عليها أن تحضر الشغّالة من المكتب غدًا، ولا بدّ من وجود نسخة العقد معها.

بقيت تسأل نفسها لماذا انخرطت في جدال لم تكن تقصده أو تخطط له؟ قلبها الثائر لا يهدأ، وعقلها سلّم قيادَه لهذا القلب بعد طول نزاع بينهما.

كيف تحولت هذا التحول الكبير من امرأة عقلانية تمامًا، إلى أخرى لينة المشاعر، هشة الفؤاد، مدرارة الدموع. كيف يمكن للمرء أن يتغير إلى درجة أن يجد نفسًا غريبة غير نفسه، وقلبا ضعيفًا ما كان يومًا هو الذي بين أضلعه؟ ما الذي تغير؟ تساءلت بينها وبين نفسها.

كان صادقًا منذ البداية. أخبرها عن طموحاته، أحلامه في أن يكون صحفيًّا طائرًا لا يجلس خلف مكتب أو تحدّ مواهبَه جدران. أخبرها أنّ عملَه سيأخذه منها لفترات قد تطول، أخبرها انها ستُضطَر لتحمل غيابه دائمًا، أخبرها الكثير الكثير، والغريب أنّه كان صادقًا تمامًا.

لم تكن ترى في أيٍّ من تلك الأمور صعوبة او عائقًا، لم يكن الفارس الذي حلمت به، ولكن حصانه كان ذلك الحصان الذي عاش في مخيلتها منذ صغرها، بهرتها فكرة الزواج من صحفي، شغفت بالارتباط بصاحب قلم وفكر، تخيلت أن حياتها معه ستكون كتبًا تتكدس هنا وهناك، مقالات وأخبار، نقاشات وحوارات. كان هذا هو العالم الذي تحبه. فما الذي تغير الآن؟

أمسكت صورته التي كانت تقبع في برواز أنيق، موضوع على طاولة جانبية دائرية، ذات أرجل طويلة أبدع صانعها في إبراز جمال صنعته بعمل

أطراف معقوفة في قاعدتها، حدقت بعينيها المبتلتين في وجهه المبتسم، مررت أصابعها على الصورة كأنها تلامس وجهه، شعرت أنّ فؤادها يريد أن يقفز من بين أسوار الضلوع التي تحميه من أفكار مجنونة.

أدركت في هذه اللحظة أنّ الذي تغير هو أنّها أصبحت مولعة بحب الفارس وليس الحصان. وهذا ما يجعلها بهذا الضعف... بهذا الخوف والقلق... هذا ما يجعلها تثور على غيابه وبعده ووسادته الخالية.

قالت لها أفنان ذات مرة: «الحبّ مشاعر ارتباك حمقاء»، أمّا سارة فتُرَدِّد دائمًا: «الحبّ مرض لا أجر فيه ولا عوض».

***

دخلت الشغّالة الآسيوية إلى منزل مخدومتها، تعرّفت إلى المنزل وأهله، قادتها جمانة إلى غرفة صغيرة قرب المطبخ، أخبرتها أنّها ستكون غرفة نومها ومكان استراحتها.

أصرّت جمانة على أن تصنع الشاي بنفسها وتقدّمه للشغّالة مارين، فهي ضيفة جديدة على المنزل. شرحت لها مهامّها والأعمال التي عليها إنجازها خلال اليوم، وأخبرتها بالمواعيد الضرورية للطفلين: وقت النوم، الطعام، الذهاب إلى المدرسة. وتمنت لها إقامة طيبة في منزلها، وذكّرتها أنّها تحبّ أن تطهو طعام أسرتها بنفسها.

دقّ جرس الباب في وقت مبكر، هزّت رأسها كأنّها تستنكر هذا الصوت صباح يوم الجمعة. لم تنهض لفتح الباب ومعرفة الضيف الثقيل في هذا الوقت، قامت مارين بالمهمة. سمعت صوتًا تعرفه جيدًا:

- أنت الشغّالة الجديدة؟ أين جارتي الغالية ام خالد؟

حدثت نفسها وهي على السرير: «ما الذي جاء بها في هذا الوقت المبكر؟»، فهي وإن كانت فضولية وثرثارة، وتحشر أنفها بشؤون جارتها مظهرةً الود، إلّا أنّها تحترم خصوصية يوم الجمعة، فهو يوم عطلة يطيل معظم الموظفين النوم فيها، تعويضًا عن إرهاق أسبوع من العمل.

جاء صوتها مرة أخرى:

- جمانة! يا أمّ خالد ألم تسمعي الأخبار؟

نهضت من السرير ووقعت عينها على لوحة الدراويش. أمسكت الروب الصوفي الثقيل ولفّت به جسدها.

«صباح الخير» قالت وهي تتجه نحو ميساء التي تجلس على الأريكة واضعة قدمها اليمنى فوق اليسرى، وقد ارتدت جرابًا صوفيًّا ثقيلًا أحمر اللون.

- صباح الخيرات، ألم تسمعي الأخبار؟

لم تترك لها فرصة لتجيب، بل استطردت وهي ترفع حاجبيها وتزمّ شفتيها:

- الحرب قامت، الله يستر، كلّ الأخبار تقول إنّ روسيا بدأت الحرب العالمية - الثالثة، لا أعرف إلى أيّ حرب سنصل؟، وأتبعتها بضحكة خفيفة.

لم تستوعب جمانة في البداية حديث الجارة التي تعرف حبّها لتبهير الكلام والمبالغة فيه.

طلبت من الشغّالة أن تحضر فنجانين من القهوة، واستأذنت جارتها لتغسل وجهها، وعرفت أنّه لا مناص من احتساء قهوة هذا الصباح مع ميساء التي لن ترتاح حتى تُفرَغ كلّ ما في جعبتها.

جلست الجارتان في الصالة، وظهر وجه ميساء الأبيض الممتلئ بارزًا من شال صوفي أحكمت لفّه حول رقبتها. عدّلت جلستَها ومدّت ساقيها إلى الأمام وعقدتهما، وأسندت ظهرها إلى الخلف وقالت:

- الأخبار في جميع المحطات تتحدث عن الحرب بين روسيا وأوكرانيا، فقلت لنفسي لا بدّ أنك تعرفين ما يدور أفضل مني، فأنت زوجة صحفي كبير.

وأطلقت ضحكة مجلجلة.

ابتسمت جمانة وهزت رأسها تتصنع الموافقة على كلام جارتها، إذ لا فائدة من إظهار التواضع أمامها، فهي تطلق النكات والضحكات دون أن تنتظر نفيًا أو تأكيدًا. وكأن فؤاد المرأة خالٍ من الهموم والمشاغل. فكرت

جمانة في هذه اللحظة وقالت في نفسها: «ترى هل هناك ما يشغل هذه الأرملة المرحة؟».

لم يُثِر كلام الجارة عن الحرب انتباهها كثيرًا، فهي تعرف أنّ اضطرابات تدور في تلك البقاع، ولكنَّ ما شدّ انتباهها وجعلها تعدل من جلستها، وتضع فنجان القهوة على الطاولة، الخبر العاجل الذي قرأته على شاشة التلفاز.

شهقت بأعلى صوتها وشعرت للحظة أنّ قلبها يتهاوى بين قدميها. انتبهت ميساء للتغيير الذي طرأ على وجه جارتها ودققت في الشاشة وقرأت بصوت مرتفع:

(قصف عنيف على مدينة ماريوبل الأوكرانية أدى إلى إصابة بعض طواقم الصحفيين).

نهضت جمانة من مكانها وذهبت مسرعة إلى غرفة نومها، أمسكت هاتفها وضغطت على رقم الاتصال السريع الذي خصّصته له، فظهر سم يوسف، سمعت صوت رنين الهاتف على الجهة المقابلة، وسمعت دقات قلبها تتسارع في انتظار أن يردّ عليها.

علا صوت ميساء يناديها من الصالة، ولكنها أغلقت باب الغرفة، وجلست على طرف السرير تنتظر ردّه. جاءها صوته:

- مرحبا....

«هل أنتَ بخير؟» قاطعته بصوت مرتجف.

- يبدو أنك شاهدت الأخبار.

- أنتَ بخير؟

«بخير...» قال مُطَمْئِنًا.

سألت باهتمام: «هل الوضع خطير؟».

- تعرضنا لأخطر منه والحمد لله كنّا ننجو دائمًا.

هدأ قلبها قليلًا وتذكرت جارتها الجالسة في الصالة، أنهت المكالمة مع زوجها ووعدته أن تتصل به بعد أن تغادر الجارة إلى منزلها.

خرجت إلى الصالة فلم تجد ميساء. أخبرتها الشغّالة أنها تلقّت اتصالًا من ابنتها وخرجت مسرعة.

لم تكن ميساء من الأشخاص الذين يُضطَر المرء للتكلف والمبالغة في تقديرهم حرصا على مشاعرهم، فعلى الرغم من شخصيتها الفضولية والثرثارة، إلّا أنّها تتلقى الأمور بعفوية وبساطة، ولا تأخذ الأشياء بحساسية، وهذا ما يريح جمانة في التعامل معها. لذلك تلقت خبر عودتها إلى منزلها بنفس ممتنّة لابنتها التي أنقذتها من التساؤلات العديدة التي كانت ستوجهها إليها.

رجعت إلى غرفتها وعاودت الاتصال بزوجها، واستمعت إليه وهو يشرح تسارع الأحداث وتفاصيل القصف الذي هزّ (ماريوبل) باختصار، وطلب منها أن تطمئن فالأخبار تبالغ في نقل الحدث لغايات إعلامية.

طلبت منه أن ينتبه لنفسه، وأن يبتعد عن أماكن الخطر، وألّا يهمل تناول وجباته.

ابتسم في سرّه، فقد عادت لتمارس معه دور الأمّ الذي اعتادت عليه مع الأبناء.

أنهى المكالمة بوعد أنّه سيفعل كلّ ما تقوله. مستغلًّا عدم تطرقها إلى موضوع الخلاف والاحتدام الذي حصل بينهما.

***

دخلت مدرستَها بعد أن أوصلت خالد الى مدرسته. أمّا تاليا، فبقيت في المنزل مع الشغّالة. كانت حرارتها مرتفعة قليلًا، فضَّلت أن تُبقيَها في المنزل لترتاح. فبعد نوبة المرض الأخيرة التي تعرض لها جهازها التنفسي، أصبحت تخاف عليها من عدوى جديدة تُلزِمها الفراش مرة أخرى، وتُلزِم أمَّها كثرة الغياب والاستئذان، وهو ما لا تحبّه تجنبًا للصدام مع مديرتها.

- صباح الخير مس جمانة.

جاءها صوت حادّ من الخلف تعرف صاحبته تمامًا، فالتفتت وهي تحاول جاهدة رسم ابتسامة بشفتين ممطوطتين.

- صباح النور مس ابتهال.

- شمسك عالية اليوم.

– أبدًا. شمسي في موعدها تمامًا، ولكنّي ذهبتُ لأحضر أوراقًا نسيتها في السيارة.

– تعرفين أنّ الالتزام بموعد الحضور من أخلاقيات المعلم.

قالت المديرة وكأنها لم تسمع تبريرها. حاولت أن تبقي شفتيها ممطوطتين، وضغطت على أعصابها لترد بهدوء، متجنبة ما تُلَمِّح إليه مديرتها.

– أكيد أعرف ذلك.

– إذاً، أتمنى عدم التأخير مرة أخرى، وإلا أنا مضطَرة لأن أتعامل حسب اللوائح و...

هزّت رأسها دون أن تجيب بكلمة، وبذات الشفتين أدارت ظهرها وذهبت إلى فصلها، حيث ينتظرها الطلاب. تعرف أنه لا فائدة من الجدال مع هذه الشخصية التي شاء القدر أن تكون رئيستها في العمل.

طالعَتْها وجوه الطلاب، فابتسمت ابتسامة عريضة وهي تحييهم:

– السلام عليكم، كيف أصبحتم؟

وقف طلاب الفصل، وردُّوا التحية بأصوات غير متناغمة ولكن فيها الكثير من الطفولة والبراءة.

لم يكونوا أطفالًا بالمعنى الحرفي للكلمة، فأجسادهم أجساد مراهقين في الثالثة عشرة من العمر، ولكنّ نظراتهم وحركات أيديهم، والابتسامات التي تعبق بها وجوههم، تدل على براءة قلوبهم وطفولة عقولهم.

لم تعترض ولم تتذمر عندما جاء أمر نقلها إلى مدرسة الإعاقات العقلية قبل ثلاثة أعوام، فلطالما كانت تنظر بالحبّ والعطف إلى هذه الفئة. وشعرت أنّ العمل معهم سيكون تجربة إنسانية تتوق إلى خوضها. وصدقَ حدسها. فمنذ أن انتقلت للعمل في هذه المدرسة وهي تشعر بقيمة كلّ كلمة أو فعل تقوم به مع هؤلاء الذين يسمّيهم المجتمع المبتلى في قدرته على تسمية الأشياء بمسميات تخفف من وقع الهموم على أصحابها: (معاقين).

لم ترَ فيهم على مدار سنوات مضت إلّا مصدرًا لصفاء نفسها، وإلهام شعورها، بقلوبهم النقية التي لا تعرف الحقد، وابتساماتهم الحقيقية التي تنبع من هذه القلوب. وحرصهم على تقليد ما تُعلّمه لهم لينالوا رضاها.

لم تر فيهم سوى إعاقة الجسد، أمّا أرواحهم فكانت سليمة صافية، لا ينافسهم في صفائها وجمالها أولئك الذين يرون أنفسهم بشرًا كاملين.

وحدها مديرة المدرسة كانت مصدر تنغيص يومها. حاولت مرارًا أن تتأقلم مع أسلوبها وطريقتها في التعامل، ولكنّها أدركت مؤخَّرًا أنّ الأمر لا يتطلب التأقلم بل المسايرة، ومواجهة نوبات تسلطها ببرود وصمت.

لا تميل بطبعها إلى تصديق أيّ صورة نمطية للشخصيات، ولكنْ منذ أن بدأت العمل مع هذه المديرة تغيّرت أفكارها قليلًا، فكما هو شائع بين أوساط معظم الموظفين يتمتع من يجلس على كرسيّ الإدارة في كثير من الأحيان بصفات تسلطية تجعله دائم الشكّ فيمن يعملون تحت إمرته،

فيلجأ إلى مهاجمتهم واتّهامهم، والتقليل من إخلاصهم وأمانتهم وهذا ما تنتهجه مس ابتهال، ليس مع جمانة فقط، وإنما مع مجموعة المعلمات اللاتي يشاركنها العمل، وإن كانت تُثَقِّل العيار مع جمانة أكثر من البقية، بسبب شعورها بتفوق شخصية هذه المعلمة المنقولة من التعليم العام إلى تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة.

هكذا كانت المعلمات يبرِّرْنَ تصرفاتِها المتشنِّجة مع زميلتِهِنّ، في كل مرة تفتعل فيها مشكلة ما للتقليل من شأن جمانة التي أثبتت نفسها في فترة قصيرة، بمعاملتها الرقيقة مع التلاميذ وحسن استيعابهم، والتواصل معهم ومع ذويهم.

كثيرًا ما فكّرت جمانة وتساءلت بينها وبين نفسها:

- لماذا يلجأ صاحب المنصب إلى كسر مَن هم دونَه؟ لماذا يعمل على حجب نجاحاتهم، والتقليل من جهدهم، ووضعهم في زوايا الإحراج المقيتة، لأتفه سبب ودون سبب أحيانًا؟

***

قادت سيارتها وسط ازدحام الشارع، يتسابق الجميع في هذا الوقت للعودة إلى بيوتهم، أو الذهاب لاصطحاب أبنائهم من المدارس، أو المرور بالسوق لجلب قائمة بأغراض المنزل.

في المقعد الخلفي جلس خالد يتناول بقايا كيس من رقائق البطاطا. السيارات تتزاحم وتتسابق لبلوغ الإشارة قبل أن يداهمها اللون الأحمر، فيؤجل وصول الناس إلى أهدافهم دقيقة أو دقيقتين.

لم يكن هذا السباق من هواياتها. تحبّ أن تقود بهدوء، لذلك تحرص دائمًا على البقاء في الجهة اليمنى من الشارع لتفسح الطريق لكلّ عجول.

أوقفت سيارتها عند الإشارة تنتظر عودة اللون الأخضر، شمس دافئة ترسل أشعتها، هل بدأ الجو يسير نحو التملص من عباءة الشتاء الثقيلة الباردة؟

أتمنى أن يبدأ الصيف باكرًا هذا العام. قالت بصوت خافت وهي تدير راسها نحو اليمين مرسلة عينيها عبر النافذة.

فجأة شاهدت ميساء - أو هكذا خُيِّل إليها - تخرج من أحد المباني، قرأت لوحة في أعلاه: (دار الأمل للأيتام).

التفتت ميساء نحو السيارة، واصطدمت عيناها بوجه جمانة، ثمّ لم تلبث أن اندسّت في إحدى سيارات الأجرة.

كان ضوء الشمس يلمع في عينيها، صنعت فوقهما مظلة بيدها تحجب الأشعة، دققت النظر لترى ميساء، أو تتأكد إن كانت هي أم لا، لم تمهلها الإشارة ولا السيارات التي خلفها، انطلقت أصوات أبواقها تحثّها على الحركة.

لعلّها كانت في صالون نسائي ما. حدثت نفسها. فهي دائمة البحث عن عروض الصالونات، وكم مرة حاولت أن تجرّها معها للذهاب لتجربة منتج جديد للشعر أو البشرة، ولولا تملُّصها منها بكثير من الحُجج، لنجحت في اصطحابها معها إلى عالم صنع الجمال، كما يحلو لجارتها أن تُسَمِّيَه.

داست قدمها على مكبح البنزين بعد أن انتبهت إلى أنّ النعاس غلب خالد، وظهر لها في المرآة الأمامية وهو يلقي رأسه على ظهر المقعد مستسلمًا لغفوته. وتابع عقلها ما كان مشغولًا به: «مؤكَّد أنّها لم تكن ميساء، فلو كانت هي لاتصلت بي، وطلبت أن أمرّ لاصطحابها، فهي تعرف أنّ هذا هو طريقي اليومي...». حدثت نفسها.

لم تعد جارتها تشغل بالها بعد أن استيقظ خالد على صوتها، وهي تطلب منه النزول من السيارة.

سبقها إلى مدخل العمارة، ووقف أمام المصعد ينتظر أن تلحق به، ولو انتظرت دقيقة واحدة في الخارج لشاهدت جارتها تنزل من سيارة الأجرة، وبيدها حقيبة سوداء كبيرة، تحجب عينيها بنظارة شمسية ذات إطار ذهبي لامع، وقد لفت شعرها بشال أسود وضعت أطرافه المتدلية داخل البالطو الرمادي الذي كانت تحتمي به من أي برد محتمل.

دخلت جمانة شقتها فاستقبلتها الطفلة الصغيرة، أسرعت وحملتها بين ذراعيها ووضعت يدها على جبينها لتتأكد من حرارتها.

«الحمـد لله، لا يوجـد حـرارة» قالـت الأم وهـي تقبـل طفلتهـا التـي احتضنتها.

أخذت تاليا تخبر أمها بما فعلته منذ الصباح في قصة تفتقر إلى الترابط، يتخللها الكثير من الشهقات، وبحلقة العينين الصغيرتين للدلالة على أهمية الكلام.

أنزلت الطفلة من بين ذراعيها، ثمّ دخلت المطبخ وطلبت من الشغّالة أن تغسل كأسًا من الأرز وتقطع الكثير من الخضار إلى ان تغتسل وتبدل ملابسها.

وبينما هي تلف جسدها بروب الاستحمام الشتوي الثقيل، سمعت صوت جرس الباب، ثمّ عقبه صوت الشغّالة يقول أهلًا مدام.

لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من الذكاء لتعرف أن المدام هي جارتها ميساء.

ارتدت ملابسها بسرعة وجففت خصلات شعرها سريعا، وخرجت إلى الصالة وهي تذكر نفسها أن تسألها إذا كانت قد خرجت اليوم.

وجدت ميساء قد سبقتها إلى المطبخ لتضع الأطباق التي جلبتها معها وقالت بصوتها المرح:

– الغداء اليوم من مطبخي.

(منسف بالجميد على أصوله).... قالتها بلهجة واثقة وهي تبتسم.

عدلت عن سؤال جارتها، فلا يبدو أنها قد غادرت المنزل إلى أي مكان، وهي منشغلة بإعداد منسفها الذي يتصاعد البخار منه.

«أنت تحرجيني بكرمك، دائمًا تتفقدينا بأطباقك اللذيذة» قالت جمانة بامتنان.

- بالهناء والعافية. وهل يوجد أعز منكم يا جارة الرضا؟

شعرت بالحرج من لطف جارتها فشكرتها على ذوقها، وقالت في نفسها:

(لو فقط تقلل من الثرثرة الزائدة لجمعت ميزة إلى مزاياها).

***

فتحت جهاز الحاسوب بعد أن انتهت من ورشة الغداء، ومساعدة خالد في حل بعض الواجبات، ومداعبة تاليا التي لا يحلو لها اللعب إلّا بتصفح صور والدها في هاتف أمها، لتُقَبِّلَه وتملأ الشاشة ببقايا لعابها الذي يُبلّل شفتيها الصغيرتين، ثمّ تحاول ضمّهما بقوة قبل أن تطبعَهما على الصورة المختبئة في الجهاز.

كان عليها أن تُجهّز بعض الأوراق والجداول التي تخص مدرستها، لم تعتد أن تحمل معها عملًا يخص المدرسة إلى المنزل، وذلك لتتفرغ للطفلين تمامًا. لكنّها اليوم وعلى غير عادتها تكاسلت في إنجاز بعض الملفات. شعرت بالنعاس والتعب وهي تركز نظرها في الشاشة. وعلى

الرغم من شعورها بالتعب فإنها كانت تفكر في أن تتصل بسارة لتطمئن على أحوالها فور إتمام ما بيدها.

انتشلها صوت الهاتف فجأة وكأنه يقرأ أفكارها. أغلقت الجهاز وأمسكت الهاتف بابتسامة عريضة، ووصل صوتها إلى الطرف الآخر:

- يا مرحبا، الطيبون يأتون عند ذكرهم.

تصنعت سارة الغضب وردّت على تحية صديقتها:

- وهل أنا على بالك أصلًا؟

ضحكت جمانة وقالت:

- أعرف أنّكِ غاضبة وعاتبة ومستاءة.

لم تستطع سارة مواصلة تصنُّعها، وضحكت وهي تقول:

- أنا مشتاقة أكثر بكثير من كوني مستاءة.

سألتها جمانة عن أحوالها وعن آخر أخبارها.

فأجابت أن الأمور جيدة بشكل عام، ولكنّها تواجه بعض المشاكل مع زوجها، فقد تورط في صفقة لاستيراد بعض المُعدّات الكهربائية عن طريق زوجة أخيها التي تعمل في إحدى شركات الاستيراد الخاصة، ثمّ تبيّن أنّها قامت باختلاس المال الذي دفعه لها مع مبالغ أخذتها من مستثمرين آخرين، وهربت خارج البلاد، تاركة عائلتها خلفها، ما جعل زوجها يدخل في مشكلة كبيرة مع أخيها وزوجته الهاربة، بسبب المال الذي خسره.

وتابعت سارة بإحباط ظاهر في صوتها:

- وكالعادة الفأس تقع في رأسي أنا، مع أنني لم أكن أعرف شيئًا عن الصفقة التي عقدها زوجي مع خلود زوجة أخي. ولو طلب مشورتي لنصحته ألّا يفعل، فأنا أعلم الناس بدهاليز هذه المرأة، واستغلالها لوظيفتها، وحبّها للمال مهما كان مصدره.

صُعِقَت جمانة ممّا سمعت. كانت قصة أقرب إلى قصص المسلسلات والأفلام، وتساءلت:

- وأنتِ ما ذنبك؟ وما موقف أخيك من الموضوع؟

تنهدت قائلة:

- أخي قاطعني منذ أن عرف القصة، واتّهمني بالتواطؤ مع زوجي ضدّ زوجته، بل اعتبر أننا السبب في هروبها بسبب القضية التي رفعها زوجي ضدها.

تفاجأت جمانة من كلام صديقتها.

لقد عاشت في ذلك المجتمع، وتعرف أنّه مختلف عن مجتمعها. لكلّ مكان خصوصيتُه الاجتماعية، ولكن تبقى الأمور المشتركة بين البشر في طريقة تعاملهم مع المشاكل والأزمات، فبدلًا من حلّها بعقل وروية، يستسهل الكثيرون قطع العلاقات والاختفاء خلف حاجز توجيه الاتهامات دون أدنى محاولة للفهم.

«هل حاولت التواصل مع أخيك وشرح موقفك له؟» سألتها جمانة.

أجابت سارة متهكمةً أنّ أخاها اتّهمَها وحكمَ عليها دون أن يسمع منها أيّ تبرير، بل إنه لم يكلف نفسه عناء الاتصال بها، أو إرسال رسالة يستوضح فيها الأمر.

– وماذا ستفعلين الآن؟

«لا شيء، سأحاول ممارسة حياتي الطبيعية التي لم يعبأ بها زوجي أو أخي. كلاهما قام بتهميشي» قالتها سارة بحسرة واضحة.

حارت جمانة كيف تردّ عليها. النصيحة التي نلقيها دون اكتراث لما عايشه الشخص في أزمته، وما بذله من سلامه النفسي حتى يتجاوز الخسائر وينجو بنفسه، لا قيمة لها لِمَن قرّر النجاة، النجاة فقط.

تعرف أنّ سارة تعيش عدة صراعات في حياتها. ليس أولها مشكلتها مع زوجها وأخيها، وليس آخرها ما ورثته من معتقدات عائلتها. تلك العائلة التي تعود في جذورها العميقة إلى أصول غير عربية. تُنصِت إليها كلّما دار الحديث بينهما، تاركة لها مساحة كي تُخرِج ما بداخلها من تمرد على كثير من التناقضات التي تواجهها في علاقتها المضطربة بزوجها، وعلاقتها المبتورة مع شقيقها الوحيد. وتعرف أيضًا أنها تنتقد كثيرًا من المغالطات التي تراها حولها، وتُصِرّ على ألّا تغرس أيًّا منها في نفوس أبنائها.

تذكر أنها قالت لها ذات مرة:

– نحن وأنتم نختلف حول أشخاص كلّهم عند الله في الجنة.

وكم مرة دار بينهما نقاش حول التدين الزائف الذي ينأى بالإنسان عن الجوهر الحقيقي للدين، ويبتعد به عن الاشتغال بمعرفة الله والطمأنينة به إلى طقوس وعبادات أقرب ما تكون إلى العادات التي توارثتها الأجيال منها إلى روح الإيمان الحقيقي الذي يغرس فينا حبّ الله قبل كلّ شيء.

هذه النقاشات الطويلة هي التي جعلت سارة تتعلّق بها، وتتمسك بصداقتها، لأنّها كانت تشعر أنّ لدى جمانة وعيًا يملأ فراغ نفسها، وعقلانية في الحكم على الأشياء.

لم تكن جمانة بالنسبة لها مجرد صديقة من جنسية أخرى، جمعتهما الصّدفة ذات مرة في أحد النوادي الرياضية. كانت كل منهما تقف على جهاز المشي، التعارف بينهما سريع جدًّا وأبسط من أيّ تعقيد تحتاجه معظم العلاقات في حياتنا المليئة بالمجاملات والمبالغات. الكتاب الذي كانت سارة تقرؤه وهي تحرك قدميها فوق الجهاز بانتظام لتقطع به الوقت قرّبَ المسافة بين بنت البلد والمغتربة التي لحقت بزوجها الصحفي المبتدئ.

لم يكن كتاب «قواعد العشق الأربعون» لمؤلفته التركية، هو الوحيد الذي قرأته جمانة. انبهرت سارة بالفتاة التي تمارس الرياضة على الجهاز القريب منها. استمعت لها وهي تتحدث عن الأدب التركي، ثمّ الأدب العربي. كانت سارة مولعة بالقراءة والكتب، لكنها كانت تفتقر إلى هذا

الإلمام الغزير بنواحٍ أدبية ولغوية كثيرة، جذبتها المتحدثة بثقافتها الواسعة، وشعرت أنّ جمانة كنز عليها أن تتمسك به.

لطالما شعرت بافتقادها وجود صديقة تشابهها، أو تسكن إليها نفسها، دون أن تتلوث أفكارها بصرعات الموضة واللهاث وراء عمليات التجميل، والتباهي باقتناء الماركات العالمية.

حبّ الأدب والقراءة، وتحسُّس لذة النقاش والحوار، وانتظار الموعد السنوي لمعرض الكتاب، كان هو ما جمع هاتين المختلفتين لتتوطد العلاقة بينهما.

منذ تعرفها إلى سارة أدركت جمانة أنّ الاختلاف لا يفسد العلاقات بل يصقُلها. لم تتفق الصديقتان في كثير من نقاط حواراتهما، تعرف كلّ واحدة منهما أنّ للأخرى قناعات مغايرة، لم تحاول أيٌّ منهما الدخول في دائرة الجدال الرمادية. «مستوى النضج في قبول الآخر يصنع فرقًا في علاقات البشر ببعضهم»، هذا ما تتذكره سارة دائمًا من كلام صديقتها والامتنان يملأ قلبها.

أنهت الصديقتان المكالمة التي تطرقت كالعادة إلى ذكرياتهما معًا، واستطاعت جمانة انتشال صديقتها من حالة البؤس التي كانت تشعر بها في بداية الحديث، وقالت لها بكثير من المحبة:

– تذكري دائمًا أنّ النضج هو الرفيق الخفي الذي طالما أنقذنا من مآزق الوقوع في – حفرة الرفض لكلّ ما هو مختلف.

- وأرجو أن ينقذني من مأزقي الجديد الذي وضعني فيه زوجي.

تمتمت سارة متنهدة.

***

استيقظت (ماريوبل) المدينة الأوكرانية الهادئة على وقع دوي هائل أعقبه صوت انفجارات قوي، ظنّ الجميع أنّ زلزالًا هزّ أركان مدينتهم، لكنّ أزيز طائرات السوخوي التي تقصف أنحاء متفرقة من جسد المدينة الجميلة جعلهم يستوعبون المفاجأة الصادمة التي هزّت وجدانهم كما هزّ القصف كلّ شيء على الأرض.

صفّارات الإنذار تعوي في الأرجاء مثل نذير الشؤم. لم يختبر سكان (ماريوبل) ذوي البشرة البيضاء والشعر الأشقر والعيون الملونة شيئًا كهذا من قبل، كانوا يسمعون عن الحروب في دول العالم الثالث، ويرون صور الدمار في دول لا يعرفونها إلّا من الأخبار التي تتناقلها وسائل الإعلام.

لم يدركوا في اللحظات الأولى أنّ هذه الأصوات المفزعة التي تخترق آذانهم، هي أصوات القذائف التي تقصف بها طائرات السوخوي أهدافها التي حددت لها القيادة.

تراكض سكان المدينة هنا وهناك، الهلع والخوف يسيطران على الوجوه، هرولوا إلى الملاجئ تاركين بيوتهم التي لا يوحي شكلها الجميل وتصاميمها الحديثة بهشاشة بنائها ورقة جدرانها. هوى بعضها كما تهوي حبة الكعك في فنجان ساخن من الشاي.

كان مع الراكضين ثلاثة رجال يعتمرون الخوذات الواقية، والسترات السوداء التي طبع على ظهرها باللغة الإنجليزية كلمة «press»، يحاولون الوصول إلى نقطة قريبة من الانفجارات. كانت السماعات التي يضعونها في آذانهم توجِّهُهم إلى مكان الانفجارات حسب ما تُبيِّنه الأقمار الصناعية، وفريق المتابعة في القناة الرئيسية يزودهم بإحداثيات الموقع أولًا بأول.

وقف يوسف أمام الكاميرا المنصوبة، خلفها كان المصور سُفيان ومعه مساعده الشابّ الآسيوي. حمل الكاميرا المتنقلة فوق كتفه، كانت مهمّته رصد المكان وتوسيع مدى الصورة. طلب منه يوسف أن يلتقط صور الدمار الذي خلّفه القصف. كان عملهم يعتمد على جمع أكبر عدد من الصور واللقطات التي توثق ما حدث. أشار المصور إلى يوسف بالاقتراب. ابتعد يوسف عن الكاميرا المنصوبة، وسار خلف المساعد، أشار المصور بيده إلى مجموعة من الأوكرانيين كانوا يحاولون إنقاذ امرأة مُسِنّة علقت قدمها تحت أنقاض أحد الأبنية، اصطادت كاميرته اللقطة.

حاول يوسف الاقتراب من مجموعة الرجال المتجمهرين، سمعوا صوت سيارة إسعاف قريبة. كان الرجال قد نجحوا في إزاحة الطوب والألواح الخشبية القريبة من المرأة، حتى تمكنوا من تحرير قدمها. رفعها المسعفون على النقالة، سيارة الإسعاف ممتلئة بآخرين معظمهم من كبار السن. نظر يوسف بسرعة إلى المصور، أشار له بيده، حرّك المصور

الكاميرا فظهر مَن بداخل السيارة على شاشتها. وتحركت السيارة مسرعة تبحث عن مصابين آخرين.

سمع يوسف أحد الرجال الأوكرانيين المتجمهرين يشتم الحرب والسياسة، وجّه يوسف الميكروفون نحو الرجل، سأله عن شعوره، أجاب الرجل إجابة مقتضبة:

– أصبحنا مثل سوريا، نحن الذين نتطلع إلى أوروبا.

تقدم شابّ آخر، ووقف مباشرة أمام الكاميرا وأخذ يصرخ وقد انتفخت أوداجه وعصف الغضب بملامحه:

– هل هذه (ماريوبل)؟ هل حقًّا نحن في أوكرانيا؟ لا بدّ أننا دخلنا الجحيم... ما الذي تفعله هذه الطائرات في سماء مدينتنا؟ هل ستفعل بنا ما فعلته في سوريا؟

غصّ يوسف وشعر بمرارة في جوفه، لاحَت في مخيّلته لِلَحظة صور بشعة ومؤلمة كافح كثيرًا من أجل أن تتخلى ذاكرته عنها. ولكنّها عادت الآن مع كلام هؤلاء المفجوعين بمدينتهم.

حاول يوسف أن يسأل المتجمهرين عن سبب القصف، لكنّهم تفرّقوا وهم يكيلون الشتائم لهذه الطائرات اللعينة التي شوّهت صباح الوادعة الجميلة (ماريوبل).

انتهى من بثّ التقرير. وضعوا الكاميرات وجهاز البثّ الصغير الذي يحملونه معهم في الحافلة الصغيرة التي يظهر على جانبيها اسم المحطة ووسم الصحافة.

كانت الحافلة تحتوي على أجهزة البث المتنقلة، وكاميرا إضافية، وبطارية مولِّدة للطاقة استعدادًا لأيّ طارئ، وجهاز حاسوب تظهر عليه مقاطع البثّ التي قاموا بإرسالها إلى القناة عبر القمر الصناعي.

قرّروا البقاء في المنطقة التي تعرضت للقصف. لم تكن الأمور واضحة، عليهم التحدث إلى بعض السكان الذين اختبؤوا في الملاجئ. هذا يعني أنّ عليهم التحرك وإنجاز الكثير من المقابلات قبل أن يحلّ المساء. توقّع يوسف فرض حظر التجول تحسُّبًا لاحتمال حدوث قصف مسائي.

للصحفيين حماية عالمية. غير أنّ هذه الميزة لم تنجح في الحفاظ على حياة البعض منهم في مرات كثيرة. الحرب لا بصر لها ولا بصيرة، تعمَى عن كلّ شيء، تفقد اتزانَها، تضرب بيدها اليسرى، واليسرى يد طرشاء لا تعرف التركيز أو التصويب، هؤلاء المتألمون الذين تعُجّ بهم بسيطتنا الكروية هم نتاج هذه اليد.

الأخلاق والإنسانية وقانون الرحمة أشياء هامشية، لا يُعنَى بها صُنَّاع الحروب والدمار. وبسبب عدم اكتراثهم لهذه الهامشيات، يواجه الأطفال

والنساء وكبار السن وكلّ مَن لا حول له ولا قوة، وقبل أيّ أحد، سطوةَ الموت والقهر والتشريد.

وصل يوسف وفريقه إلى الملجأ، حمل سُفيان الكاميرا على كتفه، بقي المصور الآخر في السيارة مع السائق تحسبًا لأيّ طارئ، وخوفًا على مقتنياتها من العبث.

مشى يوسف أمام المصور الذي كان يعرف أنّ عليه التقاط أكبر قدر من تفاصيل المكان، كان الملجأ مبنى مدرسيًّا، تم تحويله إلى ملجأ مؤقت خوفًا من تجدد القصف، لا أحد يستطيع تخمين ما ستجلبه الساعات والأيام القادمة، تقدّم يوسف ببطء، كان الممرّ الواسع مليئًا بأكياس «البطاطين» وكثير من صناديق مياه الشرب، تتراصّ بعضها فوق بعض.

دخل الصالة التي يبدو أنها صالة ألعاب رياضية، شاهد العديد من العائلات الأوكرانية، الجميع يرتدون ملابس ثقيلة، الجو شديد البرودة، وقف بعض الشباب والشابّات في مدخل الصالة، واضح أنهم ينتظرون أن تبدأ عملية توزيع الأغطية والماء، وغيرها من الأشياء التي يقوم الدفاع المدني بتوزيعها على المراكز التي حددتها الحكومة للاحتماء فيها.

اقترب يوسف من الشبّان، قال بلغة انجليزية إنّه يودّ توجيه بعض الأسئلة، نظر إليه الشبّان وأشاحوا بوجوههم نحو باب الصالة، أعاد كلامه باللغة الروسية، جاءه صوت امرأة من الخلف، التفت اليها، خمّن أنها في

العقد الخامس من عمرها، وجّه الميكروفون نحوها، وطلب منها أن تصف ما حدث:

تحدثت المرأة بلغة روسية تختلط ببعض الكلمات الأوكرانية التي لم يفهم معناها، ولكنه فهم المغزى العام لحديثها. ثمّ بدأت بالصراخ امام الكاميرا بلغة روسية خالصة هذه المرة:

- نحن أوروبيون، نحن لسنا من العالم الثالث، أوكرانيا ليست الشرق الأوسط، كيف يحدث لنا هذا؟ لا أحد يقول نحن أبرياء لا ذنب لنا. حدّث يوسف نفسه مستغربًا من اتفاق معظم من قابَلَهم على فكرة واحدة.

تكلم أحد الشبّان متجها بوجهه نحو عدسة الكاميرا، وقال إنّه استيقظ على صوت انفجارات قوية، جعلت الشقة التي يسكنها تهتز بشدة، أعقبها صوت صفارات الإنذار، ثمّ تبين لهم أن مدينتهم تعرضت للقصف، فقرر الخروج مع والدته المسنة إلى مركز الإيواء الحكومي خوفًا من حدوث قصف جديد.

استغل يوسف حديث الشابّ فاستفسر منه عن سبب عدم توجُّهِهم إلى الملاجئ الأصلية التي قامت الحكومة ببنائها وتجهيزها أسفل الميادين المختلفة في المدينة منذ زمن تحسبًا لأيّ طارئ.

أجاب الشابّ باقتضاب وضجر أنّ كبار السنّ والأطفال يشعرون بالخوف والانهيار عند النزول إلى الطبقات الأرضية للاختباء. وأردف:

- صالات المدارس مناسبة لعائلاتنا وذوينا، ما حدث شيء مؤقت ولا أظنّ أنّه سيتكرر.

أنهى الطاقم الصحفي جولته، وظهر للعالم أجمع ما التقطته عدستُهم من صور الدمار، والوجوه الغاضبة المستنكرة لهذا الغزو غير الحضاري.

تلقى يوسف رسالة من مسؤوله يطلب منه توخّي الحذر، وعدم البقاء في مساكنهم، والتوجه إلى الفندق المُخصَّص للصحفيين.

تذكر يوسف صديقه الجديد جلال صاحب المطعم، حاول أن يتصل به، ولكنّ شبكة الهاتف كانت ضعيفة جدًّا. انتظر إلى حين وصول فريقه إلى الفندق لتجهيز تقريرهم الثاني المسجل وإرساله. قرّر الذهاب إلى المطعم مشيًا على الأقدام، حاول سُفيان ثنيَه عن هذه الفكرة بتذكيره أن الوضع غير آمن، لكنّ يوسف أراد أن يطمئن على سلامة الرجل ومطعمه من القصف، لم يكن المطعم بعيدًا، ولكن مع هذا الوضع المضطرب، حتّى المسافات القصيرة تصبح غير آمنة.

وصل إلى المطعم وتنفّس الصعداء، كان المكان يخلو من آثار دمار، يبدو أنّ القصف لم يطله. دخل المطعم فوجد الشيف جلال واقفًا مع اثنين من موظفيه، يحاولون إنزال اللوحات المعلقة على الجدران خوفًا من وقوعها. بعضها كان قد سقط فعلًا على بعض الأواني الزجاجية، فتناثرت قطع الزجاج على الأرض. استفسر يوسف، فأجابه جلال أنّ

رتلًا من الدبابات مرّ من الشارع المحاذي للمطعم، مما أدّى الى اهتزاز بعض اللوحات وسقوطها.

قال وهو يضع كوبًا من الشاي الساخن أمام يوسف:

- اشربه بسرعة وعُد الى مسكنك، سوف نغلق المطعم، الوضع ليس مطمئنًا.

تساءل يوسف:

- تبدو الأبنية في المدينة هشّة جدًّا! لاحظت أنّ الدمار الذي خلفه القصف يحتوي على كثير من الألواح الخشبية.

ابتسم جلال ابتسامة جانبية دون أن يفتح شفتيه، ثمّ قال بلهجة الخبير:

- طبيعة البناء في (ماريوبل) تعتمد على الخشب أكثر من اعتمادها على الطوب والحجر. ليسوا مثل العرب، فالمنزل بالنسبة لهم سقف وجدران تقيهم البرد، أمّا الحرّ فهم لا يكترثون له كثيرًا.

ثمّ تابع بلهجة المُطَّلِع:

- تشرق الشمس على هذه البلاد شهورًا قليلة، شدة البرد والثلوج التي اعتادوا عليها في معظم شهور السنة، تجعلهم يرحبون بدفء الشمس وحرّها مهما اشتد.

شعر جلال أنّه خرج عن موضوع الأبنية فأردف متمِّمًا كلامه:

- في بلادنا يفني المرء عمره ليجمع مالًا يبتني به بيتًا ليورثه أبناءه، أمّا هنا فهم - يكترثون لمظهر البناء وشكله أكثر من التدقيق على

جودة بنائه، المنزل بالنسبة لهم فندق ينامون فيه بعد تعب أعمالهم اليومية.

علا رنين أحد الهواتف الملقاة فوق إحدى الطاولات، أسرع أحد العمال والتقط هاتفه وتوارى في الداخل. أخرج يوسف هاتفه، كانت الشبكة قد عادت للعمل بكفاءة. استأذن من صاحب المكان، وجلس إلى طاولة في زاوية بعيدة من زوايا المطعم عند الواجهة الزجاجية التي تكشف الشارع أمامه.

أجرى اتّصالًا وانتظر أن يجيب الطرف الآخر، لم يطل انتظاره حتى سمع صوتها، قالت بلهفة واندفاع:

- لماذا لا تجيب على هاتفك؟
- الشبكة ضعيفة بسبب الظروف الحالية.
- كيف حالك؟ هل هي الحرب أم مجرد مناوشات؟

تمهّل قبل أن يجيب، فهو يعرف أنّها تتابع الأخبار، وتعرف كثيرًا عما يدور في هذا العالم. ردّ على سؤالها: «لا أحد يعرف...».

«وأنت ما تحليلك للأحداث؟» تساءلت بنبرة عميقة وجدية. لطالما أعجبه هذا الجانب من شخصيتها، يحبّ كونَها مثقفة، يحبّ وعيَها وسعة اطّلاعها، يحبّ لغتها العالية الرصينة في الحوار، ولكنّه الآن يريد أن يغيّر الموضوع، فهو لا يريد أن يتكهّن بحدوث حرب طويلة الأمد، وربما تكون واسعة المدى أيضًا.

في أعماقه يتوسل الله أن تكون مناوشات عابرة. فقد جرّب العمل بين ركام الدمار والبراميل المتفجرة، وروائح الجثث النتنة، وكاد أن يتعرض هو وزملاء له إلى الاختناق بالغاز السامّ لولا العناية الإلهية التي أنقذتهم.

– كيف حال الأولاد؟ والشغّالة، هل تقوم بعملها؟

قال متعمدًا تغيير دفّة الحديث.

كان قلبها يدفعها دفعًا للحديث عن أحواله تحديدًا، فلم تستسلم لمحاولته تغيير الموضوع.

– هل تخشى اندلاع حرب جديدة؟ لقد ذهبتَ إلى هناك بدافع الراحة من عملك لسنوات في مناطق الصراعات، ولكنّ القدر فاجأك بحرب في مكان لم يكن أحد يظنّ أنّ أهله قد يرفعون السلاح بعضهم في وجوه بعض.

ضحك ضحكة خفيفة وهو يقول: «هل تشمتين بي لأنني خرجت من حفرة إلى حفرة؟».

– أريد أن تكون بخير يا حبيبي، وأن تعود إلينا سالمًا بأقرب وقت.

قالتها بصوت رقيق وخافت نمّ عمّا في داخلها من مشاعر.

ارتجف قلبه، وخُيِّل إليه أنه سيقفز من بين ضلوعه. منذ أن بدأ غضبها يسيطر على حواراتهما، لم يسمع هذه النبرة في صوتها وكأنّ هذه الكلمات كانت كل ما يحتاجه الآن. أراد أن يسألها: هل تحبينني؟ ولكنّه تراجع: «ليس لي الحقّ أن أسألها هذا السؤال بعد كلّ ما تعانيه بسببي». حدّث

نفسه. سمع صوتها يوصيه بالحذر والاعتناء بنفسه. أنهت المكالمة وانقطع الصوت.

ظل جالسًا ينظر عبر الجدار الزجاجي إلى الشارع الخالي من المارة. بعض السيارات فقط كانت تتحرك مسرعة.

سمع نغمة الرسائل في هاتفه، فتح البريد الوارد، كانت رسالة قصيرة منها فيها كلمة واحدة: «أحبك». ارتجف قلبه مجدّدًا، شعر بحرقة في عينيه، وبرغبة شديدة في احتضانها وتقبيلها. لأول مرة منذ سنوات يحسّ أنّ ثقلًا كبيرًا ينزاح عن فؤاده، كان قد استسلم منذ فترة لفكرة أنّها قد تكون كرهته بسبب انشغاله بعمله، وإجازاته المتباعدة، وتحملها مسؤولية الأولاد وحدها، واضطرارها للتخلي عن أحلامها وطموحاتها.

السبب الذي ينقبض له قلبه كلّما لاحت له ذكراه، انقطاع النبض في قلب طفلهما الأول الذي لم يرَ النور بعد عتمة مكوثه في رحمها سبعة أشهر. كلّما تذكر أنّه ربّما كان السبب في موت ذلك الطفل بسبب ما عانته في تلك الفترة من توتر وقلق شديدين، وخوف وهلع كلّما شاهدت أخبار القتل والموت الذي لا يُفرِّق بين صحفي أو غيره من الأبرياء.

في داخله يعرف تمامًا أنّه مقصر في واجباته نحو أسرته، لكنّها الضريبة التي يدفعها كلّ من شغفَته الصحافة ببريقها، والثمن الذي تسلبه من حياته روح المغامرة وسحر نظم الكلمات أمام عين الكاميرا.

تنحنح صاحب المطعم وهو يقترب منه، فقد فهم من تعبير وجهه أنّه كان في مكالمة مع امرأته، سأله مازحًا:

- يبدو أن المكالمة مهمة.

هزّ يوسف رأسه وضمّ سبّابته إلى إبهامه، ورفع يده وهو يقول مبتسمًا: مئة بالمئة. وانتصب واقفًا بحركة سريعة حتى لا يستسلم للضّعف الذي اعترى مشاعره.

ودَّعهم يوسف وخرج عائدًا إلى الفندق، أمسك بهاتفه وفتح الكاميرا وأخذ يسجل تفاصيل ما يراه من حوله في المكان. على بعد شارعين من المطعم كان مجموعة من الأشخاص يتصايحون ويتراكضون في المكان، بعضهم كان يحمل بطانية صغيرة، وشاب يرتدي رداء بلاستيكيًّا يستخدم للاحتماء من المطر، اقترب يوسف ووقف إلى جانب المتجمهرين، عرفوا أنّه صحفي من السترة التي ما زال يرتديها، أشار إليه بعض الرجال وهم يصرخون:

- ما ذنب هذه الطفلة؟ على العالم أن يعرف هذه الوحشية التي نتعرض لها.

تقدم يوسف ودسّ جسده بين الأجساد الكثيرة حتى وجد نفسه أمام حفرة كبيرة على جانب الشارع غارت إلى الأسفل وتهدمت جوانب الأسفلت من حولها، «يبدو أن قذيفة هوت في المكان»، حدَّث نفسه.

سمع صراخ امرأة انبطحت جانب الحفرة وهي تمدّ يدها إلى الأسفل، العديد من الأشخاص يمسكون بها محاولين أن يحموها من السقوط، اقترب أكثر ونظر نحو القاع، طفلة تبكي في قاع الحفرة التي قدر قطرها بعشرات الأمتار، كانت مليئة بالوحل والمياه العادمة، ما يعني أنّ القذيفة المرتطمة بجانب الشارع قد سببت انفجار أحد أنابيب الصرف الصحي، كانت المياه تتدفق حول الطفلة الباكية والرائحة تزكم الأنوف.

تقدّم الشابّ الذي يرتدي الغطاء البلاستيكي نحو الحافة بجسمه النحيل، وحول جسده التف حبل غليظ ربطوا طرفه بجذع شجرة لوز احترقت أغصانها، وأمسك مجموعة من الرجال بالحبل من وسطه وأخذ الشابّ ينزل ببطء داخل الحفرة. عدل يوسف وضعية الكاميرا في هاتفه مرارًا حتى تواكب عملية إنقاذ الطفلة التي خفت صوتها قليلًا وتحشرج من البكاء.

تذكّر يوسف تاليا عندما بكت. ارتعش قلبه، واهتزّت يده قليلًا، لكنّه عاد ليمسك هاتفه بثبات. علَت أصوات التصفيق فجأة، تمكن الشابّ من الوصول إليها، فك الحبل حول جسمه ولفّه حول جسدها الغضّ. بعد دقيقتين وصلت الطفلة إلى الحافة، تلقفها الرجال الواقفون. غمرتها والدتها في حضنها وقد انفطرت من البكاء والعويل.

مضت خمس دقائق قبل أن يسحب الرجال الشابّ المنقذ بعد أن ارتفعت المياه النتنة لتملأ أكثر من النصف.

وعدهم يوسف أن يقوم بواجبه المهني بتضمين مأساة الطفلة في تقريره الإخباري القادم.

***

بهو الفندق يضج بالمراسلين من قنوات عالمية مختلفة. سُفيان يتحدث مع فتاة يبدو أنّها مراسلة لإحدى القنوات، أصوات المراسلين صاخبة، زادها صخبًا تعدد اللغات التي كانوا يتحدثون بها، القنوات والمحطات الإعلامية جميعها مهتمة بتغطية ما حدث.

قرّر التوجه إلى غرفته لأخذ قسط من الراحة، ومراجعة المعومات التي حصل عليها، وتسجيل البيانات، وفرز الصور على جهاز الحاسوب الخاصّ به.

كان يتوق أيضًا إلى الجلوس مع نفسه، والنظر مرة أخرى إلى الكلمة الوحيدة في رسالتها، الكلمة التي أعادت إليه مشاعر كان يخشى دائمًا أنّه خسرها إلى الأبد. رسالتها ذات الكلمة اليتيمة ومنظر الطفلة في لحفرة أرهقا مشاعره. مدّد جسده على السرير بعد أن فرغ من عمله، صورة تاليا تداخلت في ذهنه مع صورة طفلة الحفرة، وبقيت الصورتان تتأرجحان في مخيلته. ومن بين الصورتين أطل وجه جمانة، تملكته رغبة جامحة في الحديث إليها، حاول أن يدفعها بإشغال نفسه بتفقد بريده المليء برسائل العمل. فجأة أغلق جهاز الحاسوب وأزاحه جانبًا، أمسك الهاتف ,ضغط

على رقمها، أغمض عينيه واتكأ بجسده على الظهر الإسفنجي للسرير، سمع صوت الرنين، جاء صوتها متسائلا وقد أثقله النعاس:

- يوسف؟

اهتزّ قلبه من جديد لسماع اسمه بهذا الصوت الذابل. بقي صامتًا كأنّه يستحثّها أن تنادي اسمه مرة أخرى، لكنّ صمته جعلها تتساءل بقلق هذه المرة خشية أن يكون حدث له مكروه.

حاول أن يستعيد سكينته كي لا يشيَ صوته بما يثير خوفها، ولكن هزمته مشاعره التي كانت في أوج هشاشتها. عاد صوتها من جديد يستنطق صمته، فانسابت الكلمات من فمه:

«أريد أن أسمع صوتك فقط» اشتقت إليك جمانة.

لم تتكلم. صمتت. سمع صوت نشيج خافت. ثمّ لم تلبث أن قالت ضاحكة بصوتها المرتجف:

- لا بد أنك تهذي، تتصل بي الآن حتى تقول هذا الكلام!

- نعم لا بدّ أنني أهذي، ولا بدّ أنّ كلّ ما يدور حولنا هذيان.

قالت برقة أذابت قلبه: «هل تخشى أنني أكرهك؟».

صدمها ردّه:

- نعم.

من بين دموعها ونشيجها هتفت قائلة:

- لا يمكنني أن أكرهك. لا أستطيع أن أكرهك. ألم تعرف بَعد أنّ بُعدَك يقتلني.

كانت هذه الجملة كافية لتطبطب على نفسه المتعبة، وكأنّها هدهدة أمّ لصغيرها كي ينام.

أنهى مكالمته قائلًا:

- انتظريني سوف أعود.

***

مضى اليوم التالي هادئًا، لم يتجدد القصف على (ماريوبل)، ولكنّ الأخبار المحزنة جاءت من مدينة (كييف) العاصمة، فقد ضجت جميع وسائل الإعلام بخبر قصف طائرة الشحن الأوكرانية وتدميرها تمامًا، تلك الطائرة التي تُعَدّ أكبر طائرة للشحن في العالم. تناقلت القنوات خبر تفجير الطائرة بفعل القصف على مطار (كييف). كان قصف المطار كفيلًا للتشاؤم بمستقبل ما يحدث. الدولة التي لا تعتزم خوض حرب طويلة لا تقصف المطار، ولا تُدَمِّر البنى التحتية.

بقي يوسف طوال اليوم في غرفته يشاهد التلفاز، أنجز تقريرين مسجلين وأرسلهما إلى قسم المونتاج في القناة الرئيسية، أحدهما تضمّن حادثة الطفلة التي عَلِقَت في الحفرة. استمع إلى تقرير زميله في (كييف) ثمّ أجرى اتصالًا به وسأله عن الأوضاع هناك. قال له إيلان إنّ الوضع متأزم، وإنّ صور الدمار تنتشر في المدينة، والهلع والخوف يسيطران على سكانها، الكثيرون بدؤوا يبحثون عن طريقة للهروب.

ظلّ المساء هادئًا لم يعكر صفوه صوت انفجار أو قصف. تفاءل سكان (ماريوبل). ربما كان قصف المدينة غير مقصود، أو ربما لتشتيت انتباه القوات الاوكرانية عن العاصمة (كييف)، هكذا كان الرجال المتجمعون في بهو الفندق يتسامرون، كان معظمهم من الذين يعملون في مجال الإعلام، لذلك رأوا أنّ خير مكان يحتمون به هو الفندق المخصص للصحافة.

***

على وقع التفاؤل الذي لم يدم والهدوء المغشوش، استيقظ يوسف في الصباح، كان صوت الطائرات التي تحوم حول الفندق يثير الرعب. قفز من فراشه، اغتسل بسرعة وارتدى ملابسه وسترته الواقية من الرصاص. تناول عبوة كبيرة من الماء ووضعها في حقيبته، غلّف بعض الفطائر التي كان جلال قد زوّده بها بالأمس بورق النايلون، وخبأها في زاوية الحقيبة. وضع الحقيبة على كتفه وأمسك خوذته، وهرع إلى بهو الفندق حيث كان المكان يعُجّ بالصحفيين الذين أجبرهم صوت الطائرات على الخروج من غرفهم في هذه الساعة الباكرة. قرّر الخروج إلى الشارع لرصد ما يحدث، أجرى اتصالًا مع المصور سُفيان وطلب منه اللحاق به، لم تمضِ عشر دقائق على تجوله في الشارع المحيط بالفندق حتى سمع دوي انفجارات متتالية.

«يبدو أنّ القصف عاد مجدّدًا» قال لنفسه وهو يتصفح بريده الإلكتروني عبر شاشة الهاتف، وجد طلبًا من رؤسائه برصد أخبار المدينة أوّلًا بأول، إذ سيكون البث مباشرًا طوال اليوم.

فكّر سريعًا، عليه أن يحدد مكانًا ينصب فيه الكاميرا، وصل سُفيان وتبعه مساعده الشابّ، ركبوا سيارة البث المتنقلة، وتوجهوا نحو شارع (جورج فسكايا) الذي يُعَدّ من مناطق الجذب الرئيسية، لوجود عدد من المتاحف فيه.

علم سُفيان أنّ القصف قريب من هذا المكان، لذا سيكون بإمكانهم نقل صورة حية من هناك.

عندما وصلوا راعهم حجم الدمار الذي شاهدوه على جنبات لطريق. عدد كبير من المباني انهار تمامًا وتحول إلى ركام. بعض الأجساد ملقاة على أطراف تلك الانهيارات، بعضها سكنت حركته تمامًا، والآخر يئن تحت وقع آلامه منتظرًا من ينقذه.

تناثرت من إحدى المباني طاولات ومقاعد خشبية ملونة، تكسرت أجزاؤها وعلق بأطراف الخشب دمى بقرت بطونها وتناثرت حشواتها على الأرض، وكثير من الألعاب البلاستكية التي احترقت أجزاؤها. خمّن يوسف أن المبنى يضم روضة أو حضانة للأطفال.

قال سُفيان بصوت متهدج:

- لا أصدق أنّ هذا يحدث في هذه البلاد.

بقي يوسف صامتا، ولكنّه أطلق زفيرًا طويلًا. شعر أنّ أسوأ ما يحدث له الآن هو شعوره بأنّه أَلِفَ مشاهدة البيوت المتهدمة والمباني المدمرة والجثث المرمية على الأرض. عقله لا يستهجن، فقد خزّن الكثير منها.

أحد الأسباب التي جعلته يقبل عرض القناة بتسلم مهام مكتبها في هذا الجزء من العالم، أنّه أراد الهرب من ذكريات صور الجثث والدمار، وصوت القصف الذي يخترق السمع، ويهوي بالقلب إلى مكان سحيق.

تأبى الحرب إلّا أن تتبعه إلى بلاد لم يكن يتخيل يومًا أنه سيرى فيها ما يراه الآن.

***

على وقع اهتزاز مخيف في سكن الطلاب الجامعي، استيقظت رشا في ذلك الصباح، قفزت من سريرها، فركت عينيها، ظنّت أنها كانت تحلم. ولكنّ الاهتزاز يتوقف قليلًا ثمّ يعود.

«أهو زلزال؟»، تساءلت بينها وبين نفسها.

سمعت صوت هاتفها، أمسكت به وقالت باندفاع بلهجتها العربية:

– هل هناك زلزال؟

لم يتركها المتصل تكمل تساؤلاتها، وصرخ بها:

– انزلي إلى القبو بسرعة، المدينة تتعرض للقصف، انزلي حالًا!

لم يمهلها المتحدث لتظهر له اندهاشها، فقد أغلق الهاتف.

ارتدت معطفًا ثقيلًا فوق ملابس النوم، وخرجت إلى الممرّ الذي تصطفّ الغرف على جانبيه. شاهدت معظم أبوابها مفتوحة، ما يعني أنّ ساكنيها قد غادروها. أسرعت إلى السلّم الموجود في آخر الممر، كان عدد كبير من زملائها الطلاب يقفزون فوق درجاته نزولًا إلى الطابق الأرضي. يبدو أنّهم جميعًا تلقَّوا الرسالة ذاتها التي وصلتها من مُعاذ.

قبل أن يصلوا إلى الدرجة الأخيرة من السلّم، سمعوا صوت انفجار هائل هزّ أركان المبنى مرة أخرى، ثمّ تبعه صوت ارتطام قوي.

في بهو السكن الجامعي، كانت مجموعات الطلبة من مختلف الجنسيات العربية وبعض الجنسيات الآسيوية يتراكضون نحو مدخل السرداب الأرضي التابع للسكن، ركضت رشا معهم، شاهدت مُعاذ يقف بالقرب من مدخل السرداب وهو يشير بيديه للجميع بسرعة الدخول، صرخت بصوت عالٍ حتى يتمكن من سماعها وسط صوت الأقدام المتراكضة، وأصوات أخرى كثيرة مصدرها الشارع، تبينت منها أصوات سيارات الشرطة والإسعاف.

- ما الذي يحدث؟

أجابها صارخًا وهو يجمع كفّيه حول فمه حتى يصلَها صوته:

- تتعرض (كييف) للقصف الآن.

قال هذه الجملة ثمّ أشار إليها أن تدخل القبو.

كانت هذه أول مرة تختبئ فيها داخل قبو تحتمي بجدرانه من نيران القصف، شاهدت زملاءها الدارسين في كلية الطب، وآثار النوم في عيونهم، معظمهم نزل بملابس النوم كما فعلت، شاهدت صديقتها نوران الجزائرية تُسنِد ظهرها إلى أحد الأعمدة الإسمنتية، وتكمل ارتداء جواربها الصوفية. حثّت خطاها نحوها ولوّحت بيدها، انتبهت نوران إلى وجود رشا، فعدلت من وقفتها وأمسكت بيد صديقتها وسألتها في لهفة:

- هل أنت بخير؟ لماذا تأخرت في الخروج من غرفتك؟

أخبرتها رشا أنّها كانت تغط في النوم بعد أن تناولت بالأمس دواء للحساسية يسبب النعاس. وأنّها لم تستيقظ إلّا على وقع الاهتزاز العنيف في الغرفة. وأبدت استغرابها من تلقيها اتصالًا من مُعاذ، وكيفية حصوله على رقمها الخاص!

انضمت إليهما منار ذات البشرة السمراء والشعر الأسود المجعَّد الذي يتكئ على كتفين عريضتين، وقالت بصوت مرتجف وهي تعدل نظارتها الطبية بلهجتها السودانية:

- شيء مخيف، ما هذا الذي يحدث؟ أرجوكم أخبروني أنّها ليست حربًا حقيقية.

لم تكن الفتاتان بحال أحسن من حالها، فلم تستطع أيٌّ منهما أن تردّ عليها بما يُطمئِنها أو يُهدِّئ من روعها. كان منظر الهلع والصدمة على

وجوه الطلاب الذين دخلوا القبو كفيلًا بزيادة حالة الخوف والرعب التي تملّكت رشا وصديقتيها.

فجأة ارتفع صوت عبر مكبِّر للصوت، لتفت الجميع نحو مصدر الصوت. كان مُعاذ قد صعد فوق أحد المقاعد، وبيده مكبِّر صوت جلبه من غرفة السكرتاريا. كانت الأجساد كلّها تتجه نحو المتحدث وقد سكتوا عن الكلام.

الجميع في القبو يعرفون مُعاذ، هذا الشبّ الذي تعود أصوله إلى مدينة القدس، أنهى دراسة الطب في (جامعة كييف)، وتخرّج في العام الماضي، ولكنّه فضّل أن يواصل الاختصاص في الجامعة نفسها، فظروفه لا تمنحه ترف التفكير في خيارات أخرى. انضمّ الى الأطباء المقيمين في المستشفى التعليمي التابع للجامعة، وبقي يسكن في ذات الغرفة في سكن الطلاب، رغم أن ذلك يخالف قوانين الجامعة، إلّا أّن حسن سلوكه وسيرته الطيبة بين زملائه وأساتذته، وأبحاثه الكثيرة التي نُشِرت في مجلات علمية مُحَكَّمة، جعلت رئاسة الجامعة تسمح له باستخدام سكن الطلاب، على اعتبار أنّه ما زال يدرس للحصرل على الإقامة الطبية.

قال مُعاذ بصوته الرجولي إنّ المدينة تتعرض لقصف متواصل من الطيران الروسي، والوضع كما يبدو خطير، وخاصّةً مع أخبار الدمار الذي وقع في (ماريوبل) ومشاهده التي رآها اجميع عبر شاشات التلفاز.

وأخبرهم أنهم سيُضطَرون إلى البقاء في القبو إلى أن يتوقف صوت القصف، فالخروج إلى الغرف أو إلى الشارع فيه مجازفة كبيرة.

«لا شيء يضمن عدم تعرُّض السكن الجامعي أو المنطقة المحيطة به إلى القصف» قال محذِّرًا ثمّ أخبرهم أنّه سيتم تشكيل لجنة من المتطوعين لنقل بعض الطعام والمقاعد إلى داخل القبو، وأنهم سيتناوبون الجلوس على المقاعد، فلن يتمكنوا من جلب عدد يكفي لجميع الموجودين.

وأنهى حديثه الموجز بأنّه يرجو أن تنتهي الأمور على خير، وألّا يطول وقت القصف. وطلب منهم أن يتمالكوا أعصابهم رغم شدة الموقف.

جلست رشا على المقعد الذي تناولته من أحد الشباب، أجالت بصرها في المكان من حولها. القبو في المدينة الجامعية عبارة عن منطقة خدمات، تجمعت فيه العديد من الأنابيب التي تغذي المبنى بالتدفئة والغاز، إلى جانب أنابيب الصرف الصحي الضخمة. وفي إحدى الزوايا اصطفّت مولدات ضخمة للكهرباء تُستخدَم في حالات الطوارئ. رائحة الرطوبة تطغى على المكان، فتزيد من كآبته ووحشته. أسندت رأسَها إلى ظهر الكرسي وهي تغمض عينيها، ورغمًا عنها انسابت دموعها على وجنتيها وهي تفكّر فيما حدث، عقلها لا يحتمل أنّها تعيش حربًا حقيقية، أزيز الطائرات الذي كانت تسمع عنه في نشرات الأخبار يصدح في أذنيها.

شعرت بالغثيان وأحسّت بطنين في أذنيها، وصار صوت الضجيج من حولها يتباعد شيئًا فشيئًا، أدركت أنّها تتعرض لنوبة هبوط في الضغط، وأنّها تكاد تفقد وعيها.

حرّكت رأسها بتثاقل يَمنة ويَسرة، وأمسكت بذراع نوران التي كانت تقف بجانبها مستندة إلى حافة المقعد. انتبهت نوران فوجدت وجهَها شاحبًا وعينيها غائرتين، أسرعت بفتح زجاجة الماء التي في يدها، ووضعت القليل في كفّها، ورشقته على وجه رشا. ثمّ أخذت تصفعها بلطف على خدّيها حتى تمنعَها من الغياب عن الوعي.

صرخت نوران بأعلى صوتها تطلب أن يعطيَها أحدٌ زجاجةَ عطر أو أي مادة كحولية. سارع أحد الطلاب وأخرج علبة معقِّم صغيرة من جيبه، فتحت نوران العلبة ومرّرَتها بالقرب من أنف صديقتها. فتحت رشا عينيها، وناولتها نوران زجاجة الماء، فتجرعت منها عدة رشفات. حضر مُعاذ فجأةً ووضع كوبًا مليئًا بالماء الدافئ والعسل بين يديها، وطلب من نوران أن تساعدها في تجرّعه.

بدأت الدماء تعود إلى وجهها الشاحب، قالت نوران وهي تحاول رسم بسمة على وجهها في محاولة للتخفيف عنها:

- واش صار لك باش تغيبين عن الوعي دكتورة؟

تعمدت قولها بلهجة جزائرية لعلّ رشا تضحك كعادتها وهي تقول: «أحب الجزائر ولكن بزاف لا أفهم اللهجة الجزائرية».

هذه المرة كان الموقف أقوى من ضحكة رشا.

بقيت رشا صامتة لبرهة ثمّ قالت:

- متى سينتهي هذا الكابوس؟

ثمّ دخلت في نوبة بكاء.

لم تحاول نوران أن تمنعها، كان قلبها أيضًا يُعتصَر من الخوف والهلع، ربتت على ظهر صديقتها وأشاحت بنظرها إلى الجهة اليمنى. كانت منار تقف واجمةً وهي تنظر إلى رشا وقد كتّفت يديها إلى صدرها، وكأنّها تحاول أن تمسك انفعالاتِها وتحسّرَها في قلبها خوفًا من الانهيار.

هدأت أصوات الطلاب في القبو، ولم يعد يُسمَع إلّا صوت همهمة هنا وهناك، بدا وكأن الجميع يفكرون التفكير نفسه، والكل يرتسم على وجهه السؤال ذاته:

- متى سينتهي هذا الوضع؟

فجأة علا صوت المُكبِّر مرة أخرى، وسمع الجميع الطبيب المقيم مُعاذ يعلن أنّ لجنة الزملاء المتطوعين جلبت بعض الطعام وزجاجات المياه والعصير من كافتيريا السكن. تناولت نوران علبة عصير وقطعة من الفطائر وقدّمتها لرشا، ثمّ بدأت هي تقضم حبة تفاح على عجل ودون شهية.

فجأة دخل أحد أعضاء اللجنة وهو يحمل شاشة تلفاز جلبها من الممرّ القريب من القبو، وتبعه آخر يحمل عدة أسلاك ووصلة كهرباء، بحثوا عن نقطة الكهرباء الخاصّة بأجهزة التلفاز، ولحسن الحظّ وجدوا واحدة في الجدار القريب من المدخل، بدأ الشباب تركيبَ الأسلاك ووصلَها بشاشة

التلفاز، وبعد نصف ساعة تمكّنوا من تشغيل الجهاز، ثمّ حاولوا تثبيته فوق الجدار على بروز أفقي يشبه الرفّ الصغير. حدّثت رشا نفسَها وهي تراقب ما يفعله زملاؤها:

- ترى هل دار في خلد من صمّم القبو وجعل فيه هذا الرف الصغير، أنّه سيأتي يوم -ويكون له فائدة كبيرة؟

تسمّر الجميع حول الشاشة وهدأت الأصوات تمامًا حتى الهمهمات. كانت الشاشة تعرض الأخبار على القناة الروسية. قال مُعاذ وهو يمسك بجهاز التحكم:

- الإعلام المحلي موارب، ولن ينقل الحقيقة، علينا أن نعرف ما يحدث من مصدر محايد لنقرر ما علينا فعله.

الجميع يثق بمُعاذ فهو شخصية عقلانية، يعرفه الكثير كشابّ محافظ وخلوق، يضع مستقبله المهني والعلمي هدفًا واضحًا أمام عينيه، لذلك لم يشهد كثيرًا من جلسات المرح والتسلية التي كان بعض الشباب والشابّات يقيمونها بين فترة وفترة. في مثل هذه المواقف يبحث الناس عمّن يثقون في عقله وقوة شخصيته ونظرته الثاقبة للأمور، لذلك كانت قيادة مُعاذ للموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه في هذه الأزمة تلقى القبول والرضى.

القناة الروسية تتحدث عن الدمار الذي لحق (ماريوبل)، وتعرض صورًا لما تسمّيه إنجازات القوات على الأرض. تصدّرت صور طائرة النقل الجوّي الأوكرانية التي تعرضت للقصف والتدمير الكامل الأخبار،

تبجّح المذيع بتسمية ما حلّ بالناقلة الجوية الأضخم في العالم، بنصر مُؤزَّر لقوات بلاده.

هكذا تفرض الحرب أخلاقها، فتجعل الدمار نصرًا، والقصفَ المروِّعَ بطولةً، وحشرَ الناس في السراديب والأقبية والملاجئ إنجازاتٍ عظيمةً. الحرب لا تحابي أحدًا، تسير كالنار المستعِرة في الهشيم، تحصد كلّ ما يعترض طريقها، ولربما طال الأبرياءَ لهيبُها، وأحرقت أجسادَ الضعفاء سياطُها، وكم من حرب نالت نيرانُها من المحبين والأصدقاء وأوهمونا أنّها نيران صديقة!

***

لم يكد يوسف وفريقه يفرَغون من تسجيل تقريرهم المصور عن الحال التي آلت إليها (ماريوبل) في اليوم الخامس من القصف، حتى سمع رنين هاتفه، كان في حالة من التّعب والإرهاق الشديدين. تمنى ألّا يكون المتصل زوجته كي لا تحاصره بالأسئلة.

أمسك الهاتف وشاهد الاسم الظاهر على الشاشة، قطّب حاجبيه قليلًا وزمّ شفتيه مستغربًا ثمّ فتح الخطّ وتحدث إلى المتصل:

- أهلا أستاذي الفاضل.

جاءه صوت في نبرته قلق وتوتر واضحين: «أعتذر عن الاتصال في هذه الظروف، ولكنني لا أعرف غيرك يمكنه أن يساعدني».

صمت يوسف ليسمح له بالحديث:

«ابنتي تدرس في جامعة (كييف)، ومنذ البارحة وأنا أحاول الاتصال بها، ولكنّ هاتفَها لا يجيب» تحشرج صوته قليلًا ثمّ تمالك نفسه، وأكمل: «حتى زملاؤها في الكلية لا يجيبون على هواتفهم».

حاول يوسف أن يُهدّئ من روعه، فذكر له أنّ من المحتمل أن تكون الاتصالات الدولية مُعطَّلة في (كييف).

تابع الدكتور فارس الكلام بنبرة تدل على قلق الأب:

- رأيتك تغطي الأحداث على شاشة الأخبار، فعرفت أنّك في أوكرانيا.

فهم يوسف ما يريده الأستاذ فارس وقال على الفور:

- أرسل لي اسمها ورقم هاتفها، وسوف أحاول التقصي عن أخبارها.

شكره بشدة، ووعده يوسف بدوره أن يفعل جهده لطمأنته على ابنته.

أغلق الهاتف ورمى بجسده على الأريكة في بهو الفندق.

مثله فعل الكثير من الصحفيين الذين اتخذوا من هذا المكان مقرًّا لهم، ولأجهزة البث الخاصّة بهم. أغمض عينيه وتذكر الدكتور فارس أستاذ الأدب وعلم اللسانيات، ورئيس جمعية «اليد البيضاء» الخيرية.

تعرف إليه أثناء دراسته الجامعية، كان مغرمًا بحضور جميع ندواته، ومعجبًا بالعمل الخيري الذي تقوم به جمعيته، مولعًا بالنقاشات التي كان يخوضها معه فتثري عقله وفكره، وظلّ على تواصل معه حتى بعد أن

التحق بعمله الصحفي في إحدى الصحف المحلية. يستشيره في كثير من الأمور التي تعترض طريقه في كتابة مقالاته.

تساءل يوسف بينه وبين نفسه: «من هي ابنته التي تدرس في (كييف)؟».

يعرف عائلة الدكتور فارس جيدًا، ولطالما تناول الطعام في بيته، وأمضى الساعات برفقته في غرفة مكتبه التي تمتلئ بأرفف الكتب والمراجع.

هل هي رزان؟ لا أظنّ، فهي لا بد أن تكون قد أنهت دراستها منذ سنين، أم رشا؟ تلك الفتاة الصغيرة ذات العينين الواسعتين، والأنف الدقيق، التي كانت تبتسم حتى تلمع عيناها كلّما شاهدته جالسًا مع والدها في صالة المنزل. ثمّ تأتي لتُسَلّم في خجل لا يخفي فرحها، كان والدها يضحك قائلًا:

- رشا مولعة بالصحافة والإعلام، ولكنها ستصبح طبيبة.

اهتز الهاتف في يده، وصلته رسالة من الدكتور فارس فيها اسم ابنته ورقم هاتفها، ومكان إقامتها في (كييف)، ورقم آخر لإحدى زميلاتها اللاتي يدرسنَ معها في الجامعة.

جال يوسف بعينيه باحثًا عن سُفيان، وقع بصره عليه، كان يتبادل الحديث مع أحد الصحفيين. أشار إليه فجاء سُفيان، وجلس على الأريكة ذاتها التي يجلس عليها يوسف، أخبره بقصة الفتاة التي يريد والدها أن يعرف أخبارها.

قال سُفيان:

- أعتقد أن الاتصالات وخطوط الانترنت مقطوعة في (كييف).

ثمّ أمسك هاتفه، وأجرى اتّصالًا، لكنّ صوت الصافرة المتقطع كان واضحًا. قال سُفيان:

-كما سمعت الخط مفصول، يبدو أن الجميع قد دخلوا الملاجئ والسراديب حيث لا - تعمل شبكات الهواتف بكفاءة.

أسند يوسف رأسه مرة أخرى إلى ظهر الأريكة وسرح مع أفكاره.

لا بدّ أنّها رشا ذات العيون اللامعة، ولكنّها كانت صغيرة. كيف أصبحت طالبة طب في الجامعة بهذه السرعة؟... أية سرعة!

تساءل وهو يتململ في مقعده بعد أن تذكر أنّ ذلك كان منذ عدة سنوات.

أمضى الصحفيون ليلتهم في بهو الفندق ما عدا عددًا قليلًا تسللوا إلى غرفهم، طلبًا لبضع ساعات من النوم.

آثر يوسف أن يكون مع المتسلّلين، فدخل الجناح، وسمع صوت شخير خافت من غرفة زميله سُفيان الذي سبقه إلى السرير، وغطّ في نوم عميق. دخل غرفته وأغلق الباب ثم تذكّر شيئًا، فخرج إلى الصالة الصغيرة التي تفصل بين الغرفتين، وجد سُفيان قد قام بوصل الأجهزة بالكهرباء، كان هذا من المهمات التي يجب إنجازها قبل التفكير بالراحة والنوم، والحرص هو من أهم الصفات التي تعجبه في سُفيان، فهو يعلم أهمية إبقاء أدوات العمل في جاهزية تامة.

ألقى رأسه إلى الخلف حتى وصلت الوسادة وبقي ممسكًا بهاتفه، واستسلم سريعًا إلى ذبول عينيه اللتين أطبقتا جفنيهما، كأنهما تحاصران النعاس حتى لا يهرب أو يغدر بالجسد المتعب داعيًا الله ألّا يفكر قادة الحرب بمفاجأة المدينة بقصف ليلي.

أيقظه صوت سُفيان في الصالة، فتح عينيه بصعوبة، نظر في الساعة المثبتة على الجدار، ما زال الوقت باكرًا جدًّا، عرف أنّه نام ثلاث ساعات أو أكثر بقليل، جسده المتعب يريد أن يواصل النوم، ولكنّ عقلَه حفَّزه على النهوض. خرج إلى الصالة وهو يفرك عينيه ليطرد ما فيهما من نعاس، كان سُفيان يقف مسندًا كفّه إلى ظهر أحد المقعدين الجلديين الموجودين في الصالة الصغيرة وقد أمسك هاتفه وبدا على وجهه الاهتمام وهو يستمع إلى المتحدث على الطرف الآخر.

همّ يوسف بسؤاله لكنّه تراجع وانتظر حتى ينهي مكالمته. وضع سُفيان هاتفه على الطاولة الدائرية أمام المقعد، التفت إلى يوسف وقال:

هاتفَني شابّ تعرفت عليه قبل سنوات يعمل في كافتيريا المستشفى في (جامعة كييف) الطبية، كنتُ قد أرسلتُ إليه رسالة بالأمس، ويبدو أنّه استلمها قبل قليل بسبب تردي حالة شبكات الاتصالات هناك.

أنصتَ يوسف إلى المقدمة التي قالها سُفيان، أراد أن يستعجله للدخول في الموضوع مباشرة، يعرف أنّه يتكلم بخصوص محاولة الوصول إلى أخبار عن رشا كما طلب منه بالأمس، لكنّ لسانه كان متثاقلًا مثل جسده، ففضّل الصمت والانتظار حتى يُخرِج سُفيان ما في جعبته.

جلس يوسف على المقعد القريب، تحرك سُفيان باتجاه المطبخ الصغير في زاوية الصالة، وعاد بسرعة يحمل كوبين من القهوة السريعة ذات الرائحة القوية، وعبوتين من الماء وضعهما تحت إبطه، ناول يوسف كوبًا وأشار إليه بسحب إحدى القِنِّينتين. ثمّ جلس على المقعد الآخر، وقال وهو يرتشف رشفة طويلة من كوبه:

- حصلتُ على أخبار عن الفتاة التي حدثتني عنها أمس.

اعتدل يوسف في جلسته وبدت على وجهه علامات الاهتمام، وأشار له أن يكمل كلامه.

«عندما أخبرتني بالأمس عن موضوع الفتاة، أرسلت عدة رسائل عبر الهاتف لمجموعة من الأصدقاء والمعارف في مدينة (كييف)، وطلبتُ منهم أن يتحروا عن أوضاع الطلاب العرب، وذكرت لهم أنني أبحث عن فتاة تسمى رشا فارس تدرس في الجامعة الطبية كما أخبرتَني» رشف رشفة أخرى وتابع: «خلاصة الكلام: أحد الأصدقاء الذين يعملون في مطعم الجامعة تواصل معي هذا- الصباح، وقال إنّ رسالتي وصلته قبل قليل، في الحقيقة لم أكن أعرف أنه ترك عمله في الفندق، وانتقل للعمل طاهيًا في المطعم التابع للمستشفى الجامعي في...» قاطعه يوسف فجأة بعد أن شعر بأنّ سُفيان يطيل في التفاصيل التي لا تهمُّه:

- هل يعرف أخبارًا عنها؟

- نعم، ليس هي فقط، وإنما جميع الدارسين في الجامعة موجودون حاليًّا في القبو- الملحق بمبنى السكن الجامعي، وأغلب الظنّ أنّ رشا من ضمنهم.

شعر يوسف بالضجر:

- إذًا هو لم يصل إلى معلومة مؤكدة؟

«وعدني بأن يبذل جهده للحصول على أية معلومة تفيد... » قطع سُفيان كلامه بعد اهتزاز هاتفه ونغمة تخبره بوصول رسالة. كان في الرسالة رقم هاتف فقط.

أسرع يوسف إلى الحمام وغسل وجهه جيدًا، ليتخلص نهائيا من آثار النوم والنعاس، وعاد إلى الصالة، وتناول قِنينة الماء وتجرعها كاملة، ثمّ أمسك كوب القهوة ورشف منه رشفة كبيرة وأعاده إلى مكانه على الطاولة. أمسك هاتفه وطلب من سُفيان أن يملي عليه الرقم.

سمع رنين جرس الهاتف الطويل على الجانب الآخر، فاطمأنّ إلى أنّ الخط يعمل، سمع صوت شاب يأتيه من الجهة الأخرى قائلا باللغة الروسية:

- (بريفييت).

عرف أنّ صاحب الصوت عربي من لكنته، فقال بسرعة خوفًا من انقطاع المكالمة في أي لحظة:

- مرحبًا أنا يوسف مراسل صحفي، أبحث عن فتاة اسمها رشا فارس تدرس في كلية الطب...

قاطعه صاحب الصوت: حيّاك الله، معك مُعاذ. ثمّ سمع صوت الصافرة المتقطعة.

قطّب يوسف جبينه ونفخ الهواء من فمِه متأففًا من الحظ السيئ. خرج سُفيان من الغرفة وعاد بعد عشر دقائق وفي يده لفافتان في كلٍّ منهما فطيرة جبن، وجد يوسف قد أنهى حمّامًا سريعًا، واستبدل ملابسه وعينه لا تفارق شاشة الهاتف. ارتدى معطفه الدافئ، وأخذ لُفافة من يد سُفيان الممتدة، وقضم قضمة من الفطيرة وأتبعها بأخرى، ثمّ رشف ما تبقى في الكوب من قهوة باردة.

جاء صوت رنين الهاتف، أمسكه بسرعة وهو يبتلع ما بفمه من بقايا الفطيرة، جاء الصوت الرجولي واضحًا:

- أعتذر لإغلاقي الخط، ولكن حتى أستغل الوقت في الوصول إلى الزميلة رشا. يمكنك الحديث معها إنها تقف إلى جانبي.

جاءه صوت رشا منهكًا ومستغربًا يتساءل عن هوية المتحدِّث الذي يسأل عنها.

أجاب يوسف عن تساؤلها باختصار، وأخبرها أنّ والدها تواصل معه وطلب منه أن يتحرى أخبارها، لأنه يحاول الاتصال بها منذ انتشار أخبار الحرب، ولكن خطوط الاتصال لا تسعفه في الوصول إليها.

سمع صوتها:

- أأنت يوسف؟ أقصد الأستاذ يوسف الصحفي؟ هل أنت هنا في أوكرانيا؟

- نعم أنا أعمل هنا حاليًّا، احفظي رقمي في هاتفك وتواصلي معي في أي وقت تحتاجين فيه إلى المساعدة.

ظلت صامتة، لكنّ صوت نشيجها وصل إليه، عرف أنها تبكي. أدرك ما تمرّ به، حاول تهدئتها مستغلًّا الوقت قبل أن يداهمَهم انقطاع المكالمة مرة أخرى:

- اسمعيني جيدًا وافهمي ما سأقوله، الحرب واقع لا مفرّ من الاعتراف به والتعايش معه. تحلَّي بالقوة والشجاعة، الوضع صعب، لا أحد يعرف إلى الآن مآل الأمور، المهمّ أن تحافظي على وجودك ضمن مجموعة في ملجأ آمن. لا تخرجي من الحرم الجامعي. الجامعة مكان آمن إلى الآن. وابقَي على تواصل معي، وسوف أقوم بطمأنة والدك.

صمت قليلًا ثمّ تابع:

- أنصحكم بالتواصل مع إدارة الجامعة للنظر في وضعكم...

كان صوت نشيجها قد هدأ، وسمعها تقول:

- خرَشو.

وأتبعتها سريعًا بكلمة: «حاضر».

طلب منها أن تعيد الهاتف إلى الشابّ، ألقى عليه تحية سريعة وعرّفه بنفسه، ثمّ طلب منه أن يختصر له صورة الوضع لديهم.

أوجز مُعاذ ما حدث منذ بضعة أيام في مدينة (كييف) من قصف مفاجئ، ووصف حالة الهلع والرعب التي دبّت في المدينة، ثمّ أخبره أن

جميع الطلاب العرب من الجنسيات المختلفة موجودون في قبو صغير ملحق بالسكن الجامعي الذي يقطنونه، ثمّ أردف قائلا:

- ولكنّ الخبر المؤسف الذي عرفته قبل قليل أنّه تمّ توجيه الطلاب الأوكرانيين- والأوروبيين للذهاب إلى ملجأ واسع أسفل مبنى رئاسة الجامعة، مزود بأسرة ووسائل راحة متنوعة، ولكن غير مسموح لغير الأوروبيين مشاطرة الأوكرانيين فيه.

تحرّك حسُّه الصحفي وقال لمُعاذ:

- عليك التواصل مع وسائل الإعلام في (كييف) وإطلاعهم على جميع هذه التفاصيل.

جلست رشا على المقعد واجمة، استعادت صوته وكلماته، هل كان فعلا هو الذي يتحدث معها قبل قليل؟ ذلك الشابّ المندفع المليء بالحماس والثقة بالنفس، الذي كان يأتي لزيارة والدها بين الحين والآخر، أهو يوسف الصحفي المبتدئ الذي سمعته يقول لوالدها ذات مرة إنّه يحلم بأن يكون صاحب أكبر محطة إخبارية.

ترى هل تزوج؟

هزّت رأسها يمنة ويسرة كأنّها تنكر على عقلها هذا السؤال في هذه الظروف الغريبة التي يمرون بها. تذكّرت الحيرة التي ارتسمت فجأة على وجوه الطلاب، فبين عشيّة وضحاها انقلبت حياتهم التي كانت أيامها تمرّ برتابة مُمِلّة. جاء كثير منهم إلى هذه البلاد مفعمين بأحلام ذويهم وعائلاتهم لا أحلامهم.

سمعت من أكثر من شخص منهم أنّ الطب لم يكن خياره الأول، ولكنّه كان خيار أمّه أو أبيه أو كليهما. تنهدت من أعماقها وتذكرت أنّها لم تختر دراسة الطب أيضًا، ولكنها رضخت لرغبة والدها في أن يراها طبيبة مشهورة مثل أختها رزان، أمّا رغبتها الحقيقية وحلمها الذي دفنته في قلبها، فكان الصحافة.

لم تكن تعرف الكثير عن هذه المهنة سوى أنها مهنة المغامرات والشهرة، ولكنها عرفت صحفيًّا مبتدئًا كان يأتي لزيارة عائلتها بين وقت وآخر، وكانت في معظم الأحيان التي لا تراها فيها والدتها تسترق السمع من خلف باب غرفة الضيوف، لتستمع إلى صوته الحادّ ونبرته الواثقة. يتكلم عن طموحه وحلمه بتفاؤل كبير، ويصف ولعه بالعمل الصحفي كما يصف الحبيب حبيبته.

تذكرت رشا دقات قلبها التي كانت تتسارع حتى لتحسبه سيقفز من مكانه، كلّما سمعت صوته يقرأ إحدى مقالاته لوالدها. لم تكن تفقه كثيرًا من الكلام الذي كان يغزله بعناية، لكنّها لسبب لم تكن تعرفه عشقت سماع صوته.

أيّ قدر أتى بيوسف إلى أوكرانيا وجعله يتصل بها ويتحدث إليها؟: «رباه هل أنا أحلم؟» قالت لنفسها. فكرت بفارق العمر بينهما: «لا بدّ أنه الآن يقترب من الأربعين، وأنا لم أكمل السادسة والعشرين».

ابتسمت رغم ما تعانيه من شعور بالخوف والكآبة من تفكيرها في فرق العمر بينهما. هل من الممكن أن يحتفظ القلب بذات الانفعال تجاه

شخص ما بعد سنين من الانقطاع؟ شعرت كأن قلب المراهقة عاد إليها فجأة. قلبت مكالمتُه عالمَها الداخلي رأسًا على عقب بعد طول سكون.

جاءها صوت نوران ليمنع نفسها من الاسترسال في التساؤلات.

– ما الذي يشغلك إلى درجة أنك لم تسمعي ندائي؟

استجمعت رشا شَتات نفسها، وأخبرت صديقتها باتصال أحد الأشخاص من طرف والدها، ونصيحته لهم بالبقاء في القبو إلى أن تتضح الأمور. واكتفت بذلك دون أن تذكر شيئًا عمّا سبَّبه اتصاله من اهتزاز في مشاعرها وتسارع في دقات قلبها.

تذكرت نوران فجأة أنّ مُعاذ طلب منها أن يتكلم مع رشا وقالت:

– يريد الدكتور مُعاذ أن يتحدث إليك إذا كنت لا تمانعين.

قالت رشا بابتسامة شاحبة:

– يبالغ الدكتور مُعاذ في الأدب حتى ونحن في هذه الظروف.

أشارت نوران بيدها باتجاه مُعاذ الذي كان يقف أمام شاشة التلفاز ضامًّا ذراعيه، وأومأت إليه بالمجيء. تقدم مُعاذ نحوهما وجلس على الكرسي ووجه كلامه لرشا:

– عرفتُ أنّ الشخص الذي اتصل يسأل عنك صحفي، وأنت تعلمين أنّ الصحافة هي السلطة الرابعة، وأعتقد من متابعتي للأخبار أنّ هذه الحرب لن تكون قصيرة، وإن كنت آمل غير ذلك، ولكن علينا التسليم بالأمر بالواقع.

لم تفهم رشا سبب هذه المقدمة، ولكنّ مُعاذ استرسل في كلامه موضحًا:

- نحن بحاجة إلى جهة نتواصل معها لتوصل صوتنا إلى الإعلام، حاولتُ التواصل مع إدارة الجامعة منذ اندلاع الأحداث، ولكن للأسف لا أحد يستجيب.

وتابع حديثه بعد أن صمت قليلًا ليستجمع أفكاره:

- كثيرون منّا في سنتهم الأخيرة، نريد أن نعرف ما الإجراء الذي ستتخذه الجامعة نحونا؟ بعض الزملاء يفكرون في العودة إلى بلادهم ريثما تهدأ الأوضاع، ولكن علينا تسوية أوراقنا وشهاداتنا قبل أن نغادر، فلا أحد منا يُخمِّن إلى أين ستتجه الأمور.

صمت قليلًا ثمّ تابع:

- وخاصّة أنّ إدارة الجامعة قد غضّت طرفها عن وجودنا في هذا القبو غير المُهيَّأ، والذي يفتقر إلى أبسط وسائل الراحة، بينما خصّصت الملجأ الكبير للطلاب الأوكرانيين وأصحاب الجنسيات الأوروبية.

فغرت نوران فاها وحملقت عيناها باندهاش:

- هل يتعاملون معنا بعنصرية؟

لم يجب مُعاذ عن سؤالها، لأنّه كان سؤالًا وجوابًا في الوقت ذاته.

وتوجّه بالكلام مرة أخرى إلى رشا:

- ما أرجوه أن تبقي على تواصل مع الإعلامي لأننا قد نحتاج مساعدته.

هزّت رشا رأسها إلى الأمام في إشارة إلى موافقتها على كلامه. وأخبرته أنها ستفعل كلّ ما في وسعها للمساعدة. شكرها مُعاذ وترك الفتاتين وعاد إلى مكانه أمام التلفاز.

قالت نوران وهي تنظر مباشرة إلى وجه صديقتها:

- هذه أول مرة يتحدث مُعاذ إليك. دائمًا يحاول تجنّبك منذ ذلك الموقف الذي حصل - بينكما في عامك الجامعي الأول، عندما رفضتِ الانضمام إلى مجموعة التدريب التي كان يشرف عليها.

عادت رشا بذاكرتها إلى ذلك اليوم عندما طلبت من الأستاذ المشرف على تعليم اللغة الروسية أن يضمَّها إلى مجموعة الأستاذ الأوكراني، بدلًا من مجموعة طالب السنة الأخيرة مُعاذ.

«ترى أما زال حاقدًا عليها بسبب ذلك؟». تساءلت.

مرّ أسبوع من القصف المتواصل على (ماريوبل)، انتشرت أخبار توغل القوات الروسية في أطراف المدينة. كتبت الصحف العالمية عناوين بارزة تتحدث عن ممرات إنسانية آمنة. وهي تسمية لطيفة ومهذبة لعملية هروب السكان من بيوتهم ومدنهم وقراهم خوفًا من الموت، والوقوف على أعتاب المناطق الحدودية يلتمسون إذنا بالعبور.

استمر يوسف وفريقه بتوثيق أخبار الحرب الجديدة، وما نجم عنها من ضرر هائل في البنية التحتية للمدينة. شغله البثّ المباشر الذي يتطلب

التأهب المستمر أمام الكاميرا، فكان يحرص على متابعة كلّ ما يطرأ لرسم الصورة الواقعية عبر حديثه الذي تنقله الأقمار الصناعية ليجوب العالم.

هدأ الوضع في اليوم الثامن، تواصلت الأنباء عن هروب السكان من مدنهم إلى المدن البعيدة، وتداولت وسائل الإعلام كثيرًا من الصور للنازحين الشُّقر الذين توجه معظمهم إلى (لفيف) المدينة التي تعود أصولها إلى الإمبراطورية الأوكرانو روسية. أنشأها - كما تقول الروايات - الإمبراطور (دانييل)، وأطلق عليها اسم ابنه (ليف).

«خرج السكان من بيوتهم وتركوا مدنهم المدمرة، يرتدي الكثيرون منهم قبعات تظهر عليها الحروف الأولى لأشهر الماركات العالمية، ملابسهم نظيفة ومعاطفهم دافئة، يركبون سيارات حديثة، ويتوجهون نحو ملاذ آمن من نيران القصف».

بهذه العبارات ختم يوسف تقريره. أغلق سُفيان شارة البثّ وابتعد المراسل من أمام الكاميرا وتوجه مع المصور ومساعده والسائق، حيث تقبع حافلتهم بما فيها من معدات وكثير من الأسلاك والكوابل.

وضع يوسف الميكرفون على المقعد الخلفي، وجلس إلى جانب سُفيان، أخذ السائق مكانه خلف المقود وانضم إليه مساعد المصور، وقد احتضن الكاميرا الصغيرة المتنقلة متأهِّبًا لأي طارئ يستوجب ملاحقته بعينها.

أمسك يوسف هاتفه وتفقّد الرسائل، وجد ثلاث رسائل صوتية من زوجته، فتح الرسالة الأولى ووضع الهاتف على أذنه، سمع صوتها يسأل عن أحواله ويطلب منه طمأنتها عليه، الرسالة الثانية كانت تخبره فيها عن مرض والدته ودخولها المستشفى منذ يومين، أما الثالثة فكانت مشتركة بين أسئلة خالد لوالده عن موعد عودته، وبين همهمات تاليا وصراخها الذي لم يفهم منه سوى كلمة (بابا).

شعر بالكدر والضيق بسبب مرض والدته وحدث نفسه: «لا بدّ أنها أهملت تناول أدوية الضغط والسكر مرة أخرى». يعرف مدى كرهها للأدوية.

عندما وصل إلى الفندق صعد إلى غرفته مباشرة، وأجرى اتصالا مع أخته (منى) واطمأنّ إلى صحة والدته.

شعر بالارتياح عندما أخبرته شقيقته أنها خرجت في الصباح من المستشفى، بعد أن قام الطبيب بتنظيم ضغط الدم الذي ارتفع بعد سماعها بأخبار الحرب التي حاولوا جاهدين أن يخفوها عنها. واطمأن أكثر عندما أخبرته منى أنّ زوجها محمد قد سافر منذ يومين لإنهاء بعض الأعمال في دبي، وأنها ستغتنم فرصة غيابه وتذهب للمكوث في منزل والدتهما لتبقى تحت رعايتها.

تنفس الصعداء بعد سماع كلام أخته، فلا شيء يؤذي قلبه أكثر من إحساسه بأنه مقصر في رعاية والدته، فمنذ شبابه المبكر وهو مرتحل، ولم

ينعم بقربها إلّا أسابيع قليلة في كلّ عام. أخبرته شقيقته ألّا يكلمها الآن فهي قد خلدت للنوم والراحة.

هذه الأم التي فقدت زوجها وهي شابة صغيرة، ترك لها مسؤولية تربية ولدين وبنت.

لم يكن يوسف الابن الأكبر، ولكن إحساسه المستمر بالتقصير نحوها جعله يستشعر مسؤولية كبيرة تجاهها. حمد الله على وجود منى، الأخت الوحيدة التي تزوجت وانشغلت بحياتها، ولكنّها كأيّ فتاة، تبقى هي السند الحقيقي لأمّها وعائلتها.

عندما يكبر الذكور تتحول علاقتهم بوالديهم من الحب إلى الواجب، أمّا البنت فلا شيء يبدل عاطفتها، بل تتحول الأدوار عندما يشيخ الأبوان، فتصبح البنت أمّ أبيها وأمّها.

أجرى اتّصالا آخر مع جمانة، كان منهكًا ويتضور جوعًا، ولكنّه فضّل عدم تأجيل محادثتها، ففي مثل هذه الأوضاع لا أحد يعرف ماذا تخبئ الساعات من مفاجآت.

جاءه صوتها على الطرف الآخر من الهاتف يسأله عن أحواله، وحقيقة ما تتداوله الأخبار، أجاب عن تساؤلاتها بما يُطَمئِن قلبها، ويُهدِّئ من روعها:

- ليست المرة الأولى التي أعمل فيها تحت نيران القصف، وفي كل مرة ننجو بفضل الله. عمر الشقي باقي كما تعلمين.

لم تعجبها جملته الأخيرة فنهرته بسرعة:

- لستَ من الأشقياء.

أوصته أن يكون حذرًا في تنقلاته، وأن يحرص على ارتداء الملابس الدافئة لتقيَه برد تلك المنطقة القارص، وأن يبقى على اتصال دائم معها، فهي وإن كانت تشاهده على شاشة التلفاز إلّا أنّ قلبها لا تطمئن خلجاته إلّا بسماع صوته يتحدث إليها، قالت له في نهاية المكالمة:

- أولادك ينتظرونك، تذكّر هذا دائمًا قبل أن تعرض نفسَك لأيّ خطر.

لا يعرف لحرصها مُسمًّى آخر غير الحب، هذه المرأة التي ارتبط اسمه بها وأصبحت أمًّا لأبنائه. منذ اندلاع الحرب أصبحت مشاعرها رقيقة جدًّا، لم يعد يلمس في صوتها نبرة التأنيب واللوم التي كانت تلاحقه بها كلّما هاتفَته. صار اهتمامها منصبًّا على سلامته وتحوّل اللوم خوفًا عليه، والتأنيب رقة ودفئًا.

تساءل في سره وهو يسند رأسه إلى ظهر المقعد الجلدي في وسط الصالة الصغيرة: «أتنقصنا حرب لتتحرّر مشاعرنا الجميلة تجاه مَن نحب؟ هل من ضرورات المحبة أن يُحدِق بنا الخطر، أو يحاصرنا الموت حتى نزيح السُّدادة عن عنق القمقم الذي نحبس فيه عواطفنا الصادقة وروحنا الجميلة؟».

وبينما هو مسترسل في أفكاره شعر بتقلص أمعائه وسمع صوت خرير في معدته، تذكر أنه لم يتناول طعامًا منذ الصباح، نهض بتثاقل وخرج من الغرفة وسار في الممرّ الطويل بين الغرف. ثمّ وقف أمام المصعد الذي

نزل به إلى قاعة الطعام، كان يعرف أنّ الوقت ما زال مبكرًا على موعد وجبة العشاء الرسمية، ولكنّه قرر أن يتخلى عن بعض ذوقه، وأن يطلب من المطعم أن يقدم له وجبة سريعة قبل موعد العشاء، يعرف أنّهم سيلبّون طلبه كما جرت العادة في معظم الفنادق التي تُخصَّص للصحافة، ولكنّه يعرف أيضًا أن العاملين يفضلون الالتزام بمواعيد تقديم الطعام المحددة، كي لا يعطوا مجالًا كبيرًا لِمَن هم مثل يوسف مِمَّن يُفَوِّتون وجباتِهم، فيُفسِدون نظامهم. ولكنّها قوانين الحرب تجعل لكلّ شيء استثناء.

وقف مُعاذ في منتصف القبو، أخبرهم بصوته الجهوري أنّه يمكنهم الخروج إلى غرفهم هذه الليلة. فقد تمّ إعلان هدنة مؤقتة لمدة أربع وعشرين ساعة، وطلب منهم أخذ قسط من الراحة حتى لو اضطروا إلى تناول دواء منوم.

- علينا أن نستعد للقادم.

قالها بنبرة حازمة، ثمّ أردف يطلب منهم أن يكونوا في صالة طعام السكن الجامعي في الساعة السابعة صباحًا لتبادل الآراء والتباحث في أمرهم.

دخلت رشا غرفتها ولحقتها نوران التي تقطن في الغرفة المجاورة، جلبت وسادة وغطاء من الصوف الثقيل. قالت لرشا مازحة:

- سوف أنام هنا لأحرسك من العدو.

ضحكت رشا ضحكة خفيفة وقالت:

- نصيحتي لك أن تنامي على سريرك فأنت بحاجة ماسّة للراحة، ولا داعي للقلق علي.

وضعت نوران الوسادة على الأريكة العريضة وكأنها لم تسمع كلام صديقتها، ثمّ استدارت خلف ظهر الأريكة وأمسكت بها بكلتا يديها وشدّتها نحو الأسفل، فتحولت إلى سرير.

وقفت وهي تضع يدًا على خصرها واليد الأخرى تشير بها نحو الأريكة:

«وهذا أيضًا اسمه سرير» وغمزت بعينها وهي تخرج من الغرفة قائلة:

- سوف أستحم سريعًا، الله وحده يعلم متى ستسنح لنا فرصة أخرى.

انتهت رشا سريعًا من ارتداء ملابسها وتجفيف شعرها وألقت بجسدها على الفراش، شدت الغطاء الثقيل، كانت لا تزال تشعر بالبرد، انتهزت فرصة عودة نوران إلى الغرفة، وطلبت منها أن تناولها أحد الأغطية الموجودة في الرف السفلي من الخزانة، أخرجت نوران غطاءين ثقيلين، ألقت بأحدهما على الأريكة ووضعت الآخر بالقرب من متناول رشا.

اندسّت تحت أغطيتها وألقت رأسها على الوسادة، وما لبثت أن غطّت في النوم.

مدّت رشا يدها إلى زر الكهرباء قرب السرير وأطفأت النور. شدّت الغطاء الذي أصبح ثقيلًا وأكثر دفئًا.

حملقت في سقف الغرفة المُعتِمة، وتذكرت ما مر بهم من أحداث خلال الأيام الماضية، تمنت لو يكون حلمًا تفيق منه وتعود إلى حياتها الطبيعية في هذه البقعة التي جاءت إليها مدفوعة بطموحها في العودة إلى بلادها بشهادة تتيح لها مزاولة الطب، المهنة التي لم تكن حلمها في يوم من الأيام.

تذكرت يوسف ومكالمته معها، ولكنّ جفنيها أخذا في الارتخاء، واستسلمت عيناها، وداهمها النوم الذي لم تتذوق منه سوى غفوات متقطعة منذ أيام.

شاهدته في منامها يمشي باتجاهها مبتسمًا وهو ينادي باسمها، ثمّ ناولها صحيفة وقال لها: لقد تمّ نشر اسمك في قائمة الناجحين.

أمسكت الصحيفة ولكنّها لم تجد فيها سوى صورة كبيرة له، وفجأة اندلعت النار في الصحيفة، وبدأت تأكل صورة وجهه شيئًا فشيئًا، حاوت إطفاء النار بيدها لكنّ الصحيفة تحولت فجأة إلى رماد، وانطفأت النار... تلفّتت حولها تبحث عنه فلم تجده، كان قد ابتعد عنها وأدار ظهره لها، نادت اسمه، ولكنّه لم يلتفت!

فتحت عينيها. عرفت أنها كانت تحلم عندما سمعت صوت أنفاس نوران تعلو وتهبط بانتظام. شدّت الغطاء فوق رأسها، واستسلمت للنوم من جديد.

معارك الروح مهما احتدمت في داخلنا، تنهزم سريعًا أمام الجسد المُتعَب، كم من حزن يتأرجح في مشاعرنا تُلجِمُه ساعات من التعب

والعمل المضني الذي يفرض سطوة النعاس والحاجة إلى الراحة على الأجساد!

استيقظ الجميع في الصباح على صوت انفجار هائل هزّ أركان المبنى، أعقبه دوي هائل. وبعد دقيقتين ارتفعت أصوات سيارات الإسعاف والدفاع المدني، قفزت الفتاتان من فراشيهما، التقت عيونهما، ودون كلمة واحدة أسرعتا بالنزول إلى الأسفل عبر السلّم.

كان الجميع قد خرجوا من غرفهم وتجمعوا في بهو السكن الجامعي، هدأت أصوات سيارات الإسعاف، وبدا وكأن شيئًا لم يحدث. كان الجميع يتابع الأخبار عبر هاتفه، تتحدث المحطات عن قصف جديد استهدف منشآت تابعة للجيش على بعد شارعين من المدينة الجامعية.

ظهر الوجوم على وجوه الشبّان والشابّات، تساءل البعض عن ضرورة العودة إلى القبو، ولكنّ أحدًا لم يبدِ رغبة في ذلك.

جهز بعض المتطوعين وجبات خفيفة وملؤوا سخّانًا كبيرًا بالماء الساخن، الأكواب تتراصّ فوق بعضها البعض إلى جانب علبتين كبيرتين من القهوة السريعة وثالثة للسكر.

تناول الجميع إفطارهم، تلقفت الأيدي أكواب القهوة التي يتصاعد منها البخار.

أمسكت رشا الكوب بكلتا يديها مستمدة من حرارته بعض الدفء، قرّبته من أنفها واستنشقت رائحة القهوة التي صعدت إلى دماغها.

سمع الجميع صوت الطبيب مُعاذ وهو يتحدث بذات النبرة القوية:

«أعتقد أنه علينا مغادرة المبنى الجامعي» صمت قليلًا ثمّ استدرك: «بل مغادرة (كييف) نفسها».

علت أصوات الموجودين متسائلة، بينما تابع كلامه:

– للأسف، لسنا في مأمن، بالأمس قُصِف المطار مرة أخرى، ودُمِّر الجزء الأكبر منه، واليوم تتحدث الأخبار عن طائرة (درون) ألقت قنبلة في شارع قريب يعج بالمدنيين والمنازل السكنية والمدارس، مبررين ذلك بوجود أهداف عسكرية.

قاطعه عبد العزيز الشابّ القادم من أم درمان السودانية:

– هذا يعني أنّ من المحتمل تعرُّض الجامعة والسكن للقصف ولو بالخطأ؟

صمت مُعاذ، وخلع نظّارته ومسح عدساتها بطرف كمّه ثمّ أعادها إلى مكانها. أردف بصوت منخفض:

– لو كانت الحروب تستثني أحدًا لما كانت بلادنا تعُجّ بمخيمات اللاجئين.

قالت منار:

– ولكن نحن هنا في مبنى جامعي. لسنا مقاتلين أو عسكريين، بل لسنا أوكرانيين أصلا!

نظر إليها مُعاذ ثمّ تنهد بعمق:

– العسكري والمدني سواء عندما تتناثر شظايا القذائف، وعندما تكون غاية هذه الطائرات التي تسمعون دويَّها أن تُفرِغ حمولتها.

سأله أحد الشباب: ما التصرف إذن؟

أجاب مُعاذ:

- سكان (كييف) يبحثون عن مكان آمن، بدأ المئات منهم بالنزوح نحو المدن التي لم يطَلْها القصف والدمار، وبعضهم يعتزم الخروج من أوكرانيا إلى الدول المجاورة. تحدثت في الصباح إلى صديق أوكراني، قال لي: إنّ الكثيرين يتوجهون بسياراتهم نحو الحدود البولندية والرومانية.

تساءلت نوران:

- وماذا يعني هذا؟

«الأمر ليس مزحة. هذا ما يعنيه الهروب الجماعي» قال مُعاذ، وتابع:

- علينا التفكير جديًّا بمغادرة (كييف)، أو حتى مغادرة أوكرانيا.

قالها والضيق يبدو واضحًا على وجهه.

قال شاب بدا أنه من إحدى الدول الأفريقية بلغة إنجليزية:

- أنت تبالغ كثيرًا في مخاوفك. عن نفسي لن أغادر، الأمور ستهدأ قريبًا. هذه مجرد مناوشات. لا يمكن لدول العالم العظمى أن تسمح باستمرار هذا العبث في أوكرانيا.

لم يُعَلِّق مُعاذ على كلام زميله، ولكنّه وجّه كلامه إلى المجموعة:

- الوضع صعب عليكم كما هو عليّ. معظمُنا خريجون، كنّا نعد الشهور والأيام- لإنهاء دراستنا والعودة إلى بلادنا مصطحبين

شهاداتنا، ولكن كما تعلمنا من دراسة الطب، تبقى الأولوية للحفاظ على سلامة الأرواح.

ثمّ علا صوته وهو يقول:

- على الأقلّ علينا أن نؤمن زميلاتِنا الفتيات.

لم يستغرب أحد النبرة التي يتحدث بها مُعاذ، فهم يعرفون شخصيته التي ربما قلّ وجودها، فلطالما مدّ يد العون لزملائه، وساعدهم على اجتياز عقبات اعترضت طريقهم الشاق. ولمرات عديدة وقف إلى جانب العديد من المغتربين الجدد يُهَوِّن عليهم بداية مشوارهم.

ولكن هذه المرة هناك من يتشبث بأمل انتهاء هذا الكابوس قريبًا. يغذيه فيهم وهم التحضر الذي لن تصمت دوله أمام ما تواجهه هذه البلاد الجميلة من خراب ودمار يشوهان ما فيها من روعة وبهاء، محاولين أن يتناسَوا عدد البلاد الجميلة التي تشوَّه جمالها من قبل، وفسد ما فيها من بهاء.

بعد احتدام النقاش، انقسمت الآراء إلى فريقين: فريق أذعن لرأي مُعاذ بضرورة مغادرة (كييف)، والآخر أذعن لبصيص الأمل فقرّر البقاء.

كانت رشا ونوران من الذين اقتنعوا برأي الدكتور مُعاذ، وانضمّت إليهما منار وهند.

حزمت الفتيات الأمتعة الضرورية في حقائب قماشية تُحمَل على الظهر، حتى لا تعيق حركتَهن. وضعت رشا جواز السفر، والهوية

الجامعية، وأوراقها الثبوتية وقطعتين من الملابس الصوفية الدافئة، وبعض الكتب الدراسية المهمّة وصورها التذكارية التي تحتفظ بها.

جمعت النقود التي كانت بحوزتها وأودعتها جيب الحقيبة، ثمّ ارتدت معطفًا طويلًا ووضعت وشاحًا صوفيًّا حول رقبتها. أخرجت قفازين صوفيين ووضعتهما جانبًا.

تجمعوا في مدخل المبنى في انتظار الخطوة التالية.

قال مُعاذ:

- سوف ننطلق نحو محطة القطار القريبة من الجامعة الطبية، لنستقل القطار المتوجه إلى مدينة (لفيف)، ومن هناك يمكننا العبور نحو الحدود البولندية.

أومأ الجميع برؤوسهم علامة الموافقة، فلم يكن لديهم خيار آخر.

كانت درجة الحرارة في الخارج قد تدنت إلى أقلّ من الصفر، كما هو المعتاد في مثل هذا الوقت من العام، أخبرهم مُعاذ أنّ عليهم التحرك قبل أن يعاود الثلج الهطول، خرجوا من بوابة المدينة الجامعية... كانوا خمسة شبّان وأربع فتيات، تحركوا باتّجاه المحطة التي تبعد عنهم ثلاثمئة متر، شعرت رشا بالبرد يلفح وجهها، فشدت الوشاح حول عنقها وغطت فمها وأنفها. لسعَ البرد يدَها، فتذكّرت القفازات التي نسيتها في الغرفة، تأففت بينها وبين نفسها، هل تعود لإحضارها؟ ولكن هل سيوافق البقية على انتظارها في هذا البرد القارص؟ أو حتى العودة معها إلى المبنى الجامعي؟

ألغت الفكرة من رأسها، ودست كفيها في جيبي معطفها.

في الطريق كانت هناك سيارات عديدة تمرّ من جانبهم، ولكن لا أمل لهم في أن تُقِلَّهم إحداها إلى وجهتهم. الكلّ مشغول بنفسه. إحدى سيارات الدفاع المدني تقف إلى جانب الشارع، تقدم مُعاذ نحوَهم وتحدّث إلى سائق السيارة، وما لبث أن عاد إلى زملائه وتعابير وجهه تنبئ عن فشله في إقناع السائق بتوصيلهم، قال مُعاذ بصوت ساخط:

- الأولوية للأوكرانيين.

لم ينبس أحد منهم ببنت شفة، أسرعت خطواتهم متجهين نحو ميدان (بيساربيسكا)، حيث تقبع محطة القطارات. لم تكن المحطة بعيدة عن المدينة الجامعية، ولكنّ برودة الجو هي ما جعلهم يأملون في وسيلة تنقلهم إلى مكانها دون الحاجة إلى أن يلفح وجوههم زمهرير الشتاء.

أول ما لفت نظرهم عند وصولهم، العدد الكبير من العائلات التي تجمعت تحت الكبائن المتراصة على طول رصيف القطار. حزم الكثير منهم متاعًا قليلًا في حقيبة صغيرة أو حقيبتين. المعاطف التي يرتدونها تدلّ على أنهم جهزوا أنفسهم تمامًا للطقس البارد الذي يألفونه في بلادهم.

على الجانب الآخر من المحطة ظهر فندق (ليبيد). وهي كلمة روسية تعني البجعة.

تقبع الجامعة الطبية التي تلقى فيها الكثير من المُبتَعَثين العرب والأجانب دراستهم في مجال الطبّ على الضفة الأخرى.

نظرة واحدة إلى الوجوه الواجمة التي تنتظر وصول القطار، ونظرة أخرى إلى وجه مُعاذ وزملائه كفيلة بأن يعرف المرء أن هؤلاء الشباب دخلاء على هذه المدينة. دماؤهم العربية واضحة على الرغم من ارتدائهم ملابس مشابهة لتلك التي يرتديها غالبية السكان هنا. وهل تستطيع الملابس أن تغير حقيقتنا؟ أو تصنع لنا نسبا جديدا؟ مهما حاولنا التماهي مع الآخرين او الذوبان فيهم، فلن نستطيع في النهاية أن نخرج من جلدنا.

وقفوا إلى جانب الرصيف المحاذي لخط سير القطار. تطوعت نوران لسؤال إحدى النساء الواقفات عن موعد وصول القطار المتجه إلى مدينة (لفيف)، نظرت المرأة إلى الفتاة التي لا يبدو أنها أوكرانية، وأشاحت بوجهها وهي تقول: من يعرف؟

لم تحاول نوران أن تعيد السؤال مرة أخرى. والتفتت إلى زملائها:

- الجميع متوتر وقلق، ولا أحد يرغب بتبادل الحديث.

«وضع طبيعي..» قالت رشا وهي تُحكِم لفّ الشّال حول رقبتها، وأردفت:

- من أين تأتي الرغبة بالكلام في هذا الكابوس؟

لم تنفك رشا عن وصف ما جرى بالكابوس، كان هذا هو حقيقة ما تُحِسُّه وتشعر به.. لم تستوعب إلى الآن ما حدث في مدينة كانت قبل أيام تعيش حياة طبيعية رتيبة. كيف انقلب كلّ شيء بين يوم وليلة؟ صار صوت القصف بطائرات السوخوي أمرًا معتادًا، وسماع صافرات الإنذار وأبواق سيارات الإسعاف شيئًا غير مستهجن.

بالأمس لم يكن يشغلها سوى التفكير بالتخرج والعودة بشهادة الطب إلى بلادها، تلك الشهادة التي جعلتها تتأقلم وتنصاع لقدرها، وقررت أن تنجح في دراستها، وأن تتقبل هذا التخصص، فهي تتمتع بالاجتهاد والذكاء.

سمع الجميع صوت صافرة القطار المتقطعة تأتي من بعيد، أخذ بعضهم بأيدي أطفاله، وبدأ آخرون يعدلون من وضعية الحقائب، الكلّ يترقب وصول القطار. بدأت الأجساد تتزاحم حول الرصيف. طلب مُعاذ من زملائه أن يبقوا متقاربين، وألا يتفوهوا بأيّ كلمة مع أيٍّ من الموجودين تجنبًا لحدوث أي موقف لا تُحمَد عقباه.

وصل القطار ووقف في المكان المخصص لركوب المسافرين، تدافع الناس نحو الباب، وقف اثنان من رجال الشرطة على البوابة لتنظيم الدخول، ازدحم باب الركاب الزجاجي بالصاعدين وحقائبهم، صرخ أحد رجال الشرطة بالمتدافعين أن يدخلوا بنظام. لم يكن أحد يعبأ بالنظام، ماذا يفيد النظام في ركوب القطار ما دام نظام حياتهم قد اختل بين عشية وضحاها!

تقدم مُعاذ ورفاقه مع المتقدمين للولوج إلى داخل القطار، تمكنت نوران من الصعود أخيرًا تبعها مُعاذ، اصطدم الاثنان برجال الشرطة الثلاثة وقد سدُّوا عليهم الطريق، وجه أحدهم سؤاله إلى نوران:

- إلى أين؟

أجابت على الفور:

- إلى (لفيف).

ابتسم الشرطي ابتسامة ساخرة وهو يقول مستنكرًا:

- وهل تهمّني وجهتك؟ لماذا تصعدين القطار قبل الآخرين؟

صرخ في وجهها وهو يشير لها بالنزول. تدخل مُعاذ مندهشًا من كلام الشرطي:

- ولماذا ننزل؟ نحن طلاب ونريد الخروج من (كييف)!

قاطعه الشرطي بنبرة مستفزة:

- أأنت أوكراني؟ طبعًا لا، إذاً لا يحقّ لك ركوب القطار، الأولوية للأوكرانيين.

فهم مُعاذ ونوران أنّه لا فائدة من الجدال معه بعد أن شاهدا الشرطيين الآخرين يفسحان الطريق لبعض الشباب الأوكرانيين للدخول إلى القطار، بينما سدّ زميلهما الطريق أمامهما.

حاولت نوران أن تقنعه بأنهم مجموعة من الطلاب الذين يدرسون في الجامعة الطبية، وأنهم قرروا العودة إلى بلدانهم عبر الحدود البولندية.

هزّ رأسه يمنة ويسرة كأنه لا يريد أن يستمع إليها، وبدأ يدفع مُعاذ بيده نحو النزول.

أشار مُعاذ لنوران أن تذعن لطلبه، فليس من الحكمة الدخول في سجال مع الشرطة في مثل هذه الأوقات.

نزل الاثنان، وابتعدت المجموعة عن مكان تجمهر الناس حول باب القطار. تحالفَ الجوّ مع ما هم فيه، فبدأت رشقات خفيفة من الثلوج تتناثر في الهواء.

اقترح أحد الشباب الاحتماء ببهو الفندق الذي يبعد عن المحطة كيلو مترًا أو أقلّ.

لم يكن لديهم خيار أفضل، فوضعوا حقائبهم على ظهورهم، ويمَّموا وجوههم شطر فندق البجعة.

وصلوا الفندق خلال خمس عشرة دقيقة من المشي السريع، على الرغم من أن الحقائب التي يحملونها قد زادت عبئًا عليهم إلّا أن رغبتهم في الحصول على الدفء، جعلت خطاهم تسرع نحو مدخل الفندق.

عبروا بوابة الفندق الزجاجية فوجدوا أنفسهم في صالة البهو الفسيحة، لم تتمالك نوران نفسها من إبداء إعجابها بجمال المكان على الرغم ممّا هم فيه. كان الطابع العامّ الذي صُمِّم عليه البهو يشبه معرضًا للفنون واللوحات.

انضمت إليها رشا التي مشت نحو لوحة كبيرة تأخذ مكانها على أحد الأعمدة المستطيلة، وقفت رشا أمام اللوحة منبهرةً، قرأت اسم اللوحة (لوحة قطف الطماطم)، لم تمنع نفسها من الابتسام، وجالت بنظرها وإذا بعينيها تصطدمان بعيني مُعاذ، شعرت بالخجل فجأة وكأنّه أمسك بها متلبسةً بهذه الابتسامة في الظروف العصيبة التي يمرّون بها.

أشار مُعاذ نحو مقهى في الجهة اليسرى من الصالة. تجمعوا حول طاولة دائرية الشكل وطلبوا أكوابًا من القهوة.

انتظروا بضع دقائق ثمّ توجه مُعاذ إلى (الكاونتر) الخشبي وحمل الصينية التي امتلأت بتسعة أكواب من القهوة الساخنة، وعاد بها حيث البقية الذين بدوا وكأن دولهم ابتعثتهم لينوبوا عنها ويشهدوا هذه الحرب التي لم تكن في حسبان أحد.

أمسك مُعاذ زمام الحديث وهو يرتشف قهوته.

- لا بد من مغادرة (كييف) بأي وسيلة.

وانهمك يشرح لزملائه الخيارات المطروحة لبلوغ هدفهم، رفعت رشا رأسها ونظرت مباشرة إلى وجه مُعاذ، تأملت الشابّ الذي شارف على عقده الثالث، كانت ملامحه رجولية بشكل كبير، عينان واسعتان ذواتا رموش طويلة تبدوان كأنهما مكحلتان من خلف نظارته الطبية، ووجه عريض تعلوه جبهة واسعة، وشعر أسود فاحم تخلّلته الكثير من الشعرات البيضاء. لأول مرة تلحظ أن عينيه بندقية اللون، تجمع بين اللونين: البني والأخضر، فينعكس منهما لمعان جميل.

انتبهت إلى صوته وهو يقول: ما رأيكم؟

ظلت تحملق في وجهه وكأنها تراه لأول مرة، إلى أن هزّتها يد نوران وهي تقول:

- رشا ما رأيك في كلام دكتور مُعاذ؟

انتبهت رشا وشعرت بالخجل من سروحها وعدم إنصاتها لكلام زميلها، فاحمرّ وجهها وحركت يدها لتعدل ياقة معطفها في حركة لا شعورية، فاصطدمت بكوب القهوة الموضوع أمامها. انكفأ الكوب ورشق ما به من قهوة ساخنة على كفها، صدرت عنها صرخة خافتة بعد أن شعرت بحرارة القهوة التي لسعت يدها، أسرع مُعاذ ورفع يدها عن السائل البني الساخن الذي سال فوق المنضدة، وأخذ ينفخ برفق فوق مكان الحرق للتخفيف من الألم، ثمّ أمسك كأس الماء وسكبه فوق موضع الحرق بلطف، شعرت رشا بالدماء تتصاعد إلى وجهها وهي تشعر بأنفاس مُعاذ فوق يدها، اضطربت وهي تحاول سحب يدها بلطف وتتصنع الابتسام:

- الأمر بسيط.

لكن مُعاذ فتح حقيبته وأخرج منها كيسًا صغيرًا كان قد جمع فيه بعض الأدوية الضرورية، أخرج مرهمًا للحروق وشاشا قطنيًا، أمسك بيدها مرة أخرى وقال وعلامات الجدية تظهر على وجهه:

- حرق من الدرجة الثالثة، ولكن علينا أن نعالجَه جيدًا حتى لا يترك أثرًا.

تركت رشا يدها له، فوضع المرهم فوق مكان الحرق، ثمّ انتظر دقيقتين ولف الشاش حول كفّها وثبّته بشريط طبي لاصق. ثمّ أخرج علبة من الدواء عرفت رشا أنّه مضاد حيوي، ناولها حبة وشرح:

- تحسّبًا من حدوث التهاب بسبب برودة الجو.

أومأت برأسها علامة الموافقة، وتناولت الحبة ووضعتها في فمها، وتجرعت فوقها رشفة من الماء.

قالت نوران متابعة النقاش الذي كان دائرًا قبل أن تنسكب القهوة:

- إذًا هل نأخذ سيارة خاصة إلى (لفيف)؟

أومأ الجميع برؤوسهم علامة الموافقة على هذا الاقتراح. فليس من المعقول أن ينتظروا القطار التالي، مع وجود احتمال كبير أن يتمّ منعهم من الصعود إليه كما حدث قبل قليل.

أمّا رشا فقد تسمرت في مقعدها وقلبها يخفق بشدة، فما زالت تشعر بأنفاسه فوق حريق يدها.

رن هاتف مُعاذ فجأة، فأخرجه من جيب معطفه، وقربه من أذنه، ثمّ لم يلبث أن قام من مقعده، وخرج من المقهى الصغير، وتوجَّه نحو أريكة تتربع في منتصف بهو الفندق.

جلس وهو يقول:

«نعم نحن ما زلنا في (كييف)». صمت برهة ثمّ عاد ليقول: «في فندق البجعة قرب محطة (كييف) الرئيسية للقطارات». ثمّ لم يلبث أن قال «حسنًا نحن في انتظارك». أغلق الهاتف وقفل عائدًا نحو المقهى الذي يجلس فيه بقية الطلاب.

قال مُعاذ:

- نحن مضطرون للبقاء هنا حتى يصل شخص سوف يقوم بمساعدتنا في الخروج من (كييف).

صمت الجميع فليس لدى أيٍّ منهم الرغبة في توجيه أي استفسار.

بعد ساعة تلقَّى مُعاذ اتصالًا، فوقف وطلب من فادي الشابّ اللبناني الذي أنهى عامه الدراسي الثالث أن يرافقه إلى مدخل الفندق.

كانت نوران مندمجة في الحديث مع والدتها في الجزائر، أمّا رشا فقد كان الحرق الذي تسبّب به سروحها وذهولها قد أفقدها جزءًا من طاقتها، فاتّكأت برأسها على ظهر المقعد وأغمضت عينيها، بينما انشغلت الفتاتان الأخريان بالحديث حول الحرب.

عاد الشابّان وبرفقتهما رجل في بداية العقد الرابع، طويل القامة ذو ملامح هادئة مألوفة، هتفت نوران: «إنّه المراسل الصحفي».

فتحت رشا عينيها وعدّلت من جلستها، فالتقت عيناها بعيني يوسف، الذي كان يقف إلى جانب زميليها. لم يترك لها الفرصة لتستدعيَ أي فكرة في مخيلتها وبادرها بالقول:

- لا بد أنّك الدكتورة رشا ابنة الدكتور فارس. أنا يوسف، هاتفني والدك من أجل - الاطمئنان على أحوالك.

لم تنبس رشا ببنت شفة، كان هو الصوت ذاته الذي كلّمها في الهاتف قبل أيّام قليلة. وله الصورة ذاتها التي تحتفظ بها في مخيلتها منذ أن كان يزور والدها في منزلهم عندما كان يشق بداية طريقه. إلّا أن جسمه قد امتلأ قليلًا، وشعرات بيضاء خطّت طريقها بوضوح على سالفيه الأيمن والأيسر. كما بدت آثار ندوب وتصبّغات خفيفة فوق وجهه. ممّا ينبئ عن

طبيعة عمله القاسية كصحفي، ولكنّه الشخص نفسه الذي يسكن ذاكرتها بنبرته الحماسية وروحه الطامحة.

تذكرت فجأة رغبتها القديمة الجارفة في أن تصبح صحفية، زاد تلك الرغبة ما كانت تراه في ذلك الزائر الشابّ الذي كان يستمد من أستاذه - والدها الدكتور فارس - العزم والعزيمة والتشجيع. أذكى والدُها حبَّ العمل الصحفي في قلب يوسف، ولكنّه أصرّ على قتل الحب ذاته في قلبها.

جاء صوت مُعاذ مبدِّدًا الصمت الذي ران على المكان:

- تواصلتُ مع الأستاذ يوسف بناء على رغبته في تقديم المساعدة للمبتَعَثين العرب، بما تسمح به ظروف عمله. وقد أرسل لي رسالة بالأمس يخبرني أنّه تمّ تسليمه مهام التغطية الصحفية في مدينة (كييف) مؤَقّتًا.

أكمل يوسف ما بدأه مُعاذ بعد أن ألقى التحية:

- بناء على تحليلات الخبراء ومعطيات الأحداث، واضح أنّ (كييف) ستكون مسرح الأحداث في الفترة القادمة كونها العاصمة كما تعلمون، لذلك تمّ نقلي مؤقتًا لتغطية الأخبار هنا بعد اضطرار زميلي للمغادرة لأسباب شخصية.

نظر إلى رشا مباشرة وقال مبتسمًا ابتسامة خفيفة، وأعاد السؤال نفسه مؤكدا:

- إذًا أنتِ الدكتورة رشا؟

جاءه ردّها متلعثمًا:

- نعم أنا رشا... لم أصبح دكتورة بعد.

كان التوتر والارتباك واضحين على وجهها، ولكنّ أحدًا من الموجودين لن يستطيع أن يخمن السبب.

قام مُعاذ بتعريف يوسف على بقية المجموعة:

- نوران، منار، هند، عبد العزيز، فادي، زياد، ومجد.

حيّاهم يوسف وسحب المقعد الذي يليه وجلس:

- وقتي ضيق، ولذلك أُحِبّ أن أسمع خطتكم لمغادرة (كييف).

قال عبد العزيز:

- أعتقد أن دكتور مُعاذ هو خير من يخبرك.

اعتدل مُعاذ في جلسته وكتف يديه وهو يسند ظهره إلى المقعد.

- من الواضح أنّه لا فرصة لنا باستخدام القطار حاليًّا.

قالت نوران:

- ربما لو انتظرنا...

قاطعها مُعاذ:

- المجازفة بالانتظار طويلا ليست في مصلحتنا.

- إذًا؟

- علينا استخدام سيارة خاصة أو حافلة كما قلت من قبل.

أبدى عبد العزيز رأيه:

- اعتقد أننا سنواجه المشكلة نفسها، لا أحد سيقود خمس ساعات متواصلة مُخاطِرًا بنفسه ليوصل مجموعة من المغتربين.

بدا عبد العزيز الشابّ السوداني متشائما بعد تجربة القطار.

تدخّل يوسف في النقاش:

- سأحاول تدبر أمر الوسيلة التي ستُقِلُّكم. ولكن أمهلوني بعض الوقت.

اقترح عليهم البقاء في الفندق إلى أن يتم ذلك، كي لا يستنزفوا طاقتهم، فهم سيحتاجونها في رحلتهم إلى (لفيف).

نهض من مقعده فوقعت عيناه على يد رشا المُضمَّدة، لم يسأل واكتفى بالقول:

- سلامات.

«حرق بسيط» قالت رشا، فأجابها:

- أتمنى لك الشفاء.

ثمَّ وجَّه كلامه إلى مُعاذ:

- سأنزل مؤقتًا في هذا الفندق.

نظر إلى ساعته وقال:

- أعتقد أنّ فريق التصوير على وصول.

ما إن أكمل جملته حتى دقّ جرس هاتفه. كان المصورون قد وصلوا مع معداتهم إلى بهو الفندق، ألقى عليهم التحية، وخرج من المقهى ليلتقيَ زملاءه.

ظلّت رشا تنظر إليه وهو يغادر وكأنها لا تصدق أنها التقت به قبل قليل وجهًا لوجه. هذه الروح الحالمة التي تحملها بين جنباتها، هل كان من الصعب على والديها أن يكتشفاها قبل أن يزجّا بها إلى هذا العالم الذي ما زالت تستشعر الغربة فيه بعد مرور ثلاث سنوات، وكأنها جاءت بالأمس.

هذه المشاعر السخيفة المضطربة التي يمتلئ بها فؤادها، هل كانت لتظلّ عالقة بها لو استمع والدها لمكنونات نفسها، لو حاول أن يتركها تختار طريقها دون أن يُمَهِّد لها طريقًا آخر.

يخجلها ضعف مشاعرها، واضطرابها لمجرد مرور طيف من ذكريات مراهقتها أمامها. ربّما لو سلكت الطريق نحو حلمها لتكون صحفية، لانطفأ التوهج الذي تحمله في قلبها لهذا الرجل، ولَخَبَت الهالة التي صنعتها حول بطولاته في مواجهة المخاطر من أجل حمل مشعل الحقيقة.

***

أغلقت جمانة باب الشقة ونادت الشغّالة لتأخذ منها الأغراض، لسع الهواء البارد وجهَها فاحمرّ أنفها. وضع خالد حقيبته على الأريكة، صرخت فيه بطريقة هستيرية أن يدخلها إلى غرفته، نظر إليها مستغربًا، وقبل أن يتفوه بكلمة أمسكت الحقيبة ووضعتها في حضنه، وأشارت بيدها إلى الغرفة.

ذهب وهو لا يدري سرّ ثورة أمه المفاجئة. وحدها تاليا لا تهتم بانفعالات والدتها، أمسكت بيدها واخذت تسحبها نحو المطبخ، نادت

الشغّالة مرة أخرى، وطلبت منها أن تأخذ الصغيرة وتصنع لها شوكلاتة ساخنة، صفقت الطفلة بيديها وهرولت إلى حضن مارين.

دخلت غرفتها وأغلقت الباب، بدّلت ملابسها وارتدت بيجاما دافئة، سمعت صوت الأذان، تأخرت اليوم في العودة إلى المنزل، لم يسبق لها البقاء في الخارج حتى أذان العصر خاصة في هذا الجو البارد.

ألقت بجسدها المتعب على السرير، أغمضت عينيها لا لتنام، وإنما لتسترجع أحداث هذا اليوم العصيب. تذكرت كيف تشاجرت مع مديرتها، وكيف اتهمتها بالغرور والفوقية، بسبب عدم استجابتها لرغبتها في كتابة تقرير في أحد الطلاب، لنقله إلى مدرسة أخرى. كانت جمانة تعارض بشدة نقل الطالب، وترى أن هذا سيسبب له ردة فعل نفسية سيئة. أما المديرة فكانت ترى في حالته عبئًا على المدرسة، درجة التخلف العقلي عنده مرتفعة، ما يجعله يتصرف أحيانًا تصرفات هوجاء.

لم ترَ جمانة في سلوكه شيئًا غريبًا لا يتّسق مع وضعه العقلي والنفسي. حاولت إقناع المديرة أنّه يستجيب ببطء، وهذا مؤشر جيد، وأي تغيير فيمن يتعاملون معه سيحدث انتكاسة سلبية في سلوكه.

قالت لها المديرة الغاضبة:

- أنت تعارضين قراراتي لأجل المعارضة فقط. هذا الولد مكانه ليس هنا.

وزادها ردّ جمانة غضبًا وحنقًا حين قالت لها:

- التربوي الناجح لا ينقل المشكلة من مدرسته إلى مدرسة أخرى، بل يحاول إيجاد حلول لها.

لم تعرف ردًّا مناسبًا على كلمات جمانة العقلانية سوى أن تحوّلها إلى التحقيق، بحجة عدم تعاونها مع متطلبات العمل.

تعرف جمانة بحكم خبرتها أن هذه الأمور شكلية، ويمكنها بكل سهولة أن تفند مزاعم مديرتها حول الطالب، وخصوصًا أنّ لديها الكثير من الاختبارات التي تثبت تحسن مستواه، ولكنّها لم تستطع كبح غضبها من طريقة تفكير هذه السيدة مع فئة تحتاج إلى الرحمة والعطف أكثر من حاجتها إلى تطبيق النظريات والقوانين.

ما زاد في انزعاجها وغضبها أنها منذ يومين وهي تحاول الاتصال بيوسف، ولكن ما من مجيب. لم يخرج في أي تقرير على الشاشة منذ ثلاثة أيام. القلق ينهش قلبها، ويزيد من حدة انفعالها.

بينما هي مستلقية تذكرت صراخها على خالد، شعرت بالضيق، اعتدلت وقامت متّجهة نحو غرفته، وجدته يعبث بألعابه. شاهد أمه تقف في مدخل الغرفة مبتسمة ابتسامة عريضة، سألها:

«هل أنت غاضبة مني؟» تقدمت نحوه واحتضنته وقالت:

- لا يا حبيبي. لست غاضبة منك، ولكن لا أحبّ أن تتصرف بعدم مسؤولية.

- تقصدين الحقيبة؟

- نعم، لا يجوز أن نُلقيَ أغراضنا في مدخل المنزل هكذا.

- ولكنّ مارين ستأتي وتحملها فيما بعد.

قالت بنبرة رقيقة: «عليك أن تتحمل مسؤولية أشيائك الخاصة، ولا تنتظر من أحد أن يقوم بمهماتك. - المرء خادم نفسه، وإنّما اضطُرِرتُ لجلب مارين بسبب ظروف عملي وضيق وقتي». قبّلَتهُ على خدّيه ثمّ أمسكت بيده:

- ألستَ جائعا؟ هيّا لنتناول طعام الغداء.

خرجا إلى الصالة، كانت الشغّالة قد بدأت بتجهيز طاولة الطعام، دخلت جمانة المطبخ وجلبت باقي الصحون.

جلسوا حول مائدة الغداء وأدارت مارين ظهرها لتعود إلى المطبخ. طلبت منها جمانة أن تعود لمشاركتهم الطعام، رحبّت تاليا بالفكرة وهي تشير إليها للجلوس بجانبها. أطرقت جمانة رأسها وأخذت تسكب الطعام لأطفالها.

كانت من أشدّ المعارضين لفكرة الشغّالة المقيمة في المنزل، حرصًا على عدم تعلّق الأبناء بها، وها هي الآن تشاهد طفلتها تتعلق بمارين يومًا بعد يوم. اعتُصِر قلبُها لهذه الفكرة الطارئة. طردت أفكارها بوضع ملعقة من الطعام في فمها.

بعد الغداء طلبت من الشغّالة أن تُعِدّ لها فنجانًا من القهوة علّه يُخفِّف صداع رأسها. وجلست على الأريكة، وأدارت جهاز التلفاز، أمَلَت أن تشاهد زوجها لتطمئن، إلّا أن القناة كانت تبثّ أخبارًا رياضية، كتمت الصوت وأمسكت برأسها تضغط بأصابعها فوق جبهتها. دقّ جرس

الهاتف الأرضي، مدّت يدها والتقطت السماعة، جاءها صوت ميساء جارتها:

- مرحبًا جارتي العزيزة.
- أهلًا ميساء.
- هل أنتِ متعبة؟ صوتك ليس كالعادة!
- صداع يفتك برأسي منذ أن عدت من العمل.

لم تنتظر ميساء من جمانة أن تكمل جملتها حتى قالت على الفور:

- سأجلب لك مسكنًا قويًّا في الحال.

أرادت جمانة أن تقول: لا داعي، ولكنّ ميساء لم تُعطِها الفرصة فقد أنهت المكالمة.

دقّ جرس الباب، نهضت من مكانها لتستقبل الجارة المثابرة، دخلت ميساء ومدّت يدها بشريط من الدواء وقالت:

- حبة واحدة من هذا الدواء، وستشعرين بتحسن سريع إن شاء الله.

لم يكن في نيتها الرفض لسببين: أحدهما أنّها فعلًا بحاجة إلى مُسَكِّن يخلّصها من الطرق الذي يدقّ في رأسها، والثاني: أنّه لا فائدة من مجادلة ميساء.

جلست ميساء على المقعد القريب من المدفأة وقالت لجارتها:

- حدثيني ما الذي يزعجك؟

عادت جمانة إلى مكانها على الأريكة، ونادت الشغّالة وطلبت منها ن تجلب فنجان قهوة لميساء:

- تعرفين ضغوط الحياة والعمل.

قالت متنهدة. أحضرت الشغّالة القهوة. لم تنتظر ميساء لتضع الصينية على الطاولة، بل مدّت يدها وتناولت الفنجان وهي تقول:

- جاء في وقته.

شعرت جمانة بالمطرقة التي كانت تضرب في رأسها تهدأ شيئًا فشيئًا.

- فعلا دواؤك فعّال. لقد هدأ الصداع.

«الحمد لله» قالت ميساء، ثمّ عادت لترتشف قهوتها بهدوء وبطء.

وفجأة نظرت إلى جمانة وكان في صوتها الكثير من الجدية على غير العادة. وجَّهت سؤالًا إلى جارتها وهي تصوب نظرة ثابتة إلى عينيها:

- ما الفكرة التي تحملينها عني؟

اندهشت جمانة من السؤال، ومن النبرة الغريبة في صوتها. حاولت أن تتلطف بالجواب:

- كلّ خير!

خفضَت ميساء عينيها، وركزت في فنجان القهوة وكأنّها تستكشف ما فيه.

كانت هذه المرة الأولى التي ترى فيها جمانة جارتها الأرملة بهذه الجدّية، لكنّها لم تستطع أن تُخَمِّن ما يدور في رأسها في هذه اللحظة. لأنّ رأسها هي أيضًا مليئة بما يُقلقها، لم تجنح إلى الصمت بل بادرت جارتها السؤال مستوضحة.

– ما بك ميساء؟ هل هناك ما يضايقك؟ ما الذي جعلك تسألين هذا السؤال؟

أجابت ميساء وهي تحاول أن تحافظ على هدوئها:

– لقد رأيتِني منذ أسابيع أخرج من جمعية (الأمل للأيتام)، والتقت عيني بعينك، ولكنّك لم تسأليني أو تحاولي أن تعرفي ما كنت أفعل، وفي الحقيقة تجاهلك وعدم اهتمامك جعلني أفكر مليًّا في السبب.

أدركت جمانة للتو ما الذي يدور في رأس ميساء، فاندفعت توضّح أنّ الشمس كانت تعكس أشعتها في عينها في ذلك اليوم، وعندما فتحت الإشارة انشغلت بالطريق والتفتت بعد ذلك ولكنّها لم ترَها.

تابعت مبررة:

– قلت لنفسي: ربما يكون قد التبس عليّ الأمر بأخرى تُشبِهك.

«ألا تريدين أن تعرفي ماذا كنت أفعل في الجمعية؟» قالتها بالنبرة الجادة ذاتها.

«ميساء إذا كان هناك ما تريدين قوله لي، فأرجو أن تقوليه بلا مقدمات. لم أعتدك معقدة هكذا». وأتبعتها بضحكة خفيفة في محاولة لتلطيف الجو.

ابتسمت ميساء، ولكنّ ابتسامتها سرعان ما تحولت إلى نوبة من البكاء.

لأول مرة تشعر جمانة بالشفقة على ميساء، فهي في نظرها خالية من الهموم، وإن كانت أرملة إلّا أنها تعيش حياتها، وترسم الضحكة على وجهها، وتطلق الدُّعابات في كلّ حين.

تذكرت فجأة مقولة لسقراط: «كن لطيفًا مع كلّ شخص، فكلّ واحد منّا لديه معركته الخاصّة». تساءلت بينها وبين نفسها: ترى ما معركتك يا ميساء؟

تركتها تفرغ ما في صدرها من بكاء، فهي أكثر الناس معرفة كم يريح البكاء القلب المثقل بهمومه. ناولتها علبة المناديل وقرّبت منها كأس الماء.

مسحت ميساء دموعها وتجرّعت نصف ما في الكأس. نظرت إلى جارتها مبتسمة:

- أعتذر عن حدقي في الكلام.

وأردفت بطريقتها الفكاهية:

- اليوم دوري في البكاء.

- لا داعي للاعتذار. جميعنا يمرّ بضغوط، ولكن الآن أريد أن أعرف ما الموضوع - لذي سلب شخصيتك الظريفة وحرمني منها؟

أخبرتها ميساء أنّ أهل زوجها المتوفى، يحاولون منذ أكثر من سنة أخذ ابنها وليد منها بحُجّة أنّهم أهله ولا يريدون أن تربّيَه امرأة.

استغربت جمانة:

- امرأة؟ ولكن بأيّ حق؟ أنتِ أمّه.

- أهل زوجي - رحمه الله - يكرهونني، ويعتبرون أنني نحس على ابنهم الذي تُوفِّي في ريعان شبابه، ويريدون أن يأخذوا ابنه ليربّوه على طريقتهم، فهو من رجال عائلتهم كما يدّعون.

تساءلت جمانة:

- والبنت؟ أقصد ابنتك؟

- لا يهتمون بها، عائلة زوجي ذكورية جدًّا، البنت في نظرهم نهايتها في بيت زوجها.

- وماذا عن الجمعية؟

سألت جمانة.

- تعلمين أنّهم إذا تمكنوا من أخذ ابني منّي بحكم المحكمة، ستبقى ابنتي وحيدة، وستتأثر مشاعرها كثيرًا. ذهبت إلى الجمعية لأستفسر عن إمكانية تبنّي طفلة أربّيها، وتكون أختًا لها.

زادت دهشة جمانة من كلام جارتها، لم يخطر على بالها ولا لحظة أنّ ميساء لديها معاناة من أي نوع، ودُهشت أكثر لأنّها فكّرت بالتبني لحلّ مشكلة لم تحدث بعد. شعرت بالذنب لأنّها طوال السنين الفائتة لم تبادرها السؤال عن أحوالها. واكتفت بما ترويه هي عن نفسها مصورةً السعادة التي تعيشها مع ولديها، وأنّها راضية بقدر الله الذي حرمها من زوجها مبكرًا.

أرادت من أعماق قلبها أن تُشيع الطمأنينة في نفس ميساء فقالت:

- اطمئني. ليس لهم الحق في أخذ ابنك منك إلّا برغبته.

أطرقت ميساء رأسها وظهر الأسى في عينيها الدامعتين:

- هذا ما يؤلمني. أشعر أنّ وليد لديه رغبة بالعيش عند جدّه وأعمامه. أمس قال لي: «لماذا لا تتزوجين عمّي ونعيش أسرة واحدة؟». تصوري ابني يقول ذلك لي دون أيّ مراعاة لمشاعري.

شعرت بالحزن الذي يعتصر قلب ميساء، قامت من مكانها وجلست على حافة المقعد قربها، وربتت على كتفها قائلة:

- قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا. وليد ما زال صغيرًا ولا يحسن التصرف.

«ونِعْمَ بالله» قالت ميساء بصوت خفيض.

- هذه هي الحياة، علينا أن نخوض معاركنا فيها بقوة وصبر، ولا نجزع لحوادث الأيام، ما نخشى حدوثه قد لا يحدث، وما يقلقنا قد يكون وراءه خير لا نعلمه، وما يُبكينا قد يكشف الغشاوة عن عيوننا لتصبح نظرتُنا أكثر وضوحًا ودقة.

«ولكنّه ابني! كيف يمكنني أن أتخلى عنه؟» تساءلت ميساء بحزن.

- ولكنه هو الذي يفكّر بالتخلي أولًا. لا تجلدي نفسَك أكثر ممّا ينبغي.

- وإذا قرر فعلا أن يذهب إلى أهل أبيه، ماذا أفعل؟

- لا تفعلي شيئًا سوى أن تستمري في حياتك وتتركيه ليخوض التجربة.

أجابت جمانة، وتابعت:

- عندما ينضج ويعرف أنّ الأم لا تعوِّضها قارّة بأكملها، سيعود إلى حضنك مرة أخرى.

هدَّأت كلمات جمانة من روعها، وبثّت بعض الطمأنينة في قلبها الموجوع. لم يكن من السهل عليها تقبُّل الأمر جرعة واحدة، ولكنها أيقنت أنّ عليها أن تتجرع الواقع مهما كان، كما يتجرع المريض الدواء المرّ.

ودعتها جمانة عند الباب وهي تبتسم ابتسامة عريضة، وطلبت منها أن تعتني بنفسها.

كان المساء قد حلّ. توجهت إلى غرفة خالد وساعدته في أداء واجباته المدرسية، ثمّ جلست مع تاليا تلاعبها. شعرت أنّ حديث جارتها عن معاناتها وهمومها قد خفَّفا من شعورها السّيّئ، وكأن الله قد بعث لها ميساء لتُذَكِّرَها أنّ مصائب الآخرين تُهَوِّن علينا مصائبنا.

خلد الولدان إلى النوم بعد أن تناولا عشاءهما. دخلت غرفتها وجلست على الكرسي الهزاز المقابل للسرير، حدّقت في لوحة الدراويش المُعلَّقة على الجدار، أغمضت عينيها ودخلَت في غفوة استيقظت منها على صوت الهاتف. شاهدت اسمه على الشاشة فسحبت العلامة الخضراء وسمعت صوته يقول:

- كيف حالك؟ وكيف الأولاد؟ لم أتمكن من الاتصال بكم في اليومين السابقين، انشغلت كثيرًا بسبب تغيير مكان العمل.

قالها دفعة واحدة وكأنه يكفيها مؤونة السؤال عن سبب انقطاعه.

- المهم أن تكون بخير.
- الحمد لله، بخير لا تقلقي. كيف المدرسة والعمل؟
- حُوِّلتُ إلى التحقيق؟

قالتها ضاحكةً.

سألها باندهاش:

- تحقيق؟ لماذا؟

قصّت عليه ما حدث بينها وبين مديرة المدرسة، وكيف أنها اعتبرت عدم توقيعها على تقرير نقل الطالب كباقي المعلمات تحديًا لها.

- لا عليك، لا يمكنها فعل شيء.
- لستُ مهتمة لنفسي، وإنما أحزنني تكالبُهنّ جميعًا على الولد المسكين، لأنهنّ لا يُرِدْنَ تحمّل مسؤوليته.
- سأتحدث إليك لاحقًا. لقد حدثت تطورات كثيرة هنا، أنا الآن في (كييف) لمدة لا أعلمها. هناك بعض الطلاب المُبتَعَثين يحتاجون إلى المساعدة، وقد أنشغل معهم قليلًا في الأيام القادمة.

ثمّ أردف في عجالة:

- على فكرة، تذكرين الدكتور فارس الذي كنت أحدثك عنه؟ ابنته هنا في (كييف) مع مجموعة الطلبة المغتربين.

لم تُعلِّق على الموضوع، فقد كان النعاس قد بدأ يدبّ في جفونها، فقالت بحب:

- انتبه لنفسك وتجنب الأماكن الخطيرة.

«الحمد لله لا انفعالات اليوم» قال مازحًا.

- لن يدوم هدوئي، تعلم أنني جوزائية متقلبة.

ضحك وألقى عليها التحية وأنهى المكالمة.

قامت إلى سريرها ودسّت نفسها تحت الغطاء، نظرت إلى ساعة الحائط، كانت تشير إلى التاسعة والنصف. لم تكترث للوقت الذي ما زال مبكرًا، كان جسدها منهكًا تمامًا، ويبدو أنّ حبّة المُسكِّن التي تناولتها قد جعلت أعصابها تدخل في حالة استرخاء، ولا جدوى من معاندة الرغبة في النوم، فهي تعلم أنها ستقضي سهرتها في متابعة الأخبار فيما لو حاولت خوض معركة مع النعاس.

***

في الصباح خرجت من المنزل برفقة الولدين، كان عليها أن توصل خالد إلى مدرسته، وتاليا إلى روضتها ثمّ تتوجه إلى عملها.

بعد أن أنهت توصيل الولدين قادت سيارتها نحو المدرسة وهي تتمنى ألّا يكون وجه المديرة هو من تتصبح به. لم تكن من الذين يتطيرون، ولكنّها شعرت أنها تريد أن تبدأ نهارها وهي محافظة على تحسُّن نفسيتها. يكفيها ما قاسته في الأمس.

ما زال أمامها بضع دقائق لتصل المدرسة. استغلت وقوفها عند الإشارة الضوئية وأمسكت هاتفها وضغطت على رقم أفنان.

هتفت بفرحة كبيرة وهي تثبت السماعة في أذنها كي لا تُضطَر لحمل الهاتف في يدها.

- أهلًا أفنان.

جاءها صوت صديقتها:

- فرق التوقيت لمصلحتك هذه المرة.

ضحكت وأردفت:

- أويت للفراش منذ ساعة، الجو شديد البرودة هنا في (تورنتو)، ولكنني أُصِبت بالأرق.

- شكرًا للأرق الذي جعلني أسمع صوتك.

ضحكت أفنان مرة أخرى من تعليق صديقتها وقالت:

- تبدين في مزاج جيد؟ ماذا تفعلين الآن؟

- في طريقي إلى المدرسة. أمّا مزاجي فقد تحسن بسماع صوتك.

تساءلت أفنان:

- وما سبب تكدّره قبل الاتصال؟

قصّت عليها جمانة وهي تقود سيارتها باتجاه المدرسة ما حدث بينها وبين المديرة بالأمس، وكيف أنّها قامت بتحويلها إلى التحقيق بحُجّة أنها ليست متعاونة.

قالت أفنان باستغراب:

- أما زالت هذه الأمور تحدث في بلادنا؟

«وهل تظنين أنها لن تحدث لمجرد أنّكِ هاجرتِ إلى بلاد يحكمها روح القانون؟» ردّت بسخرية. فحاولت أفنان تغيير الموضوع قائلة:

- كيف حال الدراويش؟

- مُعلَّقون فوق الحائط؟ أتصبَّح بهم كلّ يوم وأنا أحمل دلوي الفارغ وأبحث عن الينبوع الذي في قلبي.

ضحكت الاثنتان معًا، ثمّ ودّعت جمانة صديقتها، فقد وصلت موقف المدرسة.

دخلت بوابة المدرسة تحمل حقيبة صغيرة ذات لون بنّي على كتفها، وفي يدها اليمنى حقيبة جلدية سوداء وضعت فيها جهاز الحاسوب وبعض الأوراق. كانت من الذين يحرصون على إنجاز أعمالهم أثناء ساعات العمل حتى لا تُضطَر إلى تأجيل ذلك إلى المنزل. فهي تؤمن أنّ الوظيفة يجب ألّا تستهلك حياة الإنسان الشخصية، وكم سمعت قصصًا من زميلات يراكمنَ العمل خلال وقت الدوام، فيُضطَرَرْن لاصطحابه إلى بيوتهن، ولا يجدن وقتًا لإتمامه إلّا في ساعات زائدة من السهر المرهق.

مرّت أمام مكتب المديرة دون أن تلتفت، ولم يكن لديها حصة صباحيّة، ولذلك كانت تمضي باتجاه غرفة استراحة المعلمات لتحتسيَ كوبًا من الشاي يساعدها على شحذ نشاطها وتدفئة جسمها. إلّا أنّ صوت المديرة ابتهال جعلها تتوقف. سمعت صوتها يناديها، فامتعضت وأطلقت زفرة عميقة وقالت بصوت منخفض:

- أصبحنا وأصبح الملك لله!

حاولت رسم تعبير مُحايد على وجهِها لا يشي بحقيقة تبرُّمها في هذه اللحظة، وعادت لتطرق الباب المفتوح ثمّ دخلت ملقيةً تحية الصباح.

لم تكن المديرة وحدها، بل كان هناك رجل يرتدي بدلة رمادية اللون يجلس على المقعد المقابل لمكتبها وبيده ظرف متوسط الحجم، يرسم ابتسامة لا معنى لها على وجهه. تصنعت المديرة ابتسامة وهي تدعوها للجلوس على المقعد الآخر المواجه للرجل الجالس.

جلست وهي تتساءل في سرّها: «هل جاءت لجنة التحقيق بهذه السرعة؟ وهل تتكوّن اللجنة من شخص واحد؟».

أشارت المديرة للرجل بالكلام وهي تجاهد لتبقي الابتسامة البلاستيكية على وجهها الذي بدا شاحبًا.

- تفضل أستاذ هذه هي مس جمانة.

هز رأسه مُحيّيًا وقال وهو يمد يده بالظرف نحوها:

- تفضلي أستاذة جمانة هذا الظرف لك.

بدت الدهشة على وجهها، ومدّت يدها ببطء وتناولت الظرف، عقلها يحاول في عجالة أن يُخَمِّن محتواه. هل هو بلاغ من الشؤون القانونية؟ تساءلت بينها وبين نفسها.

فتحت الظرف وأخرجت الورقة التي بداخله. كانت كتابًا رسميًّا من وزارة التعليم، وكان العنوان الرئيس للكتاب (تكليف وانتداب).

تنفست الصّعدَاء عندما وقعت عيناها على العنوان، فهو وإن كان غير مفهوم، إلّا أنّه ليس تحقيقًا قانونيًّا.

اعتدلت في جلستها وقرأت المحتوى. نظرت إلى الرجل مستفسرة ولكنّه لم يمهلها، بل خطف منها السؤال وحوَّله إلى إجابة في الحال:

– نعم كما قرأتِ. لقد تم ترشيحك وانتدابك من قبل الوزارة للقيام بمهام الإدارة بصورة مؤقتة في المدرسة نظرًا لخبرتك وشهاداتك.

فتحت عيناها مندهشة ونظرت إلى وجه المديرة، فوجدته قاتمًا مُمتَقِعًا، وإن كانت صاحبته تحاول إخفاء انفعالها وغضبها.

وقالت مرتبكة:

– لماذا؟ وكيف؟ أقصد لم أفهم!

قال الرجل بصوت جادّ:

– لقد تمّ انتداب الأستاذة ابتهال للقيام بمهام المديرة، في المدرسة الجديدة التي تمّ – افتتاحها إلى حين تعيين مديرة رسمية، وإسناد مهمة العمل الإداري هنا إليك إلى حين عودة المديرة من انتدابها.

فهمت جمانة الموضوع، وراودتها أفكار وتساؤلات كثيرة أولها: كيف يتم اختيارها لهذه المهمة وقد رفعت المديرة فيها شكوى قانونية بالأمس؟! قرّرت ألّا تستبق الأحداث، وأن تتصرف بهدوء ورويّة، استجمعت شتات فكرها وقالت بصوت رزين:

– تشرّفني ثقتكم، وأرجو أن أكون عند حسن ظنّكم.

تكدّر وجه المديرة أكثر وقالت موجهةً كلامها للرجل في محاولة مستميتة منها للسيطرة على ثبات صوتها وقوته:

– شكرًا لك أستاذ، سوف نقوم بكلّ ما يلزم لتنفيذ القرارات.

شكرها الرجل بدوره وألقى التحية عليهما، وخرج من المكتب باتجاه باب المدرسة. بقيت جمانة في الغرفة في انتظار أن تبادر المديرة بقول أي

شيء يوضح الأمر، ولكنّها اكتفت بإخراج عدة ملفات من الدُّرج، وضعتها بعصبية على سطح المكتب، وقالت دون أن تنظر إلى وجه الجالسة أمامها:

– هذه الملفات الضرورية لسجلات الطلاب في المدرسة، وباقي الأوراق الرسمية- تجدينها في غرفة السكرتيرة. يمكنك مباشرة عملك من الغد.

أرادت جمانة أن تتفوه بأي كلمة تلطِّف الأجواء، فهي وإن كانت على صراع دائم مع هذه الشخصية المتسلطة، إلّا أنها لم ترغب يومًا في أن تكون مكانها، كانت سعيدة بعملها كمعلمة، وشعرت للحظة بالشفقة عليها من هذا الموقف، ولكنّ صوت المديرة جاءها بنبرته المستفِزَّة المعتادة:

– لقد تمّ اختيارك لأنّك الأقدم بين المعلمات، ثمّ إنها فترة مؤقتة، وأرجو أن تحسني- صنعًا ولا تفسدي ما أنجزَته الإدارة في الفترة الماضية.

ابتسمت جمانة وعدَلَت عن فكرة الشفقة، وقالت:

– إذا وجدت إنجازات للإدارة فأعدك أنني لن أُفسِدَها.

ألقت قنبلتها وأدارت ظهرها، وخرجت من الغرفة وفي يدها الظرف، وتركت المديرة تستشيط غضبًا من جرأة هذه المعلمة التي لم تستطع - رغم مرور سنوات عديدة - كسر شوكتها وتطويعها، وهي الوحيدة التي لا تداهنها أو تتملّقها للحصول على رضاها. توجّهت إلى مكتبها

وجلست تتأمل الورقة التي حملها لها موظف الوزارة هذا الصباح. تذكَّرت حالتها النفسية بالأمس، وكيف تبدّلت إلى النقيض هذا الصباح. تذكَّرت ما قالته بالأمس لميساء: «ما نخشى حدوثه قد لا يحدث»، مخاوفنا تصنع من المشكلة الصغيرة جبلًا كبيرًا من الهموم. زفرت زفرة عميقة. وأمسكت هاتفها وفكرت قليلًا، ثمّ أرسلت إليه رسالة:

«ماذا فعلت لأستحق أن يجبر الله خاطري بهذه الطريقة؟»

ثمّ صوّرت الكتاب الرسمي بتكليفها بمهام المديرة وأرفقته مع الرسالة.

***

الساعة الحادية عشرة صباحًا في (كييف)، فندق البجعة يعُجّ بالمرتادين. معظمهم من أبناء الجاليات الذين يعيشون هناك، ولم يحالفهم الحظ في إيجاد وسيلة تنقلهم إلى المناطق الآمنة حتى الآن.

استيقظ يوسف في الساعة السادسة، كان قد تلقَّى خبرًا يفيد بوجود انفجارات قرب نهر (دنيبر). توجّه إلى مكان الانفجار برفقة طاقم المصورين، تلاحقت الأخبار عن الهجوم الذي أحدث صَدعًا هائلا حول المنطقة القريبة من النهر، ما أدّى إلى أضرار جسيمة.

سجّلت عين الكاميرا صورة مأساة النهر الذي لحق الخراب بجسوره، وتلوثت جوانبه التي كانت تُعَدّ قِبلةً للسُّيّاح والباحثين عن مكان هادئ في أيام الإجازة. العالم كلّه يشاهد ما يجري بقلق وخوف. عندما تندلع الحرب بين غنيّ وفقير لا أحد يخشى شيئًا، أمّا الحرب بين قوتين كبيرتين

فهي مرعبة، لأنّ أيًّا منهما لن ترضخ حتى تُبيدَ الأخرى مهما كلّف الثمن. وغالبًا ما يدفع البُسَطاء والدَّهماء والعوامّ هذا الثمن.

هذه المرة مختلفة عن السابقات، فهذه الدولة التي تُقصَف وتُدَمَّر هي التي تنتِج الخبز الذي يقتات به السواد الأعظم من أبناء هذه الكرة المستديرة!

أنهى يوسف عمله وعاد إلى الفندق، شاهدَتهُ رشا وهو يَلِج البهو مرتديًا بزّة الصحافة التي تميز الصحفيين وتعطيهم مساحة من الحرية والأمان للقيام بعملهم. نهضت من مقعدها، وتوجهت نحوه ببطء وهي تفكر كيف ترتجل سببًا للحديث معه. يمكنها أن تسأله عن أخبار السيارة التي ستُقِلُّهم إلى (لفيف). ارتاحت إلى الفكرة.

رأته يُخرج الهاتف من جيبه، ويُمَرِّر يده على شاشته، ثمّ يبتسم ابتسامة عريضة ملأت وجهه المُرهَق. تابعت خطواتِها باتجاهه وتوقفت بالقرب منه، وقالت:

- مرحبا

ردّ بسرعة رافعًا رأسه عن شاشة الهاتف.

- أهلًا جمانة.

ثمّ صحّح معتذرًا على الفور:

- أقصد رشا.

تلقيت رسالة من زوجتي للتو، فاختلطت الأسماء علي.

سر هذه الابتسامة الواسعة والعيون المتلألئة - إذاً - هو رسالة زوجته. حدّثت رشا نفسها.

سألته منذ متى وهو في أوكرانيا؟

لم يكن لها هدف من السؤال سوى أن تسمع صوته، كأنّها تريد أن تتأكد أنه ذلك الصوت المحفور في قلبها، وأن تتيح له أن يتحدث فقط مهما كان ما سيقوله.

قبل أن يجيب جاء صوت مُعاذ الذي انضمّ إليهما فجأة دون أن تشعر رشا بقدومه:

- سمعت كلمة رسالة؟ هل هي رسالة تخصنا؟

ابتسم يوسف: «لا، إنّها رسالة من زوجتي. موضوعكم لا يحتاج إلى رسائل بل إلى وقت وصبر».

قال مُعاذ وهو ينظر بطرف عينه إلى رشا موجِّها كلامه إلى يوسف:

- يراودني إحساس بأنّ عائلات الصحفيين وزوجاتهم خاصّة يعيشون في توتر دائم بسبب المخاطر التي تحيق بمهنتهم.

أجاب يوسف متنهدًا:

- كأنّك تتحدث عن زوجتي.

«أعتذر لم أقصد». قال مُعاذ.

ردّ يوسف وهو يُربِّت على كتفه:

- لا عليك دكتور مُعاذ. لم يذهب تخمينك بعيدًا. زوجتي تعيش في توتر دائم فعلًا بسبب عملي، وهذا ما يؤلم قلبي.

واستدرك مسرعًا كأنّه شعر أنّه خاض في أموره الخاصة أكثر ممّا ينبغي:

- أعني أن عملنا فيه كثير من المخاطر، وهذا يجعل مَن خلفنا يشعرون بالقلق.

ابتسم مُعاذ وهو ينظر إلى رشا موجهًا الكلام إليها:

- ما رأي دكتورة رشا في الموضوع يا ترى؟

انتبهت رشا إلى سؤال مُعاذ الذي أخرجها من أفكارها، وقالت:

- هذا شأن يخصّ الأستاذ يوسف.

«بل شأن يخصّ كل إنسان لديه عائلة يهتم بها، لا بد أنّه منشغل تمامًا بعائلته، ولا وقت لديه للانشغال بغيرها». قال مُعاذ وهو يتعمد انتقاء كلماته.

استغربت رشا من كلام مُعاذ، لأول مرة منذ عرفته يتكلم بهذه النبرة، عهده الجميع شخصا جادًّا لا يدخل في نقاشات شخصية. وهي لم تفهم قصده، فليس من عادته أن يُبَطِّن كلامه. شعرت أنه يقصدها. لكنها تراجعت عن الفكرة، وماذا يعرف عنها حتى يتعمد قول ما قال.

ودعتهما رشا مبتعدة، وعادت إلى حيث كانت تجلس في بهو الفندق، ولم تمرّ بضع دقائق حتى انضمت إليها نوران ومنار.

كان مُعاذ ما يزال واقفًا مع يوسف. عرض عليه أن يتناول معه إفطارًا خفيفًا، فهو لم يتناول شيئًا منذ الصباح. وافق يوسف بلا تردد فهو يتضوّر

من الجوع، جوّ المدينة البارد حرق ساندويتش الجبن الذي تناوله صباحًا.

جلس الاثنان إلى الطاولة في المقهى، لم تمرّ عدة دقائق حتى جاءهما الجرسون بكوبين من الشاي وفطيرتي (بيروشكي) محشوّتين بخلطة من اللحم والخضار. قال يوسف وهو يقضم قضمة كبيرة من فطيرته:

- (البيروشكي) من أشهر الأطعمة في أوكرانيا وروسيا، ويتفنّنون في حشواتها، ولكن أغرب حشوة تذوقتُها هي الملفوف.

عقّبَ مُعاذ بضحكة خفيفة:

- ما شاء الله معلوماتك في المطبخ الأوكراني جيدة.
- عشت في لينينغراد سنتين، جئت للدراسة ولكنني لم أكمل مساري.

قال مُعاذ بدهشة: إذًا أنت تعرف الروسية!

ابتسم يوسف ورد بكلمة روسيّة مؤكدًا معلومة مُعاذ:

- كانيشنا.

قطع صوت الهاتف حديثهما، كان يوسف يجيب بكلمات مقتضبة وهو يهز رأسه. ظهر الارتياح على وجهه. أنهى المكالمة وقال:

- يبدو أنّه تم تأمين السيارة التي ستُقِلُّكم إلى (لفيف). المتصل رجل يمتلك مطعمًا في (ماريوبل). تعرفتُ عليه عند قدومي إلى هناك. كان قد أخبرني أنّ من رواد مطعمه شخصيات كثيرة من (كييف)،

كوّنَ لنفسه علاقات جيدة مع كثير منهم. تواصلت معه منذ يومين وطلبتُ منه المساعدة، ويبدو أنّ علاقاته آتت ثمارًا طيبة.

كان مُعاذ يستمع إلى يوسف باهتمام وهو يضع باقي الفطيرة في الصحن.

سأل وهو يمسح يديه بمنديل ورقي: «ومتى يمكننا التحرك؟».

- في أقرب وقت. ربّما في الغد أو بعد غد. أخبر البقية أن يكونوا على استعداد.

كانت رشا طوال الوقت تراقبهما، لم تكن تصغي تمامًا لكلام نوران، كان كلّ ما تفكر فيه هو: هل ستتجاوز هاتين المحنتين: محنة الحرب، ومحنة لقاء يوسف من جديد؟

استيقظ الجميع باكرًا في اليوم التالي على صوت انفجار هائل هز أرجاء الفندق. خرج الجميع من غرفهم، كانت صفارات الإنذار تدوي في الأرجاء، وصوت عبر الميكروفون يطلب من جميع النزلاء التوجه إلى القبو في الطابق الأرضي حرصًا على سلامتهم. اتجه الجميع إلى القبو ما عدا يوسف وزميليه المصورين. ارتدوا ستراتِهم وخوذَهم وأحكموا إغلاقها حول ذقونهم، خرجوا من الفندق وتوجَّهُوا إلى مكان القصف الذي استهدف أحد المصانع الهامة في المدينة، كان عليهم أن يغطوا الخبر في بثّ مباشر.

تجمّع نزلاء الفندق في القبو، المكان عبارة عن صالة واسعة جدًّا تحت الأرض، مُجهَّزة بمقاعد كثيرة منتشرة حول الصالة. أجالت رشا عينيها في

المكان كأنّها تعقد مقارنة بينه وبين القبو الآخر الذي عاشوا فيه لعدة أيام.

جاءها صوت نوران:

- أصبحنا خبرة دكتورة رشا، لم نعد نرهب صوت صافرات الإنذار.

«ولا حتى النزول إلى الملجأ» ردّت رشا بتهكم، ثمّ كزت على أسنانها وهي تمسك يدها التي تعرضت للحرق. لاحظت نوران ذلك فقالت:

- هل ما زالت تؤلمك؟

- نعم، يبدو أنّ مكان الحرق تعرض للالتهاب، نسيت أن أغيِّر الضمادة التي وضعها دكتور مُعاذ.

شهقت نوران بصوت مرتفع: «كيف نسيتِ ذلك؟ لقد مرّ أكثر من اثنتي عشرة ساعة، ألم تضعي من مرهم الحروق؟».

«المرهم بقي مع الدكتور مُعاذ وخجلت أن...» توقفت عن الكلام ثمّ استدركت: «لا بد من وجود صيدلية داخل الفندق، سآخذ ما أحتاجه بعد أن يهدأ الوضع».

استغربت نوران كلام زميلتها. تعرّفت إلى رشا منذ أول يوم دخلت فيه الجامعة الطبية في (كييف)، تعرفت إلى شخصيتها عن قرب، وكشفت كلّ واحدة منهما للأخرى كثيرًا من الأشياء التي تدور في عقلها، وتشغل بالها، ولطالما تبادلتا الآراء والنقاشات حول تقاليد بلديهما، القرب من شخص غريب يجعلُك أكثر حرية في التعبير عن نفسك، وهذا ما فعلته رشا التي تصغر نوران بعام واحد. ومع الأيام كوّنت نوران صورة عن شخصية رشا، تعرف حقّ المعرفة أنها فتاة قوية من الداخل على عكس ما تظهره

انفعالاتها الخارجية، وتعرف أنها رضخت لرغبة والديها بدراسة الطب، وهي وإن تفوقت في الجانب النظري منها، ما زالت تسير ببطء في الجانب العملي.

رشا ليست مِمَّن يهملن إتمام الأمور على وجهها الصحيح، وهذا ما جعلها تشعر بالاستغراب من عدم اكتراثها بتبديل الضمادة، وهي تعلم أنّ ذلك قد يسبِّب تلوثًا للمنطقة المصابة.

فجأة ظهر مُعاذ برفقة عبد العزيز والآخرين، هتفت نوران وهي تنظر إلى رشا مؤنبةً:

- أسعفنا يا دكتور مُعاذ، يبدو أن الحرق الذي تسببت به القهوة تحول إلى التهاب في يد رشا!

لم تعجب رشا بكلامها وقالت بنظرة ملؤها الاستنكار:

- تُهوِّلين الموضوع نوران، كلّ شيء على ما يرام.

انتبه مُعاذ إلى رشا تمسك يدها المصابة بيدها الأخرى، هذا يعني أنها تشعر بثقل في تلك اليد، ما يدلّ على وجود ألم فيها. خمّن الطبيب ما حدث وقال:

- لا بدّ أنّكِ أهملتِ تغيير الضمادة ووضع المرهم المضاد للحروق.

تطوعت نوران للردّ:

- المرهم في حقيبتك وهي تخجل من سؤالك إياه.

استشاطت رشا غضبًا وحنقًا من مواصلة زميلتها الحديث عنها بهذه الصورة أمام دكتور مُعاذ. شاركهم عبد العزيز الحوار موجِّهًا كلامه لرشا:

- لديّ مرهم ولكنّه بقي مع أغراضي في غرفة الفندق. عندما يهدأ الوضع ونصعد إلى الغرف سأعطيك إياه.

شكرته رشا بلطف، وحاولت تغيير الموضوع بسؤالها عن يوسف، حيث لم ترَه يدخل إلى القبو.

بضحكة لا تناسب ما هم فيه قالت نوران:

- لو كنت صحفية، هل كنت ستختبئين في الملجأ؟ أم تخرجين لتوثيق ما يحدث - ليعرف العالم حقيقة ما يجري؟

تنهدت رشا، وعرفت أنّها وقعت مرة أخرى في مصيدة لسان صديقتها، فردّت على كلامها بابتسامة مردِّدةً:

- حتى الحرب لم تنقذني من انتقادك.

كان صوت صفارات الإنذار ما يزال مسموعًا، ما يعني أنّ الوضع ما زال غير آمن، تساءل مَن في القبو عن الموقع الذي تم قصفه وأحدث هذا الدوي الهائل. جاء الجواب عبر شاشة التلفاز، مصنع للآليات الثقيلة اشتُهِرَ بصناعة أكبر طائرات في العالم.

كشفت الصور التي ظهرت على شاشة التلفاز المثبتة على الجدار دمارًا كبيرًا في أنحاء المصنع الذي تحوّل إلى مكان مليء بالخردة والجدران المتهاوية. حجم الخراب الذي أحدثه القصف بطائرات الميج يبعث الألم في النفس. «كيف تستطيع نوازع الشر التي تحكمها المصالح تدمير جهد مئات من العلماء والخبراء والعاملين؟» تساءلت رشا بينها وبين نفسها.

تلفتت حولها وهي تمسك طرف الضماد من الأعلى محاولة ألّا يلامس جلدها، ازدادت لسعة الألم وشعرت بحرارة مكان الحرق، لامت نفسها لأنها نسيت إحضار حقيبتها الخاصة بالإسعافات الأولية. توجهت نحو أحد المقاعد وجلست واضعة يدها المصابة فوق ركبتها، خطر لها أن تفكّ الضماد قليلًا، بدأت بالمهمة الصعبة، فجزء منه التصق بالجلد المحروق فعلًا. وهذا ما يسبب لها الألم، بدا الأمر صعبًا، لكنّها لن تغامر بطلب مساعدة نوران التي ستقصفها مرة أخرى بانتقاداتها اللاذعة.

شاهدت قدمين تتوقفان أمامها، رفعت رأسها فإذا هو دكتور مُعاذ وبيده حقيبته. قبل أن تتفوه بأي كلمة سحب أحد المقاعد القريبة وجلس تمامًا مقابلها، أخرج بعض الأدوات من الحقيبة ووضعها في حجره، ثمّ أغلقها ووضعها فوق ركبتيه.

بهدوء وبرباطة جأش الطبيب الواثق من نفسه، سحب يدها الملفوفة بالضّماد ووضعها فوق الحقيبة القابعة فوق ركبتيه، طلب منها أن تبسط يدها تمامًا. وضع بعض الكحول فوق قطنة طبية، أخذ يرطب الضماد الذي التصق بالجلد حتى يتمكن من رفعه، شعرت بلسعة الكحول مثل الكهرباء، ولكنّها تمالكت نفسها وكزّت على أسنانها، فهي وإن كانت تدرس الطبّ إلا أنّها لا تتحمل الألم جيدًا.

لم تحاول اعتراض ما يفعله، كانت بحاجة فعلًا إلى تعقيم الإصابة ومعالجة الالتهاب. أنهى المهمة ووضع كمية وفيرة من المرهم الطبي المضاد لالتهابات الحروق فوق الجلد المُحمَرّ. لم يقم بتضميده ولم

تعترض، فهي تعرف أنّه لم يفعل كي لا يلتصق الضماد بالجلد مرة أخرى. تراجع بكرسيّه إلى الخلف، وجمع أدواته وانشغل بوضعها في الحقيبة دون أن ينبس ببنت شفة . ثمّ قام من مكانه وهو يوصيها بعدم تغطية الإصابة.

شاهدته وهو يتوجه نحو الركن الذي اختاره لنفسه داخل الملجأ مع باقي المجموعة، وانهمك في الحديث الذي كان دائرًا بينهم، لا يحتاج الأمر إلى كثير من الذكاء لتُخمِّن الموضوع الذي تدور حوله النقاشات. لن يناقش أحد أشعار بوشكين أو روايات ديستويفسكي في هذا المكان. مطّت شفتيها مستهزئة من الفكرة.

قطع صوت الهاتف حوارها الداخلي، سحبت هاتفها من الحقيبة لكنّه كان صامتًا، لم تكن نغمة هاتفها على كلّ حال. الصوت قريب منها التفتَت فوجدت هاتفًا على المقعد الذي كان مُعاذ يجلس عليه. قامت من مكانها ونظرت إلى الهاتف عن قرب، كان هاتف الدكتور مُعاذ، يبدو أنه نسيه في غمرة انشغاله بجمع أدواته الطبية.

كانت بصدد أن تُمسِك الهاتف وتذهب به إلى حيث يقف صاحبه، ولكنّ الرقم الذي ظهر على شاشته جعلها تتسمر في مكانها مندهشة، كيف لها ألّا تعرف رقم والدها الدكتور فارس! وإذا كانت أخطأت في الرقم فإنّ الاسم المُخزَّن على الهاتف لن يخطئ، كان اسم والدها يظهر على شاشة الهاتف، وصمت الرنين فجأة.

عادت إلى مقعدها والدهشة تسيطر عليها تمامًا. لماذا يتصل والدها بالدكتور مُعاذ؟ وكيف يعرفه؟ ولماذا لم يخبرها مُعاذ أنّه يعرف والدها؟ أم أنّ التعارف حصل في ظروف الحرب؟ لماذا لم يذكر أيٌّ من مُعاذ أو والدها معرفته بالآخر. بقيت صامتة وأغمضت عينيها وعادت برأسها إلى الخلف مستندة إلى ظهر المقعد.

سمعت حركةً حولها. عرفت أنّه عاد ليأخذ هاتفه المنسي، أحكمت إغلاق عينيها وتظاهرت بأنّها لم تشعر بمجيئه.

شعرت بحركة أقدام وأصوات، فتحت عينيها، شاهدت نزلاء الفندق يخرجون من الملجأ. يبدو أنّ صافرات الإنذار توقفت، نظرت إلى ساعة يدها، لا بدّ أنها غفت قليلًا. شعرت بألم في رقبتها، حركتها يَمنةً ويَسرةً لتتخلص من آثار التشنج فيها، جاءت نوران برفقة هند.

أخبرتها أن الوضع آمن للعودة إلى الفندق. قامت من المقعد بتثاقل، ظهرها متيبس بسبب جلوسها لفترة طويلة، حركّت ذراعيها محاولة أن تستعيد مرونة جسدها. تذكرت اسم والدها ورقمَه اللذين ظهرا على هاتف مُعاذ، وعادت الأسئلة إلى رأسها، فضلت ألّا تتكلم أمام زميلتيها، فالأمر في النهاية يعنيها وحدها.

خرج الجميع من الملجأ، وتوجه كلّ شخص إلى بغيته، معظم النزلاء صعدوا إلى غرفهم طلبا للراحة. بعضهم توجّه إلى المطعم لتناول وجبة تعيد إليه النشاط والقوة والدفء، قلة منهم جلسوا في المقهى يتناولون القهوة، بينما يتصاعد دخان السجائر من أفواه بعضهم. لم تكن السجائر

مسموحة في المقهى قبل الحرب، ولكن يبدو أنّ بعض الاستثناءات تفرض نفسها أحيانًا.

توجهت مجموعة الطلاب العرب نحو المطعم باقتراح من فادي، فهم لا يعرفون ما تحمله الساعات القادمة، وعليهم أن يملؤوا بطونهم بالوقود كما قال مازحًا. أمسك كل واحد منهم بصحنه الفارغ، وقام بملئه من الأصناف التي تمتلئ بها طاولات البوفيه. يبدو أنّ المطعم الرئيسي في الفندق مستعد تمامًا للطوارئ. تبادر إلى أذهانهم. عادوا إلى الطاولة، وانهمك كلٌّ منهم بتناول طعامه، كان تناول الطعام فرصة لرشا لتغوص في داخلها في محاولة لإيجاد إجابة مقنعة تفسر بها سبب إخفاء مُعاذ لتواصل والدها معه. ربما توصل والدها بطريقته الخاصة إلى رقم هاتفه للاطمئنان عليها، لماذا تفترض أنّهما يعرفان بعضهما من قبل؟

يبقى السؤال: ما الذي يجعل مُعاذ يخفي ذلك عنها. كانت تمضغ الطعام ببطء وهي تطلق العنان لأفكارها. انتبهت نوران إليها فبادرت بالقول:

- أنصحك بتناول الطعام دكتورة رشا، الله وحده يعلم هل سيستمر هذا الترف طويلًا.

«لماذا التشاؤم دكتورة نوران؟» قال عبد العزيز في محاولة لتلطيف الأجواء المشحونة بالقلق.

لم تردّ رشا على ملاحظة صديقتها بل تابعت تناولَ طعامها، وكذلك فعل مُعاذ والبقية. الجميع فضّلوا العيش مع أفكارهم في هذه اللحظة.

«لكلّ إنسان في هذه الحياة رحًى تدور بين ضلوعه، وقودها مشاعره وأفكاره وجهازه العصبي». حدثّت نفسها.

انتهَوا من وجباتهم. اقترحت نوران أن يحتسوا القهوة. رحب البقية بفكرتها التي كانت تعشش في أذهانهم جميعًا، بل كانوا يُصَبِّرون أنفسهم حتى ينتهوا من تناول الطعام ليتسنى لهم تناول كوب من القهوة الساخنة علّها تعدل أمزجتهم، وتخفف الصداع الذي تدق شواكيشه في رأس كلٍّ منهم. وحدها رشا أبدت رغبتها بالذهاب إلى غرفتها، كان تشنج رقبتها قد ازداد مع وضعية الجلوس إلى طاولة الطعام. وضعت يدها اليسرى خلف رقبتها وقالت:

- سأرتاح قليلًا في الغرفة. يبدو أن رقبتي التوت أثناء غفوتي على كرسي الملجأ.

رفع مُعاذ بصره فجأة نحوها، أراد أن يتكلم لكنّ أمرًا ما خطر له منعَه من ذلك.

ودّعت رفاقها واتجهت نحو المصعد، غابت عن أعينهم بعد أن أغلق المصعد بابه وارتفع بركابه للأعلى.

دخلت رشا غرفتها وألقت جسدها على السرير، شدت الغطاء فوق جسمها، لا يحتمل الوضع أن تصاب بنوبة برد أيضًا مهما كانت الغرفة دافئة. سمعت طرقًا خفيفًا على الباب أعقبه صوت فتح قفل ثمّ دخلت نوران التي كانت تحمل بطاقة دخول الغرفة التي تتشاركها مع صديقتها. كانت تمسك بشريط من الدواء ناولتها إياه قائلة:

- هذا سيخفف ما تعانينه من ألم وتشنج في رقبتك.

صوبت رشا نظرة متفحصة إلى نوران وقالت:

- هل دكتور مُعاذ هو من أعطاك الدواء؟

«نعم» قالت نوران بغير اكتراث.

رفعت رشا جسمها بهدوء واضعة يدها خلف رقبتها كدعامة، جلست على حافة السرير وتناولت الدواء من يد نوران وابتلعت حبة، تذكرت أنها تحمل مثل هذا الدواء في حقيبة أغراضها. لقد نسيته تماما. عادت للاستلقاء على السرير. تثاءبت نوران وقالت يبدو أنني سأفعل مثلك. واستلقت على السرير الآخر في الغرفة وغطّت كلٌّ منهما في نوم عميق لم يقاومه جسداهما المتعبان.

اهتز الفندق بمن فيه، استيقظ كلّ النزلاء الذين دخلوا غرفهم طلبًا للقليل من النوم، وهربًا من الاجهاد والتوتر والقلق. كان صوت الانفجار قويًا إلى درجة أنّ الجميع ظنُّوا أنه تمّ قصف الفندق. تدافع عدد كبير منهم نحو الملجأ ثانيةً، لم يكن هناك صوت لصفارات الإنذار، ولكنْ مَن قال إنّ إحساس الإنسان بالخطر يحتاج إلى نذير؟

خرجت الفتاتان من غرفتهما، مدّت نوران يدها بسرعة إلى معطفها المعلق خلف الباب، تلفتت رشا فلم ترَ معطفها، توجّهت نحو الخزانة لتأخذ غيره لكنّ الغرفة ارتجّت حتى خُيِّل لهما أن سقفها سيهوي فوق رأسيهما، أمسكت نوران بيدها قبل أن تفتح الخزانة ودفعتها نحو الممر وركضتا مسرعتين، وقفزتا درجات السلّم مع زمرة القافزين وبعد دقيقتين

وجدتا نفسيهما في البهو، كانت بقية المجموعة تقف وعلى الوجوه قلق واضح، تساءلت نوران بتأفف:

- والآن ما الذي حدث من جديد؟

قال مُعاذ وهو لا يخفي نظرة مستنكرة صوّبها نحو رشا: «قُصِفَت محطة القطارات القريبة من الفندق، الأخبار تقول إنّ قصفها كان خطأ في- إحداثيات الموقع. حيث كان القصف موجَّها إلى أحد المباني العسكرية». تابع وهو يفرك يديه بعصبية ظاهرة:

- علينا أن ندخل الملجأ فهو أكثر أمانًا من التواجد هنا، محطة القطارات قريبة جدًّا من الفندق، هذا يعني أننا في مرمى الطائرات المقاتلة.

أطرق رأسه قليلًا وهو يقول:

- أتمنى ألّا يحدث خطأ آخر في تحديد أهدافهم.

لم يُعَقِّب أحد على كلامه بل توجهوا جميعًا نحو السلّم الذي ينزل إلى الملجأ. ضمّت رشا ذراعيها، شعرت بالبرد، فكرت للحظة: هل تعود إلى الغرفة لجلب المعطف؟ لن يستغرق الأمر دقيقتين. بينما هي تفكر في الأمر، انتبهت إلى أنّ الجميع توجّهوا إلى القبو وبقيت وحدها، سمعت صوت مُعاذ يأتيها من الخلف متسائلًا:

- هل ستبقين هنا؟ كيف تخرجين بهذه الملابس؟ هل أنت جديدة على طبيعة الجو هنا؟

تفاجأت من أسئلته المتتالية وردّت باقتضاب:

- لم تمهلني نوران لجلب معطفي.

فجأة شاهدته يخلع معطفه ويتقدم ليضعه فوق أكتافها. شعرت بالحرج والخجل معًا، أحسّت أن دماءها تتصاعد لتتجمع في وجهها، أو أنّ أحدًا ما أشعل النار في وجنتيها. قبل ان تنطق بكلمة أو تحاول أن تعيد إليه معطفه، كان قد مشى أمامها وهو يستحثها أن تسرع، فأصوات الطائرات يكاد يخترق السمع ويذهب بالقلب.

في القبو كان البعض متجمهرًا حول شاشة التلفاز والبعض الآخر يتابع الأخبار عبر هاتفه. كان الخبر العاجل المثبت على الشاشة هو تعرض بعض الطواقم الصحفية العاملة في (كييف) لنيران القصف غير المتعمد. ثبتت رشا نظرها على الخير قرأته عدة مرات. ارتعد قلبها هلعًا، قالت فجأة:

- أين الأستاذ يوسف؟

انتبهوا جميعًا إلى سؤالها وشعروا بالقلق مثلها، فيوسف غادرهم منذ الصباح لتغطية أخبار قصف المصنع، إلّا أنه لم يعد مع فريقه إلى الفندق حتى الآن. سأل عبد العزيز موجِّها كلامه إلى مُعاذ:

- ألم يتصل بك؟

«لا» لم يفعل ردّ مُعاذ باقتضاب بعد أن تسلل القلق إليه أسوة بهم.

يوسف كان بالنسبة لهم طوق النجاة للخروج من (كييف) والعودة إلى بلادهم.

تملّكها الخوف وشعرت بأن ضربات قلبها تعلو و تعلو حتى خُيِّل لها أنّ جميع من في القبو يسمعونها، ودون أن تتفوه بكلمة توجهت نحو باب

القبو راكضة، انتبه مُعاذ فلحق بها، سمعت صوته يأتيها من الخلف ويطلب منها أن تتوقف، لكنها لم تفعل ولم تلتفت إليه.

خرجَتْ من الملجأ وصعدت إلى البهو، توجَّهَتْ إلى موظف الاستقبال الذي كان منهمكًا بالحديث عبر جهاز اللاسلكي مع غرفة التحكُّم في الفندق. تبعها مُعاذ وسمعها تسأل الموظف عن الصحفي يوسف، أجابها: إنه لم يعد منذ الصباح، وإن مفتاحي غرفته والغرفة الأخرى التي يشغلها طاقمه ما زالا موجودين في مكانهما. تراجعت رشا إلى الخلف وأدارت وجهها، فإذا بها تقف وجهًا لوجه أمام مُعاذ. لم تتحدث إليه، تركته واقفا في مكانه، وذهبت لتجلس على الأريكة الجلدية في البهو.

كان البرد قارصا فاضطرت أن تدس يديها في أكمام المعطف الكبيرة.

كان عقلها يفكر في كثير من الأمور، أخرجت هاتفَها وفتشت فيه عن رقم يوسف، وقف مُعاذ قرب الأريكة وقال بنبرة أشبه بالأمر منها إلى الطلب:

- علينا العودة إلى القبو، الوضع ما زال خطيرا، بالنسبة للأستاذ يوسف حاولت الاتصال به لكنه لا يجيب، لا بد أنه مشغول.

«وماذا لو كان مع الصحفيين الذين تعرضوا للقصف؟» قالت بعناد واضح.

- لم تذكر الأخبار أنّ الصحفيين تعرضوا للقصف بل تعرض البعض منهم لإصابات بسبب القصف، ولا أحد يعرف حجم هذه الإصابات، ولم تُشِر الأخبار إلى أنّ أحدًا من الصحفيين في خطر.

قالت رشا بانفعال:

- وهل ننتظر مكتوفي الأيدي حتى نتأكد أنه مصاب بإصابة خطيرة؟

خرج مُعاذ عن هدوئه وقال بانفعال أيضًا:

- وماذا نفعل؟ هل نخرج لنبحث عنه مثلا؟ أم ننادي في الشوارع والطرقات من رأى منكم صحفيًّا ضائعًا؟

شعرت بالحنق من كلام مُعاذ، واندفع الكلام من فمها بلا تفكير. فكرت أنّ الموقف يستلزم منها أن تخلع معطفه وتعيده إليه كما شاهدت ذات مرة في أحد الأفلام، لكنها لم تجرؤ على التخلّي عن الدفء الذي يبعثه في أوصالها. قالت بإصرار:

- إذا لزم الأمر سأفعل ذلك، ولا تظنّ أنني سأنتظر موافقتك.

حاول مُعاذ أن يستعيد رباطة جأشه، فقال متكلفًا الهدوء:

- دعينا نكمل هذا النقاش في القبو، فالوضع هنا خطير، حتى الموظفون دخلوا للاحتماء به.

دوّى صوت يشبه فرقعة إطار شاحنة كبيرة، تبعه صوت أزيز ثمّ صوت يكاد يصم آذانهم ركض الاثنان باتجاه السلّم الذي ينزل إلى القبو، ركضت نوران وعبد العزيز وزياد باتجاههما، الكلّ يتساءل ما الذي حدث؟ والكلّ لا ينتظر إجابة من أحد.

لم يفت نوران المعطف الذي ترتديه رشا. أرادت أن تستفسر لكنّها تراجعت عندما شاهدت حالة الانفعال التي كانت فيها.

تسمر الجميع خلف شاشة التلفاز، الأخبار تتحدث عن قصف روسي على منشآت صناعية أوكرانية، المحللون العسكريون الذين يظهرون على

الشاشة تباعًا يتنبؤون بحرب طويلة الأمد، انقبض قلب رشا واكفهرّ وجه مُعاذ، أمّا نوران فانكمشت على أحد المقاعد، بينما انشغل البقية بهواتفهم وبإرسال رسائل طمأنة كاذبة لعائلاتهم.

مضت ساعتان على وجودهم داخل القبو، كانت الأصوات قد صمتت تمامًا، استنفد الجميع رغبتهم في الكلام أو السؤال. وإذا كانت الألسن قد اختارت الراحة فلن تستطيع القلوب والعقول أن تحذوَ حذوها. المعركة التي تدور داخل أفئدة هؤلاء الذين جمعهم القدر في هذا المكان، تتساوى ضراوتها مع المعركة الدائرة خارج جدرانه. تتلاطم الأفكار والتكهنات والتخمينات في داخلهم، فتظهر آثارها اكفهرارًا وعبوسًا وزفراتٍ لا تنتهي.

هدأ صوت الانفجار وتوقف القصف منذ ساعة. ولكنْ فضَّل الجميع عدم التسرع بالخروج من القبو خوفًا من حدوث شيء مباغت. وعلى الرغم من معرفتهم بقوانين الحروب التي تمنع قصف المنشآت المدنية كالفنادق والمدارس والمستشفيات، إلّا أنّ أحدًا منهم لا يصدق أنّ للحرب قانونًا أخلاقيًّا يحكمها، وهذا ما كان يثير الرعب في قلب رشا كلّما تذكرت أنّهم لا يعرفون شيئًا عن يوسف منذ الصباح.

بعد مرور الساعة الثالثة على وجودهم فيه، جاء نداء عبر مكبر الصوت يدعو جميع النزلاء إلى الخروج بعد أن هدأت الأوضاع. صعد بعضهم إلى الغرف وفضل بعضهم الآخر البقاء في البهو تحسُّبًا من قصف جديد. اتخذت رشا ونوران مكانًا بعيدًا عن تجمع بقية النزلاء، كانت رشا مشغولة بالبحث عن رقم يوسف في هاتفها الذي خزَّنته منذ اتصاله الأول

بها عندما كان في (ماريوبل). حاولت الاتصال بالرقم لكنّها وجدت شحن هاتفها يقارب على النفاذ ولن يسمح لها بإتمام الاتصال. طلبت من نوران أن تعيرها هاتفها.

ناولتها نوران الهاتف دون أن تسألها، كانت في حالة إجهاد نفسي وجسدي كبيرين.

طلبت الرقم من هاتف نوران، سمعت صوت الصافرة على الطرف الآخر لكن لا أحد يجيب. كررت الاتصال مرة ثانية وباءت محاولتها بالفشل. ازداد الانقباض في قلبها، هل حدث له مكروه؟ تساءلت بينها وبين نفسها.

شاهدت مُعاذ يتكلم في الهاتف وتبدو على وجهه علامات القلق، ثمّ هرع إلى موظف الفندق وتحدث إليه باهتمام، ثمّ عاد ليتحدث في الهاتف من جديد. لم تمضِ خمس دقائق حتى سمع الجميع صوت سيارة إسعاف. كان الصوت قريبًا. أسرع مُعاذ مرة أخرى إلى الموظف وكلَّمَه، أجرى الموظف اتصالًا، وفجأة ظهر أحد العمال يدفع كرسيًّا متحركًا نحو مدخل الفندق. خرج مُعاذ برفقة العامل وأشار لعبد العزيز وفادي أن يتبعاه. خرجوا جميعًا من باب الفندق . ولم تمضِ دقائق حتى ظهر مُعاذ وهو يدفع الكرسي المتحرك إلى داخل البهو.

على الكرسي جلس شابّ في الثلاثين من عمره، عرفت رشا أنّه المصور الذي كان برفقة يوسف. وقبل أن تتقدم لسؤاله، ظهر يوسف خلفهم وقد وُضِعَت يده اليسرى في ضِمادة وعلقت في رقبته. وآثار دماء على جانب وجهه الأيمن وجبهته. هُرِع الجميع نحو الصحفيين، وتجمَّع

نزلاء الفندق الذين كان معظمهم من المغتربين العرب والأفارقة حولهما متسائلين عمّا حدث.

طمأن يوسف الجميع بكلمات موجزة، وأشار لهم بأنّهما بحاجة إلى الراحة، فانفضّوا من حولهما. وبقي مُعاذ وعبد العزيز وانضمت إليهما رشا ونوران. قبل أن يسأل أحد ما الذي حدث قال يوسف:

- تعرضنا للإصابة بسبب انهيار جزء من أحد المباني التي كنا نصور قربَها بسبب انفجار قريب، ولكنْ الحمد لله لم نصب بأذى كبير.

وأشار إلى زميله المصور وأكمل حديثه:

- التوَت قدمه بسبب سقوطه على الأرض وهو يحمل الكاميرا، أمّا أنا فالحمد لله كسر بسيط وخدوش في الوجه كما ترون.

لم يأتِ أحدٌ بأي تعليق سوى أمنيات السلامة لهما. فقد بدا الإجهاد واضحًا عليهما. وقرّرا التوجه إلى الغرف لأخذ قسط من الراحة قبل أن تحدث مفاجآت جديدة.

كانت الساعة قد شارفت على الثامنة مساء، صعد الجميع إلى غرفهم، كانوا بحاجة إلى الراحة بعد ما مرّوا به خلال اليوم. دخلت نوران وتبعتها رشا وانضمت إليهما منار وهند، اقترحت نوران أن تطلب وجبة خفيفة، لم تعارض الأخريات، أمسكت هند الهاتف الأرضي وضغطت على رقم خدمة الغرف، وطلبت عشاء خفيفًا لأربعة أشخاص، لعلّ امتلاء أمعائهن يساعدهنّ على النوم.

سألت نوران رشا عن المعطف. ضربت رشا جبهتها بيدها، لامت نفسها كيف نسيت إعادة المعطف إلى مُعاذ. ألقته على المقعد القريب،

وتوسّلت إلى نوران أن تقوم بمهمة إعادته بدلًا منها، بعد ما حدث بينهما من جدال هذا اليوم.

دخل يوسف غرفته، وجلس على المقعد وعاد بظهره إلى الخلف وهو يمسك بيده اليمنى كتفه اليسرى، أغمض عينيه وتراءت له صورة الانفجار الذي كان يبعد عن مكانهما عدة أمتار. كان موقعه مكشوفًا، وكان هو والمصور يرتديان بزتيهما الخاصتين بالصحفيين، لم يكونا الوحيدين في المكان، فعلى مقربة منهما كان بعض الصحفيين الذين انهمكوا في بثّ مباشر، كيف يمكن أن يستهدفوا مكانًا يقف فيه عدد من الصحفيين ومراسلي القنوات! كان الموت على بعد أمتار منه.

تذكّر أبناءه وزوجته وأمّه، شعر برغبة جارفة للحديث مع جمانة، ولكن كيف يمكنه أن يكلمها وهو بهذه الحالة من الإعياء والتعب، سوف تحاصره بأسئلتها حتى يضطر لإخبارها بإصابته. وهو لا يريد أن يُسبِّب لها القلق والهلع.

لم يتركه رنين الهاتف لأفكاره، نظر إلى شاشته كان رقم الرجل الذي كلفه بالبحث في أمر السيارة، جاءه صوت الرجل الأجش يخبره أنه وجد حافلة صغيرة وافق صاحبها على نقل الطلاب إلى (لفيف) مقابل مبلغ كبير من المال. لم يجادل يوسف حول قيمة المبلغ المطلوب كان يعرف أنها فرصة قد يصعب تعويضها في الظروف الحالية، فوافق على الفور. وأبلغه الرجل أنه سيعاود الاتصال به لتحديد موعد مع صاحب الحافلة.

أغلق هاتفه، ولم يلبث أن سمع طرقًا خفيفًا على الباب، كان مُعاذ يحمل بين يديه كوبًا من القهوة الساخنة وكيسًا ورقيًّا فيه قطعة كبيرة من

خبز (البابكا). تناول يوسف الوليمة التي جلبها مُعاذ، بينما كان الأخير يلوذ بالصمت منتظرًا أن يسري مفعول القهوة في جسد يوسف. انتهى من تناول قطعة الخبز وظل يرتشف ما تبقى من القهوة بهدوء.

بادر بالحديث ليخبر مُعاذ بمكالمة الرجل قبل قليل، تهلّلت أسارير مُعاذ لسماع خبر اقتراب مغادرة (كييف). طلب منه أن يخبر بقية المجموعة أخبره أنّ الرجل يطلب مبلغا كبيرًا مقابل أن يقلهم إلى (لفيف)... قاطعه مُعاذ:

- سنتدبر أمر المبلغ نحن مجموعة وسنتقاسمه بيننا.

هزّ يوسف رأسه واستطرد:

- أنا سأتكفّل بنصف المبلغ، عليكم أن توفروا نقودكم كي تتمكنوا من الخروج من (لفيف) إلى بولندا.

شكره مُعاذ على كرمه وقال له إنهم مدينون له بهذا المال بعد أن يصلوا إلى برّ الأمان. لم يُجِب يوسف فقد كان التعب باديًا على وجهه. قام مُعاذ وأخرج شريط دواء من جيب معطفه، وناول يوسف حبة منه قائلًا:

- هذا مُسَكِّن خفيف سيساعدك على الاسترخاء والنوم، ولن تشعر بعده بالدُّوار أو الثقل في جسمك.

تناوله يوسف شاكرًا وابتلع الحبة وتجرع فوقها رشفة من القهوة، أراد مُعاذ أن ينبهه بلسان الطبيب أنّ الماء أفضل من القهوة لابتلاع الدواء، ولكنّه تراجع بسبب ما رآه من إجهاد على وجهه.

أغلق باب الغرفة خلفه بهدوء، واستسلم يوسف لنوم عميق تخلّله الكثير من الأحلام.

توجّه مُعاذ بدوره إلى غرفته، وقبل أن يفتح الباب شاهد نوران مقبلة عليه تحمل معطفه الذي كانت رشا ترتديه. ناولته المعطف شاكرة وتعلّلت بأنّ رشا متعبة، ولم ترغب في أن تحتفظ به مدة أطول فقد يحتاج إليه.

أومأ برأسه ولم يعلق على كلامها، وولج إلى غرفته حيث وجد عبد العزيز مستلقيًا على الأريكة وقد غطّ في النوم.

ألقى بجسده على السرير، وأحكم شدّ الغطاء حول جسده، وضبط المنبه على الساعة الخامسة فجرًا، آملا ألّا يوقظَهم صوت انفجار جديد.

***

لم يغمُض لجمانة جفن منذ أن سمعت خبر تعرض بعض الطواقم الصحفية لإصابات نتيجة وجودهم على مقربة من مناطق القصف. كان القلق يفترسها، وزاد من قلقها انقطاع زوجها عن التواصل معها، وهو لا يجيب على هاتفه، بل يكتفي بطمأنتها عبر الرسائل. فتّشت في هاتفها عن رقم المصور الذي كان يعمل معه في (ماريوبل)، تذكرت أنه قام بإرسال رقمه إليها ذات مرة لتحتفظ به للحالات الطارئة. وجدت الرقم، اتصلت به وهي تعلم أنّ فرق التوقيت مختلف، ومع ذلك بررت لنفسها أنّ الضرورة تبيح المحظور. جاءها صوت سُفيان على الطرف الآخر، أخبرته أنها زوجة الصحفي يوسف، وأنها تريد الاطمئنان عليه، فهو منذ يومين لم يتصل بها على غير عادته.

قال لها سُفيان إنّه علم بتعرُّض بعض الصحفيين في (كييف) لإصابات، ولكنّه لا يعلم إن كان يوسف من ضمنهم أم لا. ثمّ أخبرها أنه

سيرسل لها رقم أحد الأشخاص الذين يقيمون مع يوسف في الفندق في (كييف)، وبإمكانها أن تتصل به وتستوضح الأمر. شكرته وانتظرت وصول الرقم الذي لم يطل انتظارها لها. فكرت، هل تتصل الآن؟ الساعة الثانية صباحًا في (كييف)، هل من المناسب الاتصال؟ لعلّه نائم. وهل ينام الناس في مثل هذه الظروف؟

غلب قلقُها صبرَها وقررت أن تتصل بالرقم. لم تلقَ أيّ ردّ بعد ثلاث محاولات من الاتصال. أُسقِط في يدها، ولم يعد لديها سوى أن تستعين - مرغمةً- بالصبر.

أنقذها رنين الهاتف من أفكارها المتلاطمة، قرّبت الهاتف منها لترى المتصل. لمعت عيناها فرحًا على الرغم من حالتها النفسية السيئة:

- أهلا صديقتي الغالية.

جاءها صوت سارة معاتبًا: «أسبوعين من دون اتصال يا ظالمة وتقولين غالية!».

ضحكت رغمًا عنها، واعتذرت لها عن انقطاعها غير المقصود متعللة بكثرة مشاغلها في الفترة الماضية.

قالت سارة متصنعةً الاستغراب:

- ظننتك ستهاجمينني وتقولين لماذا لم تتصلي أنت؟

تنهدت جمانة وكأنها تقول أن لا رغبة لديها بالمزاح الآن. بادرتها سارة بالسؤال:

- ماذا هناك؟ لا تبدين بحال جيدة.

لم تجد بدًّا من إخبار صديقتها بقلقها على زوجها بعد ما سمعته في الأخبار، وبمرارة شعورها بالخوف من حدوث أي مكروه له.

فهمت سارة شعور صديقتها فحاولت أن تخفف عنها: «ليست المرة الأولى، ربما انشغل قليلًا لا تهولي الموضوع».

- ليته كان تهويلًا فقط.

صمتت قليلًا ثمّ خرج صوتها متهدجًا مرتجفًا:

- هل تعلمين حجم الغُصة التي في قلبي كلّما سمعت أخبار القصف والقتل والدمار- وأنا أعلم أنّه موجود هناك، لم يعد قلبي يحتمل يا سارة. أنام وأنا أخشى أن أستيقظ على خبر يفجعني ويفجع أطفالي. تعبت من مشاعر القلق والخوف كلّما انقطع اتصاله أو تأخر، تعبت من مشاهدة الأخبار كلّ يوم لأعرف ماذا يدور حوله، تعبت من أسئلة الأطفال المتكررة: متى يعود بابا؟

لم تستطع إنهاء كلامها فقد أجهشت في البكاء. لم تتركها سارة تسترسل في عواطفها، بل حاولت تغيير موضوع الحوار، وانتشالها من البؤس الذي يملأ نفسها. وقالت في محاولة لتلطيف الحوار:

- لا عليك، سيكون بخير بإذن الله. ولكن أخبريني ما سرّ الخبر السعيد الذي نشرته على صفحتك الخاصة؟

تمالكت جمانة نفسها وقالت وهي تحاول استعادة رباطة جأشها:

- تمّ انتدابي لإدارة المدرسة حتى نهاية العام.

- خبر مفرح. أخيرًا تخلصت من مديرتك المتسلطة وأصبحت أنتِ المديرة.

قالت سارة: «نعم ولكن فرحتي ناقصة، الحرب التي اندلعت بعد ذهاب يوسف إلى أوكرانيا سلبتني أي إحساس بالفرح، تعلمين أنني لستُ ضعيفة الشخصية، ولكنني أشعر أحيانًا أن قدرتي على الاحتمال والصبر تتداعى أمام ما أسمعه وأراه».

حاولت سارة طمأنتها وذكّرتها أنّ الحياة والموت بيد الله، وأن عليها طرد الأفكار السوداء والتفاؤل بالخير.

أنهت الصديقتان المكالمة القصيرة فقد كانت جمانة قد استنفدت طاقتها فعلًا، ولن تجدي محاولات سارة لشحذها في هذه اللحظة نفعًا. أمسكت المصحف ووضعت حجابًا فوق رأسها، وأخذت تقرأ بصوت خفيض علّ قلبها يهجع.

***

استيقظ مُعاذ على صوت المنبه، فتح عينيه بصعوبة، نظر من خلف الستارة الثقيلة، كانت المدينة تغط في سبات غير آمن، سبات قد تخترق سكونه في أي لحظة طائرة (درون) مُسيَّرة أو قذيفة من طائرة عمودية. هكذا بين عشية وضحاها تحولت (كييف) المدينة الهادئة التي تمتاز بتنوع الجنسيات فيها إلى مدينة قلقة، خائفة يخيم الهلع على ساكنيها.

سمع صوت سيارات إسعاف بعيدة، لا بدّ أن عمليات الإنقاذ ما زالت مستمرة، حدّث نفسه وهو يبتعد عن النافذة. دخل الحمام ولم يلبث أن خرج بعد عدة دقائق وهو يجفف وجهه وشعره بالمنشفة. فرك شعره بيديه ومرّر هواء ساخنًا من جهاز (السشوار) فوق رأسه مخافة أن يصاب بالبرد والزكام. أخرج سجّادة صلاة وصلّى الفجر. ثمّ أمسك الهاتف الأرضي وطلب كوبًا من الشاي الساخن وصحنًا من الكعك المحلى. بعد عشر دقائق كان جالسًا على المقعد يحتسي الشاي ويمضغ الكعك واحدة تلو الأخرى. كان عقله يعمل بالتزامن مع تناوله للطعام، تذكر كلام يوسف عن السيارة. «لا بدّ أن أخبر البقية» حدّث نفسه.

خرج من غرفته وتوجّه نحو غرفة الصحفي. أراد الاطمئنان عليه، طرق باب الغرفة عدة طرقات خفيفة، لم يجب. يبدو أنّه ما زال نائمًا. تلقّى اتصالًا، وضع الهاتف قريبًا من أذنه وتوجه نحو السلّم، لم يرغب باستخدام المصعد كي لا ينقطع الاتصال. أنهى المكالمة ومشى نحو المقهى. كانت الأخبار تتحدث عن احتمال سقوط ثلوج هذا اليوم. عكّر الخبر مزاجه قليلًا. لم يكن يخشى التحرك في مثل هذا الجو ولكنّ وجود الفتيات برفقتهم يُحمِّلهم مزيدًا من المسؤولية. جلس إلى إحدى الطاولات وطلب من الجرسون كوبًا من القهوة، وأمسك بهاتفه يتصفح المواقع الإخبارية، يبحث عن بادرة أمل تشير إلى قرب انتهاء هذه العملية العسكرية كما يحلو لوسائل الإعلام تسميتها.

بعد نصف ساعة انضم إليه عبد العزيز تبعه فادي والآخرون، أخبرهم أنه سينتظر وصول الفتيات ليطلعهم على ما استجد في موضوع السيارة. أرسل رسالة إلى نوران يستعجلها وطلب منها إبلاغ البقية. انتظر الشباب وصول زميلاتهم. وبعد نصف ساعة وصلت نوران بصحبة منار وهند، ثمّ تبعتهم رشا. جلبت كلّ واحدة منهن مقعدًا وانضممن إلى المجموعة.

بدأ عبد العزيز الحديث موجهًا كلامه إلى مُعاذ:

- ها قد اكتمل العدد، أخبرنا بما لديك.

أطلعهم مُعاذ على الحوار الذي دار بينه وبين يوسف بخصوص الحافلة التي ستُقِلُّهم إلى (لفيف). وأخبرهم أنّ صاحب الحافلة اشترط الحصول على ثلاثة آلاف دولار للقيام بالمهمة وأنهى كلامه بالإشارة إلى المساعدة التي عرضها الصحفي يوسف بالمساهمة في تحمل جزء من المبلغ.

صمت الجميع. لم يُعقِّب أحد على كلام مُعاذ، فليس لديهم خيار آخر يمنعهم من قبول مساعدة يوسف في الوقت الراهن. وكان ذات السؤال يدور في أذهانهم جميعًا: متى ستنطلق الحافلة؟

وقبل أن ينطق أيٌّ منهم بما يدور في رأسه تفاجأ الجميع بيوسف يقف بالقرب منهم، وهو يسند يده الموضوعة في الجبيرة بيده الأخرى، كانت عيناه محمرتين ووجهه يميل إلى الشحوب، والوهن يبدو واضحًا على جسده. قام مُعاذ وجلب مقعدًا فارغًا ليجلس.

نظرت رشا إلى وجهه مليًّا، أرادت أن تسأله إن كان يعاني من حرارة، ولكن مُعاذ كان أسرع منها، وضع يده على جبهة يوسف، وقال:

- حرارتك مرتفعة يبدو أن جسمَك تعرض للإجهاد الشديد!

أجاب يوسف وهو يضع يده على كتفه: «أظن أنّ كتفي تعرّضت أيضًا للإصابة. سأطلب من المكتب إرسال سيارة إسعاف لمراجعة المستشفى لعمل صورة أشعة للكتف».

واستطرد قائلًا:

- دعونا نتحدث في موضوعكم، الحافلة ستكون أمام الفندق غدًا في تمام الساعة السادسة صباحا، كونوا جاهزين في الموعد.

هزّ الجميع رأسه بالموافقة، بدت رشا قلقة وهي تشاهده يكافح التعب والحرارة، أرادت أن تفعل شيئًا، أخرجت من حقيبتها شريط دواء مسكن للحرارة ووضعته أمامه.

«سيساعدك هذا» قالت بحرج خفيف. ابتسم في وجهها وشكرها، وأعاد الشريط إليها قائلًا:

- تناولت دواء مسكنًا قبل أن آتي، ولكنّ مفعوله بطيء، احتفظوا بما لديكم من نقود وأدوية، فقد تحتاجونه في رحلتكم، ولا تنسَوا أن تتزودوا بقوارير الماء، فلا أحد يعرف ظروف الطريق.

شعرت بمُعاذ ينظر إليها بطرف عينه وهي تمد يدها لتعيد الدواء إلى حقيبتها.

علت نغمة رنين هاتفها، أمسكته وشاهدت اسم والدها.

استأذنت وقامت من مكانها وذهبت نحو أريكة منزوية في البهو، وجلست لترد على المكالمة. سمعت صوته يحييها ويستفسر عن أحوالها، ثمّ جاءها صوت والدتها تسألها باندفاع ينبئ عن قلقها وخوفها. طمأنتها وأكدّت لها أنّها بخير، وأن الأمور تسير نحو انفراج قريب. استعاد والدها الهاتف من زوجته وقال بنبرة فيها كثير من الجدية الممتزجة بحنان الأب:

– سأرسل لك مبلغا من النقود، قد تحتاجينها من أجل الحافلة التي ستُخرجكم من (كييف). سأحول النقود عبر خدمة الدفع السريع، لتصلك خلال ساعة. الفندق الذي تقيمين فيه لديه خدمة نقل الأموال لنزلائه، بإمكانك أن تسحبي المبلغ من تطبيق الفندق.

ألجمها الصمت، وفغرت فاها وهي تستمع إلى حديث والدها. شعرت بالذهول ولم تسعفها الكلمات لتطرح عليه السؤال المناسب: «كيف عرفت بأمر الحافلة وحاجتنا إلى النقود؟». ولكنّها فضلت ألّا تدخل معه في نقاش لأنّه سيجيبها كالعادة: «ليس هذا وقته».

تعرف كيف يرتب والدها الأولويات، وسلامتها وخروجها من أوكرانيا هي الوحيدة لديه الآن.

أغلقت الهاتف، وتسمّرت في مكانها وهي تسترجع كلام والدها، كيف عرف بأمر الحافلة؟ هي لم تخبره بذلك، وكيف عرف أنّ الثمن المطلوب لمساعدتهم في الخروج من (كييف) كبير جدًّا.

هل تواصل مع يوسف؟ لو فعل لَطمأَنه أنّه تكفل بالمساعدة.

تذكرت فجأة رقم والدها الذي شاهدته على هاتف مُعاذ في القبو. كتّفَت يديها وأسندت ظهرها إلى الخلف. مرّ في ذهنها شريط من المواقف المختلفة، تذكرت عندما تعرضت لحادث سير قبل عامين، أُدخِلَت على إثره إلى المستشفى لمدة يومين، وكيف اتصل معها والدها في ذات اللحظة التي وصلت فيها إلى المستشفى، علّل ذلك حينها بإحساس الأب الذي جعله يشعر أنها تعرضت لمشكلة. ثمّ لاح في خاطرها ذلك اليوم عندما هاتفَها والدها في الصباح الباكر قبل أن تبدأ محاضراتها، وأبلغها أن تتجنب الذهاب إلى الجامعة اليوم بسبب وجود تجمعات طلابية مناهضة لزيادة الرسوم.

ثمّ استرسل عقلها في استعراض مواقف كثيرة كان والدها في كل مرة يفاجئها بتدخله لحمايتها أو تحذيرها، كان آخرها مشكلة حدثت لها مع أحد الأساتذة في جامعتها وتدخل والدها لحلها.

هل كان مُعاذ مَن يوصل أخبارها إلى والدها طوال هذه الأعوام الثلاث؟ ولكن، لماذا؟ داهمها السؤال. وإذا كان تخمينُها في مكانه، فلماذا يخفي مُعاذ الأمر؟ تعرف مبالغةَ والدها وحرصه الزائد عليها،

ولكنها لم تتخيل يومًا أن يكلف أحدًا بإيصال أخبارها إليه. اختلطت الأفكار في رأسها، شعرت بصداع يدق في رأسها.

نهضت من مقعدها وسارت ببطء نحو المقهى. وجدت الطاولة فارغة، الجميع غادر. فكرت: هل تصعد إلى غرفته وتواجهه بما يدور في رأسها من أسئلة؟ عدلت عن الفكرة، فهي تعرف أنه يعامل جميع زميلاته الطالبات بتحفظ شديد. وربما لن يعجبه وقوفها على باب غرفته.

خرجت من المقهى وتوجهت نحو السلّم بدلًا من المصعد، أرادت أن تعطي نفسها فرصة أطول لتفكر في الأمر. صعدت الدور الأول من السلّم وتوقفت أمام الدور الثاني. كان يجلس على حافّة الدرجة الثانية وهو يتحدث في الهاتف، شاهدت خصلات شعره تلتصق بجبهته من تحت طاقية الصوف التي ارتداها خوفًا من تعرض رأسه لتيار هواء بارد. نظر مندهشًا إلى رشا التي كانت تقف أمامه واجمة، وكأن على رأسها الطير. أنهى مكالمته ووقف. انتبهت إلى طوله الفارع وهو يقف على درجة السلّم. تنحّى جانبًا فاسحًا لها الطريق ولكنّها بقيت متسمرة في مكانها، كان عقلها يعمل بسرعة وآلاف الأسئلة تقرع طبولًا في رأسها، سألها وهو يصعد السلّم ببطء:

- هل هناك خطب ما؟

انفجر صوتها وهي تقول: «هل كنت تتجسّس علي؟».

وقف في مكانه وهو يعطيها ظهره ثمّ التفت برأسه فقط وهو يقول:

- ماذا تقصدين؟

«أقصد أنك تتواصل مع والدي وتطلعه على أخباري وتحركاتي أولًا بأول؟» قالت العبارة من بين أسنانها محاولةً أن تتجنب إظهار انفعالها. أدار جسده وأصبح في مواجهتها مرة أخرى. هي أسفل السلّم وهو في أعلاه. عدّل نظارته وهو يقول:

- وهل يسمى هذا تجسُّسًا؟

- إذًا أنت لا تنكر أنّك كنت على تواصل مع عائلتي؟

عاوده طبعه البارد وقال:

- لستُ مضطرًّا للإجابة، سأذهب لأجهز أغراضي، أمامنا سفر صباح الغد وعليك أن تفعلي أنتِ أيضًا.

تابع صعود السلّم، ولكنّها لحقت به واعترضت طريقه.

هذه المرة لم تتمكن من كبح جماح غضبها: «ترى ما المقابل الذي دفعه أبي لك لتتجسّس عليّ؟».

تصاعدت ثورتها وعلا صوتها:

- هل كنت تخبره عن نوبات بكائي في السنة الأولى؟ هل كنت تخبره عن استعانتي- بالمرشد النفسي في كلّ موقف كنت أتعرض له في بداية قدومي إلى هنا؟ جاهدت طوال هذه الأعوام أن أرسم صورة مثالية لشخصيتي، صورة تشبه الصورة التي- يطمح والداي إليها،

كي لا أكون أقلّ نجاحًا وأضعف شخصية من أختي رزان. ماذا أخبرته أيضا؟

صرخت بأعلى صوتها. شعر ببعض الارتباك أمام ثورتها المفاجأة:

- الأمر ليس كما تظنين...

قاطعته على الفور والغضب يتفجر من عينيها:

- الأمر أنني كنت مغفلة، لأنني ظننتُ أنّ وجودكَ في كلّ موقف تعرضتُ له محض- صدفة، أوهمتَنا جميعًا ببرودة شخصيّتك، وأنّك إنسان جامد لا يهتم إلّا لدراسته ومستقبله العلمي.

لم يتركها تسترسل في كلامها، بل قال بحزم محاولًا أن ينهي النقاش:

- لا طائل من هذا الكلام الآن. نحن في مركب واحد، علينا أن نُنهيَ مهمة خروجنا من (كييف) بنجاح.

نزل درجتين باتجاهها، وقال بصوت رصين:

- والدك الدكتور فارس له فضل عليّ في إتمام دراسة مرحلة البكالوريوس، تمكنت من إكمال دراستي بفضل المنحة التي حصلت عليها من الجمعية الخيرية التي يرأسها. عندما اتصل بي وأخبرني أن ابنته الصغرى ستلتحق بالجامعة الطبية في (كييف)، وأوصاني بتقديم المساعدة لها، ومتابعة أخبارها، وإبلاغه بكلّ ما تتعرض له من مشكلات أو أزمات، لم أستطع رفض طلبه، وخصوصًا أنّه كان حريصًا على مشاعرك.

تابع كلامه بذات النبرة:

– أعتذر إذا كان هذا الأمر أزعجك أو سبَّب لك أيَ شعور سيّئ.

تابع صعود السلّم حتى اختفى عن أنظارها. عدَلَت عن استخدام السلّم وعادت أدراجها، وخرجت متوجهة نحو باب المصعد واندسّت داخله.

أنهى الجميع تجهيز حقائبهم، وتفقد كلٌّ منهم أغراضه. وضعت نوران بعض الكعك والبسكوت ورقائق البطاطا المُمَلَّحة في حقيبتها، وطلبت من رشا أن تحذوَ حذوها. فالجو بارد، وربما تساقطت الثلوج كما تقول التنبؤات الجوية. وهم بحاجة إلى وقود سريع يدفئ أجسادهم. تلقّت نوران في المساء اتصالا من مُعاذ، يخبرهم أنهم سيجتمعون بعد قليل في البهو بصحبة الصحفي يوسف وسائق الحافلة.

خرج الجميع من غرفهم ونزلوا إلى الطابق الأرضي، كان مُعاذ برفقة يوسف يتبادلان الحديث، التعب ما يزال يبدو جليًّا على وجه يوسف. اختار مُعاذ مكانًا منزويًا في صالة البهو قرب طاولة مستديرة ذات أرجل مرتفعة مصنوعة من الجرانيت، فوقها انتصب مُجسَّم يمثل تمثال (الوطن الأم) المشهور في الثقافة الأوكرانية. تتراص بالقرب من التمثال بعض الآرائك الصغيرة والمقاعد الجلدية. انضمّ الجميع إلى الجالسين وبدأ مُعاذ الحديث:

- سيحضر صاحب الحافلة التي ستُقِلُّنا في الصباح، سندفع له نصف المبلغ عند صعودنا والنصف الآخر يستلمه عند إتمام مهمته.

قال يوسف وهو يشد يده اليمنى على كتفه الأيسر: «احزموا أمتعتكم، واحرصوا على وضع بعض الطعام، وأكياس النايلون ربما تحتاجونها لقضاء حاجتكم». قال الجملة الأخيرة بشيء من الحرج.

ظهرت الدهشة على وجوه الجالسين وخاصّةً الفتيات، لم يكن أحدٌ يظنّ أن تصل الأمور بهم إلى هذا الحدّ.

تلقى يوسف اتصالًا، أومأ إلى مُعاذ برأسه، قام مُعاذ من مكانه وطلب من بقية الشباب أن يتبعوه. يبدو أن صاحب الحافلة قد حضر. بقي يوسف جالسًا والألم باد على وجهه. حاولت رشا أن تسأله عن إصابته لكنّ صوت هاتفه جعلها تتوقف. سمعته يقول:

- أهلًا حبيبتي.

عرفت أنّ المتكلم زوجته، أومأت برأسها إلى صديقتيها، وانسحبنَ من المكان.

جاءه صوت زوجته ثائرًا خائفًا:

- لماذا لم تخبرني أنّك أصبت؟ كيف تخفي عنّي شيئًا كهذا؟ القناة منذ الصباح تتحدث عن إصابتك وزميلك المصور، وأنا آخر من يعلم؟!

حاول تهدئتها وطمأنتها، لكنّ صوته كان على غير عادته.

سألته عن إصابته، فأجابها بوجود كسر في الذراع واشتباه في انزلاق في عظمة الكتف. شهقت بفزع:

- وهل تلقيت علاجًا؟

أجابها بأنّه تمّ إسعافهما بعد تعرضهما للإصابة، ووُضِعَت يده في جَبيرة، ولكنّ ألم كتفه يرهقه، لذا هو بحاجة إلى الراحة التامة.

وقبل أن تمطره بسؤال آخر، تابع حديثه موضحًا أنّ القناة ستوفد مراسلًا آخر يقوم بمهامه في غيابه، وأنه سيعود على أقرب رحلة مناسبة ليستكمل علاجه.

شعر أنّ انفعالها هدأ قليلًا، ولكنها تساءلت عن موعد عودته.

- يومين على الأكثر وأكون بينكم. لا تقلقي، تعلمين أنّ حرية التنقل ميسرة للإعلاميين.

جاءه ردّها بصوت يملؤه الجزع والقلق: «أعلم أن كونك صحفيًّا لم يحمِك من الإصابة. ولو كنتَ في مرمى القصف...» - توقفت عن الكلام كأنّها انتبهت إلى نبرة التشاؤم في صوتها.

أنهى المكالمة بمزيد من كلمات الاطمئنان، ولكن أنَّى لمعجم من كلمات المواساة أن يُهَدِّئ روعها، ويُدخل السكينة إلى قلبها، هي التي عاشت كلّ هذه السنين تخشى أن تستيقظ يومًا على نبأ إصابته أو فقدانه.

عاد مُعاذ برفقة الشباب وأخبروه أنّ صاحب الحافلة مُصِرّ على استلام المبلغ كاملًا، وإلّا فإنّه لن يغامر بهذه المهمة التي يشوبها الخطر. أخبره

مُعاذ أنّهم وافقوا على طلبه على مضض، رغم علمهم أنّه يستغل حاجتهم إليه، ولكن ليس باليد حيلة أخرى.

أبلغهم يوسف أنّه تمّ إنهاء مهمّته الصحفية في (كييف) مؤقّتًا بسبب إصابته، وأنه ينتظر وصول الصحفي الذي سيحِلّ محله، إلى حين تأمين المحطة لعملية إجلائه وزميله المصور المصاب. وأخبرهم أنّ بقاءه هنا لن يطول فعلى الأرجح أن يغادر خلال اليومين القادمين.

أوى الجميع إلى غرفهم بعد أن تناولوا وجبة الغداء في مطعم الفندق، سمع يوسف طرقا خفيفًا على باب غرفته، قام من مقعده وفتح الباب، فإذا بها رشا ابنة الدكتور فارس:

تساءل على الفور:

- هل حدث مكروه؟

أشارت رشا بيدها نافية. ومدّت يدها الأخرى بعلبة مستطيلة مغلفة بورق الهدايا وقالت في خجل:

- أودّ أن أشكرك لاهتمامك بمساعدتنا، وهذه هدية بسيطة للأولاد ابتعتُها من الركن- الموجود في بهو الفندق، لو كنّا في ظروف مواتية لجلبتُ لهم شيئًا أفضل.

ابتسم يوسف وتناول العلبة وشكرها على ذوقها قائلًا:

- أنا مدين بالكثير للدكتور فارس، ومساعدة ابنته في محنتها شيء يسير من أفضاله عليّ، ثمّ من واجبنا أن نساعد بعضنا في مثل هذه

الظروف. في الغربة يعرف الإنسان قيمة أبناء وطنه. نحن في النهاية أبناء وطن واحد.

شكرته رشا مجدّدًا وحيّته منصرفة، فردّ بتحية مماثلة وأغلق الباب.

وأغلقت هي بابًا في قلبها على مشاعر طفلة مراهقة، وجدت نفسها بين عشية وضحاها تكافح من أجل النجاة من حرب لا تعرف متى وكيف بدأت، وحتمًا لا أحد يعرف متى وكيف ستنتهي.

***

في الصباح استقلّ الجميع الحافلة. كان السائق من سكان مدينة (كييف) الأصليين. ذو بشرة بيضاء تشوبها حمرة، وعينين سوداوين جاحظتين، وشعره الفاتح تظهر أطرافه من تحت طاقية الصوف السميكة التي يطلقون عليها (شلابكا).

كان منظره بمعطفه السميك وقُفّازاته الصوفية الثخينة ينبئ عن استعداده للبرد القارص الذي ينتظرهم في هذه الرحلة. فهُم وإن كانوا سيودعون فصل الشتاء الطويل، فقد اعتادوا أنّ وداعه سيكون قاسيًا.

انطلقت الحافلة براكبيها مخلفةً وراءها فندق (ليبيد) بما حملته جنباته خلال الأيام الماضية من ذكريات لهؤلاء الشباب الذين جاؤوا من بلادهم أملًا بأن يعودوا بعد انقضاء سنِيّ دراستهم بشهاداتهم التي عُقِدَت عليها آمال الأهل، فدفعت الكثير منهم للتخلي عن رغباتهم المدفونة في أعماقهم.

لم ينظر أحد منهم إلى الخلف، كان كلّ واحد فيهم يأمل أن يكون فندق (البجعة) مرحلة اجتازوها بسلام في طريق عودتهم المحفوف بالمخاطر.

كان مُعاذ يجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق، أمّا بقية الشباب فقد جلس بعضهم في الأمام، وبعضهم في الخلف، وأبقَوا المقاعد التي في وسط الحافلة للفتيات.

سارت الحافلة بهم مع شروق الشمس المختبئة خلف الغيوم الكثيفة، أمضت الفتيات الساعة الأولى في غفوة متقطعة، كانت رؤوسهن تتأرجح فوق المقاعد. أمّا الشباب فانخرطوا في حديث بصوت منخفض، ثمّ لم يلبثوا أن توقفوا عن الكلام وانشغل كلٌّ منهم بمتابعة هاتفه. كانت الطريق إلى (لفيف) تعج بالسيارات والحافلات. بدا واضحًا أنّ عملية نزوح كبيرة تتمّ من (كييف) وغيرها من المناطق التي تعرضت للقصف والدمار نحو (لفيف) وبقية المدن التي ما زالت آمنة حتى الآن.

كان السائق يُضطَر لإيقاف الحافلة كلّما تناهى إلى سمعهم صوت أزيز أو فرقعة قريبة، خشية أن يحدث ما لا تُحمَد عاقبته.

استيقظت الفتيات على صوت عجلات الحافلة وهي تصطك بالشارع بقوة. فزعت نوران ونظرت إلى رشا وتساءلت عما يحدث. تطوّع عبد العزيز للإجابة عن سؤالها قائلًا:

- هناك أنباء عن قصف قريب، تم إطلاق إشارات تنبيه على الطريق، السائق يخشى من تعرضنا لشظايا أو انفجارات مفاجئة.

تحدث مُعاذ معه بالروسية التي يتقنها، وطلب منه أن يسلك الطرق الآمنة حتى وإن كانت ستستغرق زمنًا أطول. لم يتلقَّ جوابًا بل تحركت الحافلة من جديد.

لم تلبث الحافلة أن توقفت مرة أخرى بعد أن سمع الجميع صوت انفجار واحتكاك على الأرض. لم يكن القصف هذه المرة، بل إطار الحافلة الأمامي، الذي مرّ فوق شظية معدنية كبيرة سبّبت ثقبًا كبيرًا فيه، ما أدى إلى سماعهم ذلك الصوت المدوي.

نزل السائق يتبعه الشبّان. بقيت الفتيات في الداخل، كانت لسعة الهواء البارد تنبئ أنّ الغيوم محملة بالثلوج. أخرج السائق إطار الاحتياط، وبدأ مُعاذ وعبد العزيز يساعدانه في تبديل الإطار، بينما وقف زياد يناولهم ما يحتاجون من حقيبة الأدوات الخاصة بالسائق. أنهَوا المهمة خلال نصف ساعة، ثمّ استقلُّوا الحافلة من جديد.

شاهدت رشا مُعاذ يمسك بطرف يده ضاغطًا عليها والدماء تلطخ أصابعه، عرفت أنّه تعرّض لجرح اثناء تبديل الإطار. أخرجت ضِمادة طبية لاصقة من حقيبتها، ومدّتها نحوه آملة أن ينتبه إليها ويكفيها مشقة الكلام. شاهد يدها الممدودة، تناول الضِّمادة دون أن يرفع بصره إليها، وجلس في مقعده.

كان الثلج قد بدأ يرشق زغبه الأبيض الخفيف على الطريق، بقيت ساعتان على الوصول إلى (لفيف). الجميع يدعو الله في سره أن يمرّ هذا اليوم بسلام، ولكن هيهات أن تُغيِّر الأماني القدر إذا وقع وانتهى.

سمعوا صوت أزيز قوي تبعه دويّ هائل، تابع السائق قيادة الحافلة، كان يتحدث إلى مُعاذ أنّ منطقة القصف قريبة جدًّا، ومُعاذ يحاول جاهدًا أن يبثّ الطمأنينة في نفسه. هم بحاجة ماسة إلى هدوء أعصابه في هذه اللحظات، لم يتبقَ إلّا ساعة للوصول إلى بغيتهم، وعليهم أن يسايروه حتى يصلوا بسلام. زاد صوت الانفجارات. أوقف السائق الحافلة، طلب منه مُعاذ أن يتابع التقدم ما داموا يسمعون صوتًا فقط. هذا يعني أن القصف بعيد عن مكانهم، لم يقتنع السائق بكلام مُعاذ ورفض التحرك. هدأ الصوت بعد دقائق قليلة، كان الجميع يجلسون في الحافلة وقد خيم الهدوء والصمت الكئيب على ركابها.

وبعد انقضاء نصف ساعة من الهدوء طلب مُعاذ من السائق أن يواصل المسير، فأصوات الانفجارات توقفت والوضع مطمئن. لم تفعل كلمات مُعاذ فعلها في نفس السائق الذي بدا عليه الخوف والهلع.

قال لمُعاذ إنّه لن يتمكن من إتمام الرحلة إلى (لفيف) فالأخبار تتحدث عن احتمالية تجدّد القصف في أية لحظة. بدا الغضب واضحًا على وجه مُعاذ ورفاقه، أراد عبد العزيز أن يمسك بتلابيبه ولكن مُعاذ تصدّى له وكفّ يديه، وطلب منه الجلوس في مكانه.

تحدث مُعاذ إليه مطوَّلًا محاولًا إقناعه بإتمام السير، وأخبره أنهم طلاب ويريدون العودة إلى بلادهم. سخر السائق منه وأجاب بصلف:

- ومن يهتم إذا كنتم طلابًا أم لا؟

وتابع:

- لا يمكنني المغامرة بحياتي وقد تحول القصف إلى هذه المنطقة.

كان مُعاذ يكبح غضبه وسخطه، كي لا يتيح الفرصة لبقية الشبّان الذين يتطاير الغضب من عيونهم للاشتباك مع الرجل. ظهر جليًّا أنّ السائق خطّط لتركهم في الطريق منذ بداية الأمر، وهو الآن يتخذ من أصوات الانفجارات ذريعة للإخلال بوعده.

عرف الجميع أنّهم تعرضوا للغدر. بقيت ساعة على بلوغ المدينة الآمنة، تمنَّوا لو يتمّ مهمته، ولكنّه بقي مُصمِّمًا على العودة إلى (كييف). قال لهم بأنّه سيوصلهم إلى بداية الشارع الرئيسي، وهذا كلّ ما يستطيع مساعدتهم به. وعليهم أن يكملوا طريقهم مشيًا على الأقدام. رضخوا له بعد أن رأوا أنه لن يغير قراره، تحرك بالحافلة نحو الطريق الرئيسي الذي يصل (لفيف) بالقرى من حولها.

أوقف الحافلة وطلب منهم النزول، حملوا أمتعتهم ونزلوا من الحافلة والهواء الثلجي يلفح أنوفهم. كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهرًا، والشمس ما تزال مختبئة خلف الغيوم السوداء، وزغب يشبه الريش

الأبيض لا ينقطع عن التساقط. لم يكن الوقت في صالحهم، حملوا حقائبهم على ظهورهم، ودسوا أيديهم في جيوب معاطفهم.

تقدم مُعاذ وعبد العزيز وطلبوا من بقية الشباب السير خلف الفتيات. صاح بهم مُعاذ أن يَجِدُّوا في السير ويحثوا الخطا حتى يحافظوا على حرارة أجسادهم.

بدأ الجميع في السير. على جنبات الطريق كانت بعض السيارات تمرّ بهم بين الحين والآخر، ولكنّها كانت تمر مزدحمة بركابها، ولم يفكر أحد من سائقيها أن يتوقف من أجل هؤلاء السائرين على أقدامهم.

تتغير قوانين الإنسانية في لحظة ليصبح المرء حبيس مصلحته الشخصية، يمرّ المرء على مأساة أخيه الإنسان دون أن يلتفت، لأنّ حاجته إلى النجاة بنفسه أكبر من حاجته إلى إنقاذ غيره. هذه القوانين التي تسري في هذا البقاع ابتدعتها عقلية الإنسان الأناني اللئيم الذي يرى في الآخر مجرد رقم يحيا أو يموت، ويتم إحصاؤه كعدد مع بقية الأعداد.

تزايد تساقط الثلج وازداد الهواء، ما زاد من صعوبة تقدمهم إلى الأمام، شعرت نوران بإعياء شديد واستفرغت ما بجوفها على جنبات الطريق. اقترح فادي أن يتوقفوا قليلًا لأخذ قسط من الراحة وتناول بعض الطعام، لم يرق الاقتراح لمُعاذ كان يفضل أن يواصلوا، فالتوقف الآن يعني انخفاض عزيمتهم على المشي، ما سيصعب عليهم المواصلة فيما بعد. أمسكت رشا بيد نوران محاولةً أن تساعدها على مواصلة السير.

صرخ مُعاذ:

- قطعنا نصف المسافة، حاولوا أن تتماسكوا.

تملك الإعياء جسد نوران، فأصبحت غير قادرة على السير. صرخ عبد العزيز وهو يزيح الثلج من فوق وجهه:

- أمامنا إحدى مظلات انتظار الحافلات، دعونا نحتمي تحتها من الثلج.

توجه الجميع نحو المظلة، جلست الفتيات على المقاعد، ووقف الشبّان ينفضون الثلج المتساقط عن معاطفهم. بلغت نوران حالة شديدة من التعب والذبول. بدا وجهها شاحبًا جدًّا، كان واضحًا من احمرار عينيها وارتجاف يديها أنّها تعاني من ارتفاع شديد في الحرارة.

أمسكت رشا بحافظة الماء الساخن التي كانت تحملها وفتحت الغطاء، وسكبت فيها كيسين من القهوة سريعة الذوبان ثمّ أحكمت إغلاقها ورجّتها جيّدًا، وأخرجت هند أكوابًا ورقية من حقيبتها. أفرغت رشا محتويات الحافظة في الأكواب. كان نصيب كل واحد منهم عددًا من الرشفات. ولكنها كانت كفيلة بنشر قليل من الدفء والطاقة في أجسادهم.

ناولت نوران قطعة كعك وكوبًا من القهوة، ولكنّها لم تتمكن من حمل الكوب، واستفرغت مرة أخرى. بدا واضحًا أنّ حالتها تزداد سوءًا، وبدأ

جسمها في الارتعاش، وضعت رشا شالها الصوفي حول كتفيها المرتعشتين وأخذت تتحسس جبينها.

فكّر مُعاذ لبرهة ثمّ أمسك حقيبته وأفرغ محتوياتها على المقعد، أمسك بمقص صغير كان قد وضعه مع أدواته، وأخذ يمزق الحقيبة القماشية، كان الجميع ينظرون إليه وعيونهم تنضح بالاستغراب والدهشة من تصرفه. سألهم إذا كان أحد يحمل ولّاعة وأوراقًا لا يحتاجها. أجاب عبد العزيز بالإيجاب، وأخرج ولّاعة على الفور دون أن يسأل ووضعها في يد زميله.

بحثت رشا بين أغراضها فوجدت رواية «آنا كارنينا» لتولستوي، كانت قد ابتاعتها من مكتبة الفندق ظنًّا منها أنها ستتسلى بقراءتها أثناء طريقهم إلى (لفيف). مدت يدها الممسكة بتولستوي إلى مُعاذ. مزّق أوراق الرواية ووضعها فوق الحقيبة على طرف أحد المقاعد المعدنية المتواجدة تحت المظلة.

ضغط مُعاذ على رأس الولاعة فاندلع اللهب الأحمر، قربها من الورق فاشتعلت النار فيه، سكب بعض الكحول من علبة المعقم الصغيرة التي يحملها فوق قماش الحقيبة الممزق، ثم أمسك السكين من مقبضها البلاستيكي وأخذ يجمع قطع القماش حول النار حتى أمسكت بتلابيبها.

انتهى مُعاذ من إشعال تدفئته البسيطة. طلب من رشا أن تجلس بصحبة نوران على الطرف الآخر للمقعد، حيث ستسري الحرارة في المعدن ويصل الدفء إلى أجسادهنّ.

حرك الشبّان المقعد الآخر ووضعوه مقابل المقعد الذي حوله مُعاذ إلى مدفأة، حتى يحاصروا النار، ويحافظوا على الدفء أطول فترة ممكنة. أخرجت رشا بعض الصور من حقيبتها، مزقتها ورمت بها نحو النار، نظر مُعاذ بطرف عينه إلى الصور الممزَّقة دون أن يعلق بشيء.

قالت رشا بهدوء:

- ورق الصور المقوى سيطيل عمر النار.

تجرعت نوران القليل من القهوة وابتلعت بضع لقم من الكعك الذي قدمته لها رشا، ثمّ تناولت دواء مُسكنًا فشعرت بقليل من التحسن.

تناول الجميع بعضًا من الكعك ورقائق البطاطا التي حملوها في حقائبهم. شعروا بالامتنان لنصيحة الصحفي يوسف.

بعد نصف ساعة توقف الثلج، وبدأت الشمس تسترد عافيتها وتخرج بخجل من خلف الغيوم. جمعوا أمتعتهم من جديد، كانت النار قد تحولت رمادًا. وضع مُعاذ أغراضه في حقيبة عبد العزيز. تعافت نوران وعاد النشاط إلى جسدها، وضعوا الحقائب مرة أخرى فوق ظهورهم، ويمّموا وجوههم نحو (لفيف).

ساعدهم تحسن الجو على مواصلة السير، كانت الأقدام قد تعبت، ولكنّ الإصرار على بلوغ هدفهم يشحذُ همّتهم كلّما شعروا بالوهن أو التعب. انقضت نصف ساعة من المشي، توقفوا خلالها مرة لقضاء حاجتهم مستغلين وجود حمّام عمومي على الطريق، قرب إحدى الاستراحات التي غادرها أصحابها.

لاحت لهم شوارع (لفيف) الضيقة من بعيد، انفرجت أساريرهم قليلًا، ولكنّ مُعاذ نبّههم إلى ضرورة مواصلة السير قبل أن يباغتهم أيّ طارئ. واصلوا السير حتى وصلوا إلى الحيّ الأرمني.

كان جمال الحيّ محجوبًا عنهم بما تحمله أجسادهم المنهكة من تعب وإجهاد. دخلوا أول استراحة صادفوها، ألقوا بأجسادهم المنهكة على المقاعد، كانت الاستراحة شبه فارغة إلّا من بعض العاملين وثلاثة رجال يتناولون طعامهم. تحدث مُعاذ إلى صاحبها، وطلب مكانًا يرتاحون فيه. أخبره الرجل الذي يبدو في الستين من عمره، أنه يوجد في الطابق العلوي غرف صغيرة، يستخدمها كمنامات لعابري الطريق أمثالهم، وأنّه يمكنهم استخدامها.

شكره مُعاذ ووضع بعض النقود أمامه، ثمّ انصرف إلى زملائه وأخبرهم أن يتبعوه. صعدوا إلى الطابق الثاني، حيث شغل الشباب إحدى الغرف المطلة على الحيّ، أما غرفة الفتيات فكانت تُطِلّ على الفناء الخلفي للاستراحة. استسلم الجميع إلى نداء أجسادهم المتعبة

وأوصالهم الباردة، واندسوا تحت الأغطية الموضوعة فوق أسرة معدنية صغيرة.

كانت نوران أول من استيقظ منهم، واستيقظت رشا والأخريات على صوت استفراغها وسعالِها المتكرر. لحقت بها رشا إلى الحمام الصغير في الزاوية اليمنى من الغرفة، كان بابه مفتوحًا ونوران تقف متكئة على حافة المغسلة وقد أنزلت رأسها إلى الأسفل، متأهبة لجولة جديدة من الاستفراغ. أمسكت بها رشا وساعدتها على الخروج من الحمام، كان الإعياء قد أخذ من جسدها مأخذا، خطت نحو السرير خطوات متعَبة وهي تستند إلى ذراع صديقتها. قفزت كلٌّ من هند ومنار وساعدنها على الجلوس فوق حافة السرير.

أخرجت رشا هاتفها، أرادت أن تتصل بالدكتور مُعاذ، اكتشفت أنّها طوال هذه الفترة لم تفكر في تخزين رقم هاتفه. بحثت عن هاتف نوران، ودون أن تستأذنها أخذت تبحث عن رقمه. خزنت الرقم في هاتفها واتصلت به.

هرع مُعاذ برفقة عبد العزيز وفادي إلى غرفة الفتيات، فتحت رشا باب الغرفة وبادرت بالقول دون انتظار لأي سؤال:

- نوران في حالة صحية صعبة جدًّا، وهي في حاجة إلى علاج.

خرج مُعاذ مسرعًا وعاد بعد عدة دقائق ومعه سماعة طبية وميزان لقياس الحرارة. طلب من نوران الاستلقاء ثمّ وضع الأداة المعدنية التي

تشبه القلم تحت لسانها، ثبت السماعة في أذنيه، وأخذ يتنقل بطرفها فوق معدتها والمنطقة المحيطة بها، ثمّ طلب منها الجلوس ففعلت وتابع تحريك السماعة فوق ظهرها.

سحب الأداة بلطف من أذنيه ثمّ قال موجها كلامه لنوران:

- ليس هناك ما يثير القلق، ولكن يبدو أنك تعرضت لنزلة معوية حادة نتيجة البرد.

صمت قليلًا ثمّ سألها إن كانت تعرضت لهذه الحالة قبل الآن، فأجابت أنها تعرضت لها مرتين، ولكنّها كانت تعزوها إلى انتفاخ القولون.

«أنتِ بحاجة إلى مضاد قوي يطهر الأمعاء. هذا كلّ ما في الأمر» قال مُعاذ مُطَمْئِنًا.

خرج من الغرفة وتبعه بقية الشبّان، واتّجهوا نحو غرفتهم. جاءه صوت رشا من الخلف وهي تغلق الباب.

- اصدقني القول، هل هناك شيء خطير؟ رأيتُ تعابير وجهك تتغير عندما كنت تنقر فوق بطنها.

أجاب على تساؤلها بسؤال آخر:

- هل تناولت نوران الكثير من السكريات والمعجنات في الفترة الماضية؟

أجابت على الفور:

- وهل تناولنا غيرها منذ أن جئنا إلى الفندق؟ ولكن ما علاقة ذلك بحالتها، هل تعاني من تسمم غذائي؟

عدّل مُعاذ نظارته كما يفعل دائما عندما ينخرط في حديث مُهِمّ:

- لا أعتقد أنه تسمم بالمعنى الذي نعرفه. لاحظت عندما كنّا في طريقنا إلى (لفيف) أنها كانت كثيرة التجشؤ، وعندما كنا نحتمي من الثلج تحت المظلة كان وجهها متهيجًا مع احمرار شديد في عينيها.

بقيت رشا صامتة في انتظار أن يُفصِح عمّا يدور في خَلَدِه.

أكمل مُعاذ كلامه بلهجة الطبيب الذي يحاول أن يصف حالة مريضه:

- أظنّ أنها تعاني من متلازمة التخمر الذاتي. ولكنني لستُ متأكدًا من ذلك. هذا- التشخيص يحتاج إلى معرفة سيرتها المرضية السابقة.

لم تحاول رشا أن تخفيَ جهلها بهذا المرض الذي يشير إليه مُعاذْ، فهي ما زالت في السنة الثالثة، أما هو فقد شارف على إنهاء سنوات الاختصاص. وله الكثير من الأبحاث الطبية. انضمت منار وعبد العزيز وزياد إليهما، واغتنمت رشا الفرصة وطلبت من مُعاذ أن يشرح لهم حالة نوران بالتفصيل.

تحدث مُعاذ محاولًا أن يوضح لهم أنّ لديه شكًّا كبيرًا في أنّ زميلتهم تعاني من التخمر الذاتي، وهي حالة نادرة يُنتِج فيها الجسم كميات سامة

من (الإيثانول)، بسبب وجود الخمائر في الأمعاء نتيجة الإسراف في تناول المواد السكرية والنشويات.

تساءلت منار باهتمام:

- ما الحلّ ونحن في هذا الوضع؟ هل تجدي المسكنات العادية؟

جاءها الرد هذه المرة من فادي بلهجته اللبنانية:

- لو كانت ذات نفع لتحسنت حالتها.

نزل الجميع إلى الطابق الأرضي، وبقيت نوران مستلقية على السرير، كما طلب منها مُعاذ كي لا تستثير الحركة أمعاءها الخاوية، فترهقها محاولة الاستفراغ مرة أخرى.

سأل مُعاذ صاحب الاستراحة الذي كان يُعدِّل من الطاولات والمقاعد، عن صيدلية قريبة. أجابه الرجل أنّ هناك واحدة خلف الاستراحة على بعد خمسمئة متر.

خرج مُعاذ بصحبة فادي وعبد العزيز لجلب علاج مناسب لنوران، بقيت رشا والآخرون ينتظرون أن ينتهي الرجل من عمله.

جلسوا حول إحدى الطاولات، فاقترب منهم وسألهم إن كانوا يرغبون في شيء. فطلبوا منه إحضار بعض الطعام. تذكرت رشا كلام مُعاذ وتحليله لما تعانيه نوران، فتبعت الرجل واستوقفته، وطلبت منه إعداد حساء من الخضار لصديقتها المريضة.

عندما وضع الرجل الطعام فوق الطاولة كان مُعاذ ورفيقاه قد عادوا يحملون كيسًا صغيرًا فيه علبتان من الدواء. أخذت رشا الكيس وحملت وعاء الحساء، وصعدت إلى حيث ترقد صديقتها المنهكة. تناولت نوران الحساء من دون شهية، ثمّ ابتلعت حبتين من العلاج، واستلقت مرة أخرى على السرير، وغرقت في نوم عميق.

الساعة الواحدة ليلًا، وعلى عكس ما كانت قبل ساعات قليلة، امتلأت الاستراحة فجأة بعائلتين أوكرانيتين وأربعة شبّان في مقتبل العمر.

كان مُعاذ وعبد العزيز وفادي قد جلسوا حول إحدى الطاولات يرتشفون أكوابًا من الشاي الأخضر الممزوج بنكهة نعناع قوية، قال لهم صاحب المكان إنّه مهدئ للأعصاب ومريح للأمعاء من أمراض البرد.

امتزج التعب والقلق والخوف على وجوه ضيوف الاستراحة الجدد. انشغلت إحدى النساء بإطعام طفلتيها، وكانت المرأة الأخرى تُجلِس ولدًا في الثامنة من عمره على ركبتيها، وتضع كفّها بين حين وآخر تتحسّس جبهته. أحد الرجال كان يدخن سيجارًا إلكترونيًّا، وينفث الدخان من فمه وأنفه في الجهة المعاكسة للجالسين، أمّا الرجل الآخر، فانهمك في حديث وصراخ على الهاتف. بينما جلس الشبّان الأربعة على طاولة منزوية يتبادلون الحديث باهتمام.

همّ مُعاذ ورفيقاه بمغادرة صالة الاستراحة والصعود إلى الأعلى، ولكن شقّ المكان صراخ المرأة التي تُجلِس الطفل على ركبتيها. كان

واضحًا أن الطفل فقد الوعي، والأم تمسك به وتهزه وتضربه ضربات خفيفة على وجهه محاولة إيقاظه، هرول مُعاذ ومَن معه نحوهم، عرّفهم بنفسه، وطلب منهم أن يسمحوا له بفحص الطفل.

ترددت الأم في ترك طفلها بين يدي هذا الغريب، ولكنّها اطمأنت عندما سمعت صاحب الاستراحة يخبرهم أنهم طلاب من الجامعة الطبية في (كييف).

جلب مُعاذ معداته الطبية من الأعلى، ووضع بعض الكحول على قطنة مررها قرب أنف الطفل وفرك جبهته قليلًا، بدأ الطفل يفتح عينيه، فحص مُعاذ جسده، نقر فوق بطنه، حرك ذراعيه وقدميه، نظر في فمه مستعينًا بضوء هاتفه، ووضع يديه على الجانب الأيمن أسفل الرقبة وضغط بأصبعه، صدرت صرخة من الطفل.

تراجع مُعاذ وشدّ حبل السماعة من أذنيه، وجمع أدواته وأعادها إلى الحقيبة. سأله والد الطفل مستفسرا، فأجابه مُطَمْئِنًا:

- يبدو أنه يعاني من التهاب في الأذن الداخلية، وقد سبب له احتقانًا في الحلق، ما جعل الغدة اللمفاوية أسفل الحلق تصاب بالالتهاب أيضًا.

تساءلت والدة الطفل بلهفة عن مدى خطورة وضعه، وخاصَّة بعد أن فقد وعيه.

شرح لها مُعاذ موضحًا:

- التهاب الغدة اللمفاوية سبَّب رفع حرارة جسمه، وظيفة هذه الغدد امتصاص الالتهاب والبكتيريا التي تهاجم الأذن والحلق، لذلك يصاب الجسم بالضعف، وتقلّ مقاومته.

وتابع بصوت هادئ ومريح:

- سأصف له بعض الدواء المناسب، يمكنكم جلبه من الصيدلية القريبة.

نظر إلى عبد العزيز متسائلًا:

- هل لك أن تتطوع باصطحاب والد الطفل إلى مكان الصيدلية؟

وافق عبد العزيز على الفور، وخرج مع والد الطفل متجهين نحو الصيدلية لجلب الدواء.

في الصباح استيقظت رشا فوجدت نوران لا تزال نائمة، مشت على أطراف أصابعها نحو الحمام للاغتسال، تبعتها كلٌّ من هند ومنار.

جاء صوت نوران يقول:

- صباح الخير.

ابتسمت رشا ابتسامة عريضة وهي ترى تباشير العافية على وجه صديقتها وحمدت الله على سلامتها.

خرج الجميع، ونزلوا على السلّم الخشبي، وتوجهوا للجلوس على مقعدين طويلين يشبهان الأريكة مصنوعين من الخشب، تتوسطهما منضدة بيضاوية الشكل. جاءت شابة عرفوا أنّها ابنة صاحب الاستراحة

من الشبه الكبير بينهما. ألقت تحية الصباح ثمّ بدأت تفرغ محتويات صينية كبيرة كانت تحملها، وتضع الأطباق تباعًا أمامهم. استغربوا فهم لم يطلبوا الطعام بعد. لم تتركهم لحيرتهم، أخبرتهم أن والد الطفل (إيفان) قد أوصى لهم بهذا الطعام عرفانًا منه لمساعدتهم في علاج طفله بالأمس.

أدار مُعاذ رأسه، فشاهد الرجل يقترب منهم مبتسمًا، ثمّ يقف أمامهم ويقول بلغة روسية:

- سباسيبا بلشوي.

رد مُعاذ أنّه لا داعي لشكرهم، وأن ما قاموا به مع الطفل واجب أخلاقي وإنساني وتمنى له الشفاء التام. قابل الرجل تواضع الشابّ العربي بابتسامة عريضة، ودعاهم إلى الانضمام إليهم لشرب القهوة بعد الانتهاء من طعامهم، وانصرف عائدًا إلى عائلته.

لبى مُعاذ ورفاقه دعوة الرجل الأوكراني، وجلسوا يرتشفون القهوة التي جاءت بها الشابّة التي يبدو أنّها حلّت محل والدها للعمل في الاستراحة.

قام مُعاذ بمهمة التعريف بنفسه وبمن معه من شباب وشابّات.

«أنتم أطباء إذًا» قال الرجل بلهجة لطيفة.

تدارك الرجل واعتذر أنّه لم يعرفهم بنفسه، وأردف قائلًا:

- أنا ألكسندر، وهذه زوجتي باتريشا، وطفلنا إيفان. قَدِمنا من مدينة (ميكولايف) الجنوبية بعد أن اشتدّ القصف عليها منذ عدة أيام، ونعتزم الذهاب إلى بولندا حتى تهدأ الأوضاع.

ظهر الأسى على وجهه وانفلتت زوجته بالبكاء.

قال مُعاذ مواسيًا:

- لا بدّ أنّ هذه الأزمة ستنتهي عمّا قريب، وتعود الأمور إلى طبيعتها.

قال هذه الجملة وهو يعرف أنّه يجاملهما فقط.

قال ألكسندر بصوت تملؤه الحسرة:

- أثناء رحلتنا إلى (لفيف) أصيب طفلنا إيفان بالحُمّى، وتعطلت سيارتنا بالقرب من هنا، فاضطُررنا للجوء إلى الاستراحة.

وتابع وهو يشدّ على يد مُعاذ:

- كان هذا لحسن حظنا، ليتمكن طبيب شاب مثلك من معالجة إيفان ومساعدته ليسترد عافيته.

شعر مُعاذ بقليل من الإحراج فهو لم يعتد على تلقي عبارات الإطراء المباشر أمام زملائه.

انضمت العائلة الثانية إليهم، الأب والأم وابنتان في العاشرة من العمر واضح من درجة التشابه الكبيرة بينهما أنهما توأم.

قال والد الفتاتين إنّه جاء من ماريوبل بعد أن دمّر القصف كثيرًا من الأحياء والمرافق الحيوية، ثمّ ما لبث أن أطرق رأسه، ونظر بطرف عينيه إلى ابنتيه التوأمين وقال بحزن وتحسر:

- لولاهما لما خرجت من مدينتي حتى ولو دفنت تحت الركام.

لم تتمالك زوجته نفسها، وأدارت رأسها وأخذت تمسح دموعها التي نزلت سخية على وجهها.

وانفعلت (باتريشا) ولم تتمكن من كبح نفسها وأجهشت بالبكاء بصوت مرتفع وهي تلعن هذه الحرب المجنونة التي سلبتهم كلّ شيء جميل، وقالت بصوت مرتجف:

- لم أكن أعلم أنّ (ميكولايف) أجمل مدينة في العالم قبل هذه الحرب. كنت دائمًا أتذمر من العيش فيها بسبب كثرة المصانع وتلوث الجوّ فيها، الآن بعد أن شاهدت ما حلّ بها من دمار وخراب، أدركت كم كانت هذه المدينة وادعة ولطيفة.

وأجهشت باكية مرة أخرى.

وجه ألكسندر سؤالًا إلى مُعاذ ورفاقه عن خطتهم لمغادرة أوكرانيا، بعد أن عرف أنهم فئة من الطلاب العرب الذين وجدوا أنفسهم مضطرين لمغادرة البلد التي جاؤوها للدراسة بحثًا عن ملاذ آمن.

أجاب مُعاذ أنهم يعتزمون التوجه إلى بولندا عبر الحدود البرية مع أوكرانيا حتى يكونوا في مأمن ثمّ يتدبرون أمر عودتهم إلى بلادهم عن طريق قنصليات دولهم.

أمسك ألكسندر بكف مُعاذ وقال بجدية:

- يمكنكم مرافقتنا، نحن أيضًا ذاهبون باتجاه الحدود مع بولندا. علينا الخروج من- أوكرانيا إلى أن تهدأ الأوضاع.

حاول مُعاذ أن يتكلم ولكنّ الرجل الأوكراني قاطعه قائلًا بإصرار:

- لقد أنقذتم طفلي الوحيد، ولن أتوانى عن تقديم العون لكم.

ثمّ أخبرهم أنّ سيارته تعطلت وهو في طريقه إلى (لفيف)، وقد يستغرق إصلاحها عدة أيام، لذلك قرر أن يتعهد بها إلى صاحب الاستراحة.

توقف قليلًا عن الكلام ورشف رشفتين من كوب القهوة، ثمّ واصل ما قطعه من حديث:

- سوف نستأجر حافلة تسعُنا جميعًا وننطلق نحو الحدود البولندية، ولكنْ علينا أن نغتنم الوقت، فالجميع يتوافد إلى (لفيف) وقد نضطر للانتظار عدة أيام حتى نعثر على واحدة.

جاءهم صوت صاحب الاستراحة الذي سمع الجزء الأخير من حوارهم وهو داخل لاستلام العمل من ابنته:

- اتركوا أمر الحافلة لي، أعرف سائقًا يمتلك حافلة متوسطة كان يستخدمها لنقل السيّاح من الحيّ الأرمني إلى بقية الأماكن في (لفيف).

أخرج هاتفه على الفور وتحدث إلى السائق لبرهة من الوقت. ثمّ أنهى المكالمة وقد تهللت أساريره. وقال:

- لو تأخرنا دقائق لاتّفق مع مجموعة أخرى. يمكنكم تجهيز أنفسكم فالانطلاق غدًا- صباحًا.

شكره مُعاذ والبقية على حسن معاملته وتطوعه لمساعدتهم. ولم يستطع عبد العزيز أن يمنع نفسه من ذكر ما فعله معهم السائق الذي تخلى عنهم ورمى بهم على الطريق تحت رشقات الثلوج.

ابتسم الرجل بوجهه المُشَرَّب بالحمرة، وأخذ يتحدث عن طيبة سكان (لفيف)، فمعظمهم ينحدر من القرى المجاورة، وأبناء القرى يكتسبون من حياتهم البسيطة طيبة في قلوبهم وحبًّا لمساعدة الغرباء. وشكر القدر الذي جاء بهم إلى هنا حتى لا تبقى تلك الذكرى السيئة آخر ما يحملونه عن الأوكرانيين.

***

استقلّ الجميع الحافلة، كانت نوران قد استعادت جزءًا كبيرًا من عافيتها. أخبرها مُعاذ أن تبتعد عن تناول السكريات والنشويات، لذلك طلبت من صاحب الاستراحة أن يزودها ببعض الخضار والفاكهة.

ودّع الجميع الحيّ الأرمني الذي لم تسنح لهم رؤيته جيّدًا، وشكروا صاحب الاستراحة على دماثته ومساعدته لهم. وانطلقت الحافلة تُقِلّ هؤلاء الذين ما زالوا مصدومين مما يحدث في بلادهم المتحضرة الهادئة الجميلة. وأولئك الذين جاؤوا من بلاد أثقلتها الحروب والنكسات، فشوهت جمالها ووأدت هدوءها ووداعتها منذ زمن بعيد.

لم تكن الطريق إلى الحدود البولندية صعبة أو محفوفة بالمخاطر، فما زالت (لفيف) إلى الآن بمنأى عن نيران القصف. إلّا أن الطريق ازدحم بالسيارات والحافلات التي تُقِلّ أجناسًا مختلفة من البشر. سيارات الجيش والشرطة على طول الطريق، لكنهم لم يتعرضوا لأحد من رواد الطريق هذه المرة.

وقفت الحافلة تنتظر دورها في عبور الحدّ الفاصل بين الدولتين. على جنبات الشارع كانت وجوه المودعين تختلط مع وجوه النازحين، البكاء كان قاسمًا مشتركًا بين الوجوه المتعبة.

رجل عجوز وزوجته يجران حقيبتيهما، ويقطعان الحد، خطوات تفصلهما عن الأمان، لم يلتفت أيٌّ منهما إلى الخلف وهما يعبران المظلة العريضة التي تقبع تحتها العديد من حواجز التفتيش البولندية، ليلتئم شملهما بابنتهما التي تنتظرهما داخل الحدود البولندية.

طلب منهم سائق الحافلة الترجل فليس من المسموح دخول الحافلات العمومية. امتثلوا لكلامه وجلبوا حقائبهم، ووجدوا أنفسهم

يسيرون باتجاه ذات المظلة. التفتت رشا تتفحص الوجوه من حولها، وقعت نظرة منها على وجه مُعاذ، كان يرفع نظارته ليقذف بدمعة تهاوت رغمًا عنه في الهواء. أشاحت بوجهها سريعًا، لا شيء أصعب على النفس من إمساكها متلبسة بحالة ضعف وقهر.

بدأت المسافة بينهم وبين الحواجز تقِلّ شيئًا فشيئًا حتى أصبحوا أمام الحاجز الأخير، أخرجوا جوازات سفرهم ووضعوها أمام الشرطي، نظر فيها واحدًا تلو الآخر متفحصًا ثمّ ختم عليها تباعًا بوسم الدخول.

خطت أقدامهم أرض بولندا. اختلطت مشاعرهم بين الفرح والحزن، وقفوا يتأملون المكان من حولهم، شاهدوا جميع من تخطّى الحدود يتجهون نحو مبنى يبدو كثكنات الجيش، كانت مشاعرهم مضطربة، تظهر في عيونهم دموع مختبئة يتوسل أصحابها ألّا تخونهم في هذا المكان، كلّ واحد كان يخبئ ما بقلبه من حزن وغُصّة إلى وقت يختلي فيه بنفسه ليفرغ ما بقلبه من مشاعر الألم والحزن والضياع والقهر على سنوات مضت من أعمارهم وهم يتطلعون إلى اليوم الذين يحصدون فيه ثمار تعبهم فيعودون إلى بلادهم وعائلاتهم بالشهادة التي احتملوا الغربة من أجلها. لم يدر في خلد أيٍّ منهم عندما حطت به الطائرة لأول مرة على أرض أوكرانيا أنهم سيخرجون منها هاربين عبر حدودها البرية مع جارتها البولندية التي أصبحت البرّ الآمن للفارّين من الموت.

لا يخشى الناس فكرة الموت نفسها، ولكنّ انتظار الموت أو توقعه في أي لحظة هي الفكرة المرعبة. الإحساس بأنك يمكن أن تموت الآن في

هذه اللحظة، يشبه مشاهدة الشاة للجزار يتقدم نحوها بسكينه. النجاة التي يهرب من أجلها الجميع تاركين خلفهم أشياءهم الثمينة، نجاة من سيطرة فكرة الانتظار لهذه النهاية الحتمية التي لا ينكرها أحد.

دخلوا المبنى كما فعل الكثيرون، كان صالة واسعة تتوزع في كل زاوية من زواياه غرف زجاجية صغيرة تعلوها أعلام دول مختلفة، توجه كلّ شخص من النازحين نحو مندوب سفارة بلاده القابع في الغرفة المخصصة له، ليسجل اسمه في الكشف الخاص بطائرات الإجلاء.

توقف الجميع لبرهة، قال مُعاذ بصوت متهدّج على غير العادة متعمدًا ألّا ينظر مباشرة في وجوه رفاقه:

- أعتقد أننا سنفترق هنا. على كلّ واحد منكم أن يتوجه إلى مندوب سفارته ليستكمل إجراءاته الخاصة بالعودة إلى وطنه.

شعر الجميع بأن الغصة التي حاولوا كتمانها في صدورهم ستنفجر بسبب الكلمات المقتضبة التي قالها مُعاذ.

قالت نوران وهي تدافع دموعًا تملأ عينيها:

- هي نهاية رحلتنا معًا إذًا؟

أجاب مُعاذ وقد استعاد بعض رباطة جأشه: «نعم. سوف تتكفل السفارات برعاياها الذين نزحوا إلى بولندا وتشرف على عملية إجلائهم بأمان».

ساد جوٌّ غريب بين مجموعة الشبّان والشابّات الذين جمعهم الرعب من طائرات السوخوي والدرون والميج، وجعلهم يشتركون في طريق واحد بحثًا عن النجاة.

لم يقوَ أحد على النظر مباشرة إلى وجه الآخر، وضعت هند يدها على فمها تحبس صوت الدموع التي أخذت تخطّ مجراها فوق خديها، تنهّد الشبّان وهم يحاولون جمع شتات مشاعرهم، بدّد عبد العزيز الجوّ الغريب الذي ساد بينهم. فجأة، لوّح بيده وهو يتجه نحو الغرفة التي يعلوها علم السودان، وقال مازحًا:

- العالم قرية صغيرة يا رفاق، ابقوا على تواصل.

تبعته منار بعد أن تعانقت مع رشا ونوران وهند. ومثلهما فعل البقية.

بقيت رشا ومُعاذ واقفين، قال مُعاذ وهو يحمل حقيبتها مع الكيس الذي أفرغ عبد العزيز أدواته فيه:

- دعينا نذهب معًا، طائرة الإجلاء ستتحرك الليلة.

بينما هما يمشيان جنبًا إلى جنب علا صوت دويٍ هائل ثمّ وقع ارتطامات متتالية. لم ينظرا إلى الخلف، وتابعا التقدم وكلٌّ منهما يحبس دمعة فرّت من بين أضلعه ووقفت متأهبة في مآقيهما.

***

دخلت جمانة صالة انتظار القادمين في المطار. لم تصطحب أطفالها هذه المرة، لكنّها لم تكن وحدها في انتظاره، فإلى جانبها وقفت شقيقته منى متأهبة لتصوير اللقطة الأولى لوصوله.

ازدحم المكان بالعديد من المراسلين والصحفيين يحملون باقات من الزهور، ومن بين الحضور وقف الدكتور فارس وإلى جانبه ابنته رشا، وعلى بعد خطوات قليلة انتصب مُعاذ بقامته الطويلة ونظارته الطبية السميكة وفي يده كيس ورقي صغير.

غصت الصالة بروّادها ممن قدموا لاستقبال أحبائهم. الطائرة التي غيرت مسارها من (كييف) إلى أوديسا بعد ان تمّ تعطيل المطار في العاصمة تمامًا، طائرة خاصة لإجلاء الصحفيين ومَن تبقّى من المغتربين.

أعلنت مكبرات الصوت عن وصول الطائرة من المدينة الأوكرانية الشهيرة، تنهدت جمانة بارتياح. مضت نصف ساعة قبل أن تلمحه على كرسي متحرك يدفعه أحد عمال المطار.

حجبت وجهها بكفيها للحظة لتبقى محافظة على وعدها لنفسها ان تبقى متماسكة. مشت نحوه حتى وقفت أمامه، ابتسم لها بوجهه المتعب وقال:

- ها قد عدت.

لم تتفوه بكلمة، لمعت عيناها فوشَت بما في قلبها من فرحة بعودته، بقيت شفتاها مطبقتين. شاهد ارتجافهما، اتسعت ابتسامته أكثر كأنها

تنوب عن كلمات يُطَمْئِن بها نفسَها المرتبكة. استدارت خلف الكرسي المتحرك، شكرت العامل وتكفلت بالمهمة عنه. ودّت لو تحتضنه وتتلمس وجهَه المُنهَك، وتقول له إنّها فخورة به وبعمله، وإنها ستبقى دائمًا في انتظاره.

سمعت فجأة تصفيقًا حارًّا من أصدقائه الصحفيين، كانت عبارات التهنئة بعودته سالمًا تتطاير من هنا وهناك. حيّاهم يوسف بإيماءة من رأسه وابتسامة عريضة مرهقة.

خرج من بين المجتمعين شابٌّ طويل القامة، انشغل بتعديل نظارته وهو يقترب من يوسف، انحنى وقبّل رأسه ثمّ قال:

- حمدًا لله على سلامتك، لقد تأخرتَ في العودة.

ابتسم يوسف وهو يكافح الألم الذي ينبض به كتفه وذراعه:

- وهل ظننتم أنني سأغادر قبل أن أطمَئِنّ على عبوركم الحدود.

لحقت به شابة ذات أنف دقيق ووجه صغير علقت به بقايا تعب وإرهاق. وقفت بالقرب من مُعاذ وحيّت الصحفي بصوت هادئ مهنئةً بسلامة عودته. ردّ يوسف على تحية رشا بابتسامة وقال مشجعًا:

- ننتظر تخرجك من الجامعة هنا دكتورة رشا.

لأول مرة لم يرتعش قلبها لسماع صوته ورؤيته، كانت قوية متماسكة من الداخل. سرّها هذا الشعور. أيقنت أنها نضجت وتخلّصت من مشاعر زائفة أرهقتها لسنوات. ردت بثقة أنها ستكمل دراستها للطب بعد أن تُتِمّ

إجراءات معادلة الشهادة وسنوات الدراسة التي أنهتها في أوكرانيا. وأنّها أصبحت مصممة أكثر على استكمال دراستها بعد ما مرّوا به من تجارب مؤلمة.

لاحت منها نظرة إلى مُعاذ، بدا لها أن عينيه تلمعان، وابتسامة إعجاب بإصرارها تتراقص فوق شفتيه. ارتعش قلبها وتسارعت نبضاته حتى خيل إليها أن جميع من في المكان شهود عليه.

أبدى مُعاذ رغبته لزوجة الصحفي أن تسمح له بمهمة دفع الكرسي المتحرك. قاد الكرسي وسط الأصوات المرتفعة بالسلام وإلقاء التحية على يوسف، توقف قليلًا أمام الدكتور فارس الذي نظر إلى يوسف وعيناه ممتلئتان بالدموع والامتنان، شكره بحرارة على مساعدته لابنته وزملائها. التفت مُعاذ بهدوء نحو رشا ومدّ يده إليها بالكيس دون أن يعطيَها أي مجال للتساؤل.

تبسم يوسف وأوما برأسه شاكرًا حضور أستاذه، وقال وهو يشير إلى رشا:

- الدكتورة رشا بطلة. هنيئًا لك بعودتها.

تابع مُعاذ دفع الكرسي المتحرك نحو سيارة الإسعاف التي كانت في انتظار عودة الصحفي المصاب الذي فضّل البقاء في أوكرانيا رغم إصابته ليطمئن على سلامة مجموعة من الطلاب النازحين نحو الحدود. تقدمت منى نحو شقيقها وقبّلت رأسه. وتابعت تصوير دخوله إلى السيارة.

بقيت رشا واقفة في موقف السيارات بانتظار سيارة والدها، ألقت نظرة إلى داخل الكيس الذي قدّمه معاذ لها، كانت رواية «آنا كارنينا» لتولستوي! افترّ ثغرها عن ابتسامة كبيرة، تذكرت رحلتهم إلى (لفيف). فتحت الصفحة الأولى، قرأت الإهداء الذي كتبه: «إلى من اتهمتني بأنني أتجسس عليها، ولم تعتذر بعد».

احمرّ وجهها خجلًا، تذكرت حديثهما على درجات السلّم. تلفّتَت حولها تبحث بعينيها عنه، شاهدت قامته الطويلة تندس في إحدى سيارات الأجرة، لتنطلق به خارج المطار.

صعد يوسف السيارة، ساعده بعض الموجودين، جلست جمانة بقربه ومالت نحو أذنه وهمست:

- إجازة سريعة أم خاطفة؟

تبسم قائلا بمرح:

- إجازة للعلاج. هناك عمل لم أنهِ في أوكرانيا.

تمّت.

